الليتورجيا القبطية

مدرسة اللاهوت الأرثوذكسي

دكتور جورج حبيب بباوي

٢٠١٧

اللِّيتُورجِيا القِبْطِيَّة،
مَدرَسَةُ اللَّاهُوتِ الأُرثُوذُكْسِي

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٧

جدول المحتويات

تقديم **٦**

الطقس كتعبير عن الإيمان والحياة ٧

تجديد حياتنا بلاهوت الليتورجيا..... ..... ٨

فصل تمهيدي: المسيحية ليتورجيًّاً **٩**

عناصر التقليد أو التسليم ١٢

ماذا نعني بأن التجسد رفع حاجز الزمن؟..... ١٧

الحدود الفاصلة النابعة من الخطية ١٨

الزمان والمكان وطبوغرافية الكنيسة..... ..... ٢٠

يسوع المسيح بالروح القدس، هو المكان..... ٢١

الخلاص في الزمان والمكان..... ..... ٢٤

الفصل الأول: الطقس الكنسي بين الرمز، والوعي الإيماني بسِرِّ حضور الثالوث ٢٨

الكنيسة هي تدبير الله في التاريخ ٢٨

أساس التدبير – الطقس ٢٩

كيف نفهم الطقوس؟ ٣٠

التطبيق على الاتجاه نحو الشرق ٣٣

الدلالة والرمز في عالم منقسم..... ..... ٣٥

المسيح الحي قبل اللقاء به في الأسرار والطقوس ٣٨

رائحة الحياة في المسيح وفي الروح القدس ٤٣

الإشارات إلى سري المعمودية والميرون ٤٤
السر الكامن في الرمز ٤٥
ماذا نتعلم..... ٤٦
الفصل الثاني: الليتورجية، وتكوين الهوية الأرثوذكسية ٤٧
الفصل الثالث: الليتورجية ينبوع الماء الحي ٥٧
الفصل الرابع: الصلاة والأسرار في الشرق ٦٦
البدء ٦٦
الخلقُ دعوةٌ للصلاة..... ٦٨
الفصل الخامس: الصلاة الليتورجية علاقة كيانية مع الثالوث ٧٣
أولاً: مرحلة التصدي لمدارس الغنوسية..... ٧٤
ثانياً: مرحلة التصدي للأريوسية ٧٧
الفصل السادس: الليتورجيا، واستيعاب درس التصدِّي للبِدع ٨٢
الفصل السابع: الليتورجية، ومراحل تجديد الخليقة ٨٦
الصلاة والمسحة الملوكية ٩١
الخلق من العدم، والخلق الجديد بالموت والقيامة ٩٥
الفصل الثامن: الليتورجية، والكتابَ المقدس ٩٩
كيف تشرح الليتورجية الكتاب المقدس؟ ٩٩
ما هو الأصل اللغوي لكلمة كفارة في الكتاب المقدس؟..... ١٠٠
هل دفع الابنُ الثمنَ حقاً؟ ١٠٣
"الثمن"، وشراء العبيد في الامبراطورية الرومانية ١٠٤

"الثمن" و"الشراء" في العهد القديم ١٠٦
"الاقتناء" في العهد الجديد..... ١٠٨
"المغفرة" ليست قاصرة على سفك الدم في الذبائح ١١١
النصوص الخاصة بالاقتناء والفداء بالدم..... ١١٥
شهادة الليتورجية القبطية..... ١١٧
الثمن والانتصار على الموت ١٢٤
معنى الاستعارة في ضوء الممارسة الليتورجية ١٢٥
الفصل التاسع: المائدة والمذبح..... ١٢٧
ملامح اللاهوت المدرسي قبل حركة الاصلاح..... ١٢٨
القديس برنارد ١٣٢
المحبة أسمى من القانون ١٣٣
النظرة المتكاملة إلى التراث القديم ١٣٩
النظريات لا تصلح في مجال اللاهوت ١٤١
الذبيحة والقربان ١٤٨
الذبيحة الواحدة ١٥٨
التفسير الليتورجي للذبيحة الواحدة والقربان الواحد ١٦٢
الفصل العاشر: استعلان أقانيم الثالوث، حسب التسليم الليتورجي ١٧٧
ظهور وجه الله..... ١٧٧
"مجداً وإكراماً" خاصَّاً بالثالوث..... ١٧٩
نداءٌ لأقنوم الابن له المجد..... ١٨٠

ظهور وجه الابن للاستنارة ١٨١
ظهورٌ هَدَمَ الموت ١٨١
خصوصية نداء الأقنوم..... ..... ١٨٢
نداء الابن ليعمل ما عمله في العلية..... ... ١٨٣
تقديس القرابين بحلول الروح القدس ١٨٣
اتحادنا بأقنوم الابن المتجسد حسب التدبير ١٨٤
لمحات من الظهور الإلهي في القداس الغريغوري ١٨٥
"طُهر العالم" هو الابن نفسه..... ..... ١٨٦
الخبز السمائي ١٨٦
ملحق: الكنيسة المشتعلة بنار الروح القدس ١٨٨
الكنيسة المشتعلة بنار الروح القدس ١٨٩
سيمفونية المحبة الثالوثية ١٩٠
المصالحة الثالوثية ١٩٢
شرح التسليم الكنسي..... ..... ١٩٤
تغطية يدي الكاهن أثناء الصلاة ١٩٤
نداءُ الشماس واستعادة الشركة..... ..... ١٩٤
لم تتركنا عنك أبداً (إلى الانقضاء)..... .... ١٩٦
تجسد وصار إنساناً مثلنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها..... ١٩٦
أسلم ذاته فداءً عنا إلى الموت..... ..... ١٩٧

تقديم

لعل أكبر الأزمات الفكرية التي مررت بها، هي يوم قرر القائمون على إدارة الكلية الإكليريكية منعي من تدريس اللاهوت العقيدي لأسباب لا تتصل بالهرطقة أو الأرثوذكسية. وقرر هؤلاء أيضاً لأسباب لا تتصل بالهرطقة أو الأرثوذكسية أنني أستطيع أن أقوم بتدريس الطقوس الكنسية وشرحها للطلاب. ومنذ عام ١٩٧٢ قمتُ بالتدريس حسبما سمحت الظروف، دون أن يفطن القائمون على إدارة الكلية الإكليريكية أنني إنما أُدرِّس العقيدة والآباء بحرية وكثافة لم يكن منهج اللاهوت العقيدي يسمح بها بالمرة. أما الحرية، فمصدرها أنني أستطيع أن أبدأ من أي طقس تمارسه الكنيسة. وأما الكثافة فمصدرها أن الطقس هو أقصر الطرق التعليمية المتوفرة لتدريس العقيدة والآباء، فهو لُب وجوهر كل ما وصلت إليه الكنيسة القبطية عبر تاريخها الطويل من خبرة روحية ولاهوتية وعقائدية مستقاة من الرسل والآباء جميعاً. ولقد سررت جداً ببقائي في داخل أسوار الطقس القبطي، فهي أكثر مناعةً من حصون الجدل العقيدي النظري الذي ينهار ويذوب مثل الشمع أمام حرارة التقوى والروح الكامنة في الطقس. فليس أمام المشترك في الخدمة الليتورجية، إلا أن يتأمل الجوانب الروحية الرائعة ليدرك –دون جهد– ما هو إيمان الكنيسة وحقيقة رؤيتها اللاهوتية للثالوث والتجسد والأسرار الكنسية. فالطقوسُ رؤيةٌ وحسٌّ لاهوتي عميق يقوم على كل دعائم الأرثوذكسية، وهي العقيدة والنُّسك والكتاب المقدس والصلوات والنظرة الروحية للإنسان الجديد الذي خُلِقَ من جديد في يسوع المسيح ربنا. الطقوس هي كل هذا، بل أن سِرَّ قوتها يكمن في أنها الوسيلةُ التي تقودنا إلى هذه الأسرار، وإلى أنها تقدِّم هذه الأسرار للنفس والجسد معاً في وحدة رائعة تقوم على اشتراك الجسد في كل الأبعاد الروحية للحياة الجديدة، وعلى تقديس الحواس الجسدية ورفعها إلى مرتبةٍ أعظم لإدراك الحياة الجديدة في المسيح يسوع.

الطقس كتعبير عن الإيمان والحياة:

في أوجزِ عبارةٍ يمكن أن تُكتب باللغة العربية، ننقل ما سجَّله لنا القديس إيريناوس عن الطقس كتعبير عن الإيمان والحياة، بقوله: "**نحن نصلي ما نؤمن به، وما نؤمن به هو ما نصليه – Lex orandi, Lex credendi**". وبالتالي، نحن نمارس ما نؤمن به، وما نؤمن به هو ما نمارسه. في هذه العبارة نجد تاريخ ولاهوت الكنيسة الجامعة كله. فعندما لا يصبح الإنجيل ممارسةً، يفقد الإنجيل قوته الحقيقية؛ لأن الإنجيل هو بشارة تجسُّد الله في اللحم والدم. والممارسة هي أن ما يقال هو أعمال الرب نفسه التي صارت أساس الحياة الجديدة، مثل أبوة الله الآب لنا، تلك التي جعلت صلاة الأبناء ليست مثل صلاة العبيد؛ لأننا أخذنا روح البنوة "الذي به نصرخ أبَّا *abba* أيها الآب" (غلا ٤: ٥ – ٦). وقبول الروح هو الذي أعطانا "دالة البنين"، كما نقول في القداسات. وتعليم الرب يسوع هو الذي يجعلنا نصلي "الصلاة الربانية"، فقد جاء الابن من عند الآب لكي يعلِّمنا بالعمل والقول أن الله هو آبُ الخليقة، وصار آبَ الخليقة الجديدة ليس بالخلق فقط، بل بالخلاص الذي صار يُعطى من الابن، أي من كيانه، بواسطة الروح القدس، ليس كَمَن يخدم ما هو غريباً عنه، بل لأنه يأخذ من الابن ويعطي ذات أعضاء جسد الابن، أي الكنيسة، تلك التي كُوِّنَت ليسوع يوم مولده لكي تكون له عندما يُكمِّل التدبير، وتمتد حياته ووجوده مثل أغصان الكرمة التي تتكاثر وتنمو (يوحنا ١٥: ١)؛ لأننا حقاً "أعضاء جسده من عظامه ولحمه" (أفسس ٥: ٣٠).

الليتورجيا هي خدمة الابن والروح القدس لنا. ونحن، إذا تركنا هذه الخدمة الإلهية، وحوَّلنا الليتورجيا إلى خدمتنا نحن، فقدنا أحد أركان التدبير، وهو أن الله أرسل ابنه الوحيد لكي يكون لنا حياة؛ لأن "يسوع هو الإله الحق والحياة الأبدية" (١يوحنا ٥: ٢٠)، فقد جاء الإنجيل شهادةً عن حياةٍ، لا عن كلماتٍ فقط؛ لكي ننال حياةً في شخص الرب أو باسمه، حسب تعبير العهد الجديد كله (يو ٢٠: ٣١). هذه الحياة باسمه تجدها في الليتورجيا، وفي الإبصاليات لاسم ربنا يسوع، وهي قلب وتقوى كنيسة مصر أُم

الشهداء.

العقيدة ممارسة؛ لأن العقيدة هي علاقة، والعلاقة هي ما تعبّر عنه الصلوات؛ لأننا لا نصف الله بأوصاف خارجية، بل إن قلنا إنه "ضابط الكل"، فلأن قوته مستعلَنةٌ في تاريخ حياتنا، أي تاريخ الكنيسة. وإن ذكرنا أنه "مُحب البشر"، فلأن أمامنا عطاءَ "جسده ودمه". وإن وُصِفَ بأنه صالحٌ ورحيم، فذلك لأنه يمنح لنا أعظم ما لديه، وهو حياة ابنه وانسكاب الروح القدس.

تجديد حياتنا بلاهوت الليتورجيا:

ما قُدِّم عبر هذه الصفحات هو صلواتنا مع بعض إضافات قليلة؛ لأننا نحتاج إلى تجديد الفكر والقلب دائماً، حتى لا يصبح اشتراكنا في القداس أو عشية أو باكر مجرد حضور فقط بعقلٍ بعيدٍ عن الحضور الإلهي؛ لأن "عمانوئيل إلهنا في وسطنا الآن"، فهو الذي دعانا إلى هذه الوليمة السمائية لكي نشترك فيها بالشكر والتسبيح والتمجيد، فهذه هي حال مَن نال عطيةً ورآها واشترك فيها؛ ولذلك يسبّحُ ويمجّدُ ويخدمُ مع القوات السمائية، الثالوثَ الذي يخدمنا.

لا أريد أن أثقل على القارئ بالمزيد، فقد وضعتُ الخطوط الأساسية، والفصول كلها تشهد بجمال وعمق الشركة التي لنا في الثالوث القدوس، ويبقى أن نتذوق هذا الجمال ونحيا عمق هذه الشركة.

د. جورج حبيب بباوي

أول نوفمبر ٢٠١٦ – ٢٢ بابة ١٧٣٣

شهادة القديس لوقا الإنجيلي.

فصل تمهيدي

المسيحية ليتورجياً

تمتاز المسيحية بأنها تقوم على الدعامات التالية:

١– الخبرة.

٢– الأسرار.

٣– دخول الأبدية في مجال الزمن.

فإذا كانت الخبرة تقوم على الإعلان الإلهي والوحي والكرازة بالكلمة في الصلوات واكتشاف الحياة مع الله، فإن السر هو "Mystery"، أي الأمور الإلهية الخفية التي تُدرَك من خلال الخبرة ولا تُدرَك بالحواس. ولكن ما هو في الأسرار على وجه التخصيص، أي ما تتميز به الأسرار، هو أنها علاقة إلهية إنسانية، هي المناسبات التي يتعامل فيها الإنسان مع الله سرياً من آن لآخر وبشكل مباشر، ويتعامل فيها الله مع الإنسان.

وإذا كانت كلمة "الخبرة" تجُب كل شيء في المسيحية، لكن يجب إبراز السر الكنسي وفهمه. ... فعلى سبيل المثال .. حدث أن جاء أحد الأجانب وعرض علينا في مصر قطعة من الخشب قال إنها من صليب المسيح. بعض البسطاء تحمسوا لها جداً،

ولكن جدلاً دار بيني وبين هؤلاء المتحمسين، عَكَس الفرق بين الأرثوذكسية الصحيحة والأرثوذكسية الشعبية التي تقوم على العواطف والخيال. فقد سألت أحد المتحمسين: أيهما أهم، قطعة الخشب، حتى لو ثبت أنها بالفعل من صليب المسيح، أم المسيح ذاته الموجود والحاضر معنا على المذبح في الإفخارستيا؟ ما قيمة قطعة الخشب هذه، في الوقت الذي يكون فيه هو –لحماً ودماً– أمامنا؟ .. أيهما أجدى إلهياً وروحياً وإنسانياً وكنسياً، ولفائدة الإنسان، أيهما أوقع في وجدان الإنسان وحياته الفكرية؟

لا شك أنها الإفخارستيا؛ لأن الإفخارستيا هي الشركة السرية التي يواجه فيها الإنسان المسيحَ في حقيقته كإلهٍ متجسدٍ كائنٍ على المذبح. الإفخارستيا فيها قوة الصليب الحقيقية، الحياة التي قهرت الموت، هذه هي قوة السر والمواجهة بين الله والإنسان.

أما الدعامة الثالثة، وهي دخول الأبدية في مجال الزمن، فنعني بها أنه رغم أننا نعيش في الكنيسة في الزمان، إلا أنه ليس لدينا زمنٌ بالمعنى السائد في فكر الإنسان، أي تعاقُب الفصول والسنوات والأيام والساعات والثواني إلى آخره. هناك تعبير عند الرسول بولس يتضح لنا منه أن الزمن خارج الكنيسة ليس هو الزمن الذي نتكلم عليه في الإنجيل .. يقول الرسول: "فلا تخجل بشهادة ربنا ولا بي أنا أسيره، بل اشترك في احتمال المشقات لأجل الإنجيل بحسب قوة الله الذي خلصنا ودعانا دعوة مقدسة لا بمقتضى أعمالنا، بل بمقتضى القصد والنعمة التي أُعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية" (٢ تيمو ١: ٨، ٩).

متى أُعطيت لنا النعمة في المسيح يسوع؟

الجواب: قبل الأزمنة الأزلية، وقبل أن يتكون الزمن (المخلوق)، وقبل أن تُخلق الأرض. إذن، كل ما يحدث في الزمان الحاضر، ليس إلا دخولاً أبدياً لله في التاريخ. وما الأوقات والأيام إلاَّ دعوة الإنسان إلى ما هو قبل الزمان؛ لأن الإنسان عائد إلى الأبد الذي أتى منه، فهناك وعدٌ بأن نعود إلى الأزل، وهناك أيضاً موعد لأن الزمان سينقضي.

ولا يجب أن ننسى أن بداية كرازة المسيح في إنجيل القديس مرقس تقول: "وبعدما أُسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة الملكوت"، ويقول: "قد كَمُل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مر ١: ١٤).

ماذا يعني تعبير "قد كمل الزمان"؟ هل يعني أن الزمان قد انتهى؟ يجيب القديس بولس على هذه النقطة: "فلا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت التي هي ظل الأمور العتيدة وأمَّا الجسد فللمسيح" (كو ٢: ١٦)، هنا يعلن القديس بولس إلغاء العيد والهلال والسبت والأكل والشرب، أي إلغاء الزمن، في العهد الجديد، لا في أورشليم ولا في هذا الجبل.

لماذا أُلغي الزمان كعنصر جوهري في التقرب لله؟ لماذا أصبح الزمن غير مطلوب؟

لأن خالق كل الأشياء وخالق الدهور والأزمنة صار إنساناً .. وبسبب التجسد الإلهي انتهى الجانب الزمني، فأنا لا أذهب إلى الله في مواسم معينة كما في العهد القديم، وإنما الله هو الذي جاء إلينا في ملء الزمان. إذن، ليس هناك وقتٌ يصلح لله، أو لا يصلح، فكل الأوقات تصلح وصالحة لله؛ لأن الله حلَّ في الزمان عندما تجسد، وعندما حلَّ الروح القدس في العنصرة، حيث امتلأ الجميع من الله، وصار الله ساكناً كل إنسان. إذن، كل زمان يصلح للعلاقة مع الله.

هذه هي النقطة الجوهرية التي تُظهِر أن المسيحية لها بناءٌ خاص عن غيرها من الديانات الأخرى. وهذا بالطبع ليس طعناً في دينٍ ما. فلكل دينٍ وقاره الخاص، إنما نحن نقصد أن هناك بناءً دقيقاً للمسيحية يؤكد أن الله قد أزال الحواجز التي تفصل بينه وبين الإنسان، وإنه منح الإنسان عطايا إلهية فائقة للطبيعة بشكل يجعله قادراً أن يتذوق الأبدية وهو كائنٌ على الأرض.

هنا نصل إلى النتيجة النهائية، فإذا كانت هذه هي صفات المسيحية، فواضح أنها تحوي أربعة عناصر هامة:

١– المسيحية كتابٌ مفتوح ينتهي عند آخر الدهور.

٢– المسيحية حياةٌ متطورة تكمُل في الدهر الآتي بالقيامة.

٣– المسيحية ليست ديانةً قائمةً على نصوصٍ، أو تفاسير، بل على علاقة زمانية أرضية أبدية سماوية بين الله والإنسان.

٤– المسيحية لا تقف عند حدٍّ معين أو تاريخ معين وتعتبر أن هذا العصر هو عصرها الذهبي، فكل عصورها ذهبية.

هذه النقاط الأربع، تنضوي تحت كلمة واحدة، هي "التقليد أو التسليم"[١].

عناصر التقليد أو التسليم:

قد نظن أن الحياة المسيحية هي الاستيقاظ كل صباح وقراءة فقرة من الإنجيل والصلاة ثم الخروج إلى العمل، وبهذا نكون قد أكملنا المطلوب منا. ولكن المتعِب في هذا الظن هو أن حياتنا المسيحية سوف تتحول عندئذٍ إلى قواعد وفروض. هكذا نفقد الرؤية الصحيحة للمسيحية نتيجة أسباب حضارية وفكرية، ونتيجة انتشار التعليم غير الصحيح.

وإذا نظرنا إلى العنصر الأول مع الرابع، فلن نجد أن هناك فارقاً فيما بينهما، لأن النقطة الأساسية في العنصرين هي أنني إذا أردت الرجوع إلى التعليم العقيدي للكنيسة، فلا شيء يحتم عليَّ أن أقول إن الفترة الخاصة بالقرنين الرابع والخامس هي العصر الذهبي للتعليم الأرثوذكسي، وبالتالي لا نعير اهتماماً لما في غيرهما.

الحقيقة أن الكنيسة ليس فيها عصور ذهبية وفضية ونحاسية وخشبية، لأنها

(١) راجع بمزيد من التفصيل كتابنا: المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي، القاهرة ٢٠١٢، ص ٩٥ وما بعدها.

حضور الله في العالم، وإن كان الكلمة صار جسداً وسكن بيننا، فهذا حدثٌ متجددٌ مفتوحٌ، يسمح بالنمو المطرد، وعلى ذلك لا يمكننا مثلاً أن نحدد الأصوام في الكنيسة على أساس فترة تاريخية محددة، ولتكن على سبيل المثال هي فترة وجود المسيح بالجسد على الأرض، أو فترة الرسل، أو القرن الرابع .. لأننا عندئذٍ سنجد حتماً أن السيد المسيح لم يصُم صوم الميلاد. وأن الرسل لم يصوموا صوم الرسل إلاَّ بعد العنصرة. ولو ثبت بالبحث أن صوم العذراء دخل إلى الكنيسة في القرن الـ ١٣، وأن صوم الميلاد دخل في القرن الرابع، وصوم الرسل في القرن الأول، فهل يكون لذلك من أثر على تحديد فترة الأصوام في الكنيسة؟ إن ما يجب أن نلتفت إليه بكل وعي، هو أن الصوم ليس فرضاً، وإنما نحن الذين نُقبل عليه بحريتنا واختيارنا، وإلاَّ فقد معناه الروحي تماماً. ولذلك، النقطة الجوهرية التي يجب أن نعيها تماماً، هي أنه ليس لديَّ عصرٌ ذهبي تُقاس عليه الأصوام.

كذلك الأمر بالنسبة للقداس، فليست الدعامة الأساسية الحقيقية للقداس، هي متى وُضِعَ، لكن هي أنَّ المسيحَ كائنٌ على المذبح، وأن هناك صلوات –مهما كان تاريخها– فهي إنما تُقاس بمضمونها الروحي وليس بقِدمها أو تاريخها.

وهنا يجب أن نستعيد وعينا بالتسليم الكنسي؛ لأنه بدون هذا الوعي، نفقد الفهم الأرثوذكسي للمسيحية. وعلى ذلك، البُعد الزمني الذي يُحيِّر كثيرين، هو في الحقيقة غير موجود في خدمتنا الليتورجية المسيحية، فليس الزمان هو قاعدة الحساب، وليس لدينا زمانٌ مقدس، وزمانٌ غير مقدس، وليس لدينا أوقاتٌ يجوز فيها الاشتراك في الخدمة الليتورجية وأوقاتٌ لا يجوز فيها ذلك. كل هذا كان قائماً في العهد القديم الذي يصفه القديس بولس في الرسالة إلى العبرانيين بأنه قائمٌ بفروض وظلال موضوعة إلى وقت الإصلاح أو التجديد. ما هو وقت الإصلاح أو التجديد؟ كان المسيحيون الأوائل الذي عاشوا في القرون الأولى على وعيٍ بأنهم إذا اجتمعوا في اليوم الخاص بالرب –والذي نسميه يوم الأحد– فهم يجتمعون في يوم قيامة المسيح، أي اليوم الذي قام فيه المسيح حيَّاً وأعلن عن ذاته حيَّاً في الكنيسة. وبالتالي، فالكنيسة تجتمع في يوم الرب؛ لأنها تريد أن تتذوق وتختبر قوة القيامة من الأموات. وما يجب أن نلفت النظر إليه، هو أن الطقوس

الكنسية الكبرى مثل المعمودية والرسامات والأكاليل، كانت تُمارَس في أيام الآحاد فقط. أمَّا الطقوس الصغرى التي لا نستطيع التحكم فيها مثل الجنازات، فكانت تمارس في غير يوم الأحد.

ومن المصادر الطقسية القديمة نعلم أنه في حالة انتقال إنسان ما، كانت الذبيحة تُقدَّم في الكنيسة عنه، ويُصلى عليه في القداس الإلهي، ثم بعد ذلك يُدفن، هذا إذا كان في الإمكان ترك الجسد، ولم تكن هناك مشكلة في بقاء الجسد أكثر من يوم. وفي أخميم الشديدة الحرارة، توجد أجساد بكاملها، وقد أظهرت دراسات علماء الآثار إن عادات الدفن حتى القرن السادس الميلادي، كانت تتم بالتكفين الفرعوني، وقد عُثر على أجساد كاملة تعود إلى نهاية العصر القبطي. هنا نشير فقط إلى أننا فقدنا شيئاً عزيزاً جداً بسبب الإهمال الروحي، وهو اجتماع الكنيسة في حالة انتقال أحد الأعضاء لكي تصلي وتقرِّب عنه الذبيحة، ولم يكن الشعب يبكي وينوح، إنما يتقدم ويتناول من الأسرار، حسبما ذُكر في وصف جنازة الأنبا باخوميوس أب الشركة.

فنظرة الكنيسة الأولى للموت كانت تختلف تماماً عن نظرتها الحالية له.

ذات الأمر أيضاً بالنسبة لطقس الإكليل .. كان المسيحي يبدأ إكليله من عشية السبت ويحضر تسبحة نصف الليل وباكر الأحد، ثم الاكليل، وبعده يقام القداس الإلهي. أما الصلوات التي تُقال في أثناء الاكليل: "أكاليل مجد وكرامة، أكاليل بركة وخلاص، أكاليل فرح ومسرة، أكاليل تهليل وبهجة، أكاليل فضيلة وعدل، أكاليل حكمة وفهم قلب، أكاليل ثبات وعزاء"، هذه الصلوات، يقول عنها مصدر طقسي قديم، إنها هي الطلبات السبعة التي لعطايا الروح القدس السبعة التي ترافق الحياة الجديدة التي غلبت الموت بالمسيح. فليس البهاء والكرامة، سوى عطية الدهر الآتي والقيامة من الأموات؟ لأن الذين يتزوجون، إنما يغلبون ويكلَّلون؛ لأنهم –بنعمة الروح القدس– يؤهَّلون للوقوف عن يمين الله في اليوم الأخير. ومسحة الزيت الملوكية التي أُعطيت لداود والأنبياء في العهد القديم، هذه يُمسح بها العريس ثم يُكلَّل؛ لأنه ملكٌ ويُقام ملكاً على الخليقة. ولك أن

تتأمل عزيزي القارئ في أن الإنسان الذي يُكلل في يوم الأحد، حيث يُقام عرسه، ويأخذ عروسه بهذه النظرة الروحية العميقة، أن كل يوم أحد، بل وكل قداس، سوف يكون بالنسبة إليه، ذكرى تجديد النعمة الإلهية التي أُعطيت في سر الزيجة المقدس.

كان يومُ الأحد له وضعٌ هام جداً عند المسيحيين الأوائل، وقد وجدنا بعض الصلوات التي كانت تشير إلى انقطاع العمل بصورة كاملة حتى في أعمال البيت. وكانت الصلاة تبدأ بإشعال قنديل الزيت لإنارة المنزل عشية السبت، وتقال صلاة لا يزال أصلها اليوناني والقبطي معروفاً[١] مثل التي تتلوها الأسرة أثناء الاجتماع للاحتفال بيوم الرب، ولا تعمل الاسرة أي عمل، بل تستعد للتقدم والتناول من الأسرار الالهية. هذا يعطي فكرة عن الإنسان الذي يعيش على الأرض في الفردوس، والعالم الجديد الذي يُشرق فيه المسيح بالقيامة، ويعمل فيه الروح القدس في النفس والجسد.

هنا لابد من ضرورة العودة للفهم الروحي الذي كان سائداً في العصور الأولى، فالإنسان لم يعد له زمنٌ خاصٌّ بالوقوف أمام الله؛ لأن الله يأتي إلينا في الزمان، ونحن نفلت من الزمان ونذهب إليه. لذلك وجدنا في أحد الخولاجيات القديمة إشارة إلى أن

---

(١) تعد هذه الصلاة من أقدم الصلوات المسيحية قاطبةً، وقد أشار إليها القديس باسيليوس الكبير في كتابه عن الروح القدس مستشهداً بها على صحة وقدم صيغة الذكصولوجية التي كان يستعملها القديس باسيليوس، وهي: "المجد للآب مع الابن مع الروح القدس". حيث يقول القديس باسيليوس: "ولديَّ برهانٌ آخر يبدو كما لو كان عديم الأهمية، ولكن أقدمية هذا البرهان تجعلني أسجّله هنا طالما أنني متهم بالتجديد، والواقع أنني لست كذلك. لقد استحسن آباؤنا أن لا يشعلوا المصابيح في صمت، بل استحسنوا أن يشعلوا المصابيح ويقدموا الشكر. ومَن الذي وضع كلمات الشكر؟ لا يمكن الإجابة على هذا السؤال لأننا لا نعرف. ولكن الشعب منذ زمن بعيد يقول هذه الصلاة، ولم يعترض أحد على الكلمات أو اتهم الذين يرددون هذه الكلمات بالكفر". (راجع، القديس باسيليوس الكبير، الروح القدس، ترجمة وتعريب د. جورج حبيب بباوي، القاهرة ٢٠١٤، ف ٧٣، ص ١٦٦). وتقول كلمات الصلاة: "**أيها النور البهي، نور المجد القدوس، نور الآب الذي لا يموت، يا يسوع المسيح المبارك السماوي القدوس، إذ قد بلغنا غروب الشمس، ونظرنا نور المساء، نسبّح الله الآب والابن والروح القدس، لأنه يليق دائما أن نسبحك بأصوات الحمد يا ابن الله يا واهب الحياة؛ لذلك كل الخليقة تمجدك**" (نشر نص الصلاة مع دراسة موجزة له Hamman. والنص الكامل منشور أيضاً في دائرة معارف الآثار المسيحية، المجلد الأول: ٦٣٤). ومن الجدير بالذكر أن هذه الصلاة ما تزال تستخدم ضمن صلاة الغروب في الطقس البيزنطي. أنظر أيضاً، د. مارك شنودة، الإفخارستيا، سر الحياة، بناريون للتراث الآبائي، القاهرة ٢٠١٤، ص ٢٢٤.

الكاهن عندما يقف أمام الهيكل ويفتح ستر الهيكل، يكون قد أزال بهذا كل ما يمنع الإنسان عن التفرس ورؤية بركات الدهر الآتي، وقد صرنا في حضرة الثالوث.

ذلك لأن التجسد ألغى تماماً الزمن ولاشاه؛ لأن السيد المسيح بتجسده صار رأساً للكنيسة. وكلمة "رأس" إذا قيلت في الكتاب المقدس، فهي تعني "أصل"، أو "بداية Head"، فالمسيح هو بداية الجنس الجديد، ونحن جميعاً بدأنا من آدم بداية جسدانية وروحية. وهنا، لنكن على حذر من الروحانية المريضة أو التروحن؛ لأننا عندما نتكلم عن الروح ونهمل الجسد، نكون قد أهملنا أحد مكونات شخصية الإنسان، وهو الجسد. هذا الجسد الذي يشن عليه البعض هجوماً حاداً في الوعظ، هو في الحقيقة الذي يأخذ الأسرار، فـ"الإفخارستيا" نتناولها عن طريق الفم، و"المعمودية" بتغطيس كل الجسد في الماء المقدس، و"الميرون" برشم الـ ٣٦ عضواً في الجسد بالزيت المقدس. إذن، البداية الجديدة للحياة المسيحية الجديدة، وإن كانت روحية، إلا أن الإنسان ليس روحاً محضاً، إنما هو روحٌ وجسد، وهذا العنصر الجسداني، المدعو لأن يرث ملكوت السموات في التجديد في يوم الدينونة، هو بذاته القائم بمجد بعد التحول والتغيُّر، فاللحم والدم يتجلى بقوة الروح القدس، ولا تقتصر آثار وفاعلية الأسرار على النفس، بل تمتد إلى الجسد أيضاً، فالجسد لا يذهب إلى العدم.

وأظن أن التربية الكنسية في النصف الثاني من القرن الماضي قد أساءت تفسير الجسد، وحاولت أن تنتزعه من حياة المؤمنين بشكلٍ أو بآخر، ولذلك لم يدخل الجسد بعد في الإطار الروحي الصحيح، بحيث ننظر إلى "الجسد كهبة من الله". ونحن نعلم أن ترتيب الجزء الأخير من قانون الإيمان: "وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي"، هو بمثابة احتفال وتسبيح على النعمة التي ستُعطى للجسد.

والحقيقة، نحن نولد من المسيح ليس ميلاداً روحياً فقط، بل وجسدانياً أيضاً. عموماً، عندما نتحدث عن الجسد لابُد وأن يتضح في فكرنا أن التجسد حقيقي، وأن المسيح هو اتحادٌ حقيقيٌّ بين اللاهوت والناسوت، ونحن نأخذ هذه الطبيعة الروحية

الجديدة كعربون، وإن كنا لا نأخذ بهائها وشكلها إلاَّ في يوم الدينونة. لكن ليتنا ونحن هنا على الأرض، نفهم معنى القيامة، وكيف نضع أيدينا ونلمس هذا الجسد الجديد انطلاقاً من هذا الفهم.

ولأن المسيح هو رأس الانسانية الجديدة، وأن ما يربطني بالمسيح هو المعمودية والميرون، وأن هذه الرابطة التي لا تتكرر، فإن ما يحيرني هو أنني لا أسمع إنساناً يصف المعمودية على أنها سر انضمام المسيحي إلى الكنيسة جسد المسيح. وأن الكلام كله ينصب على أنها ميلادٌ جديد. نحن ننسى أننا بالمعمودية، نصير أعضاء في الجسد، وهذا الجسد، رأسه المسيح، حسب تعبير بولس: "الذي منه تنمو كل الأعضاء". فالمسيح عند بولس بدايةٌ؛ لأنه هو البكر. وهو أصلٌ؛ لأننا أخذنا فيه الأصل الجديد. وهو رأسٌ؛ لأن منه توهَب الحياة إلى باقي الأعضاء. فهناك مسيحٌ واحدٌ تنحدر حياته وتوزَّع على كل أعضاء الجسد الواحد، وبالتالي ليس لدينا في الأرثوذكسية تصوُّرٌ لمشكلة كيف يوجد المسيح على أكثر من مذبح في آن واحد، فالحياة التي في يدك اليمنى هي ذاتها التي في يدك اليسرى. فإن كنا ننضم للمسيح الواحد في المعمودية، فقد صار هذا الانضمام بمثابة رفعِ عائقِ عنصر الزمن والمكان إلى الأبد. لا شيء يفصلنا عن المسيح بسبب المعمودية. لقد صرنا معه جسداً واحداً بالانضمام والالتصاق بالرأس.

ماذا نعني بأن التجسد رفع حاجز الزمن؟

قلنا إن الله أتى إلينا في ابنه يسوع المسيح. وحسب تعبير الرسول بولس جاء إلينا "في ملء الزمان" (غلاطية ٤: ٤). وقد ملأ السموات والأرض من مواهب الحياة الجديدة التي صارت تفيض منه دون مناسبات زمنية مثل العهد القديم؛ لأننا نعيش في زمان التجديد (عب ٩: ١٠). ولا توجد إشارة إلى شيء اسمه الزمان بشكل مطلق، بل زمان الحياة، أي الحياة الأبدية Zoe Aionios (رو ٢: ٧ – ٥: ٢١ – ٦: ٢٢ مع غلاطية ٦: ٨). لقد جاء الابن وتجسد، وهذا يعني أنه وصل بالزمان إلى غايته، أي خلاص الإنسان. والمسيحُ الآن حيٌّ، وإذا استطعنا أن نتتبع استعمال كلمة "الآن" في العهد

الجديد، لوجدنا أن حياة المسيح هي التي تملأ هذا "الآن"، وأن ما يجعل خلاص كل إنسان ممكن، هو أنه هو حيٌّ "الآن"، وبالتالي لا يوجد زمان يفصل الإنسان عن الله؛ لأن الله جاء وتجسد، وصار حاضراً دائماً في كل زمان.

الحدود الفاصلة النابعة من الخطية:

إذن، ما الذي يصنع الإحساس بالمكان وبسطوة الحدود والحواجز وما إليه؟

تنبع سطوة المكان في الحقيقة من طرد الإنسان من الفردوس، ومن محاولة الإنسان الاختفاء في مكانٍ ما بعيداً عن الله. نتج عن ذلك أن صار الله بعيداً عن الإنسان. كان البُعد –أصلاً– بُعداً داخلياً عندما اغترب الإنسان وابتعد عن الله، ولكنه صار بعد ذلك، إلى جوار البُعد الداخلي، بُعداً جغرافياً، صار المكان هو المحدود، والحيز الذي يعيش فيه الإنسان. في العهد القديم ظهر الله في أماكن كثيرة، من ذلك تجليه عند بلوطات ممرا وعلى جبل سيناء وفي الهيكل، وكانت هذه الظهورات بمثابة دخول الله للمكان.

كل هذه الظهورات كانت تؤكد أن الله سوف يأتي إلى الإنسان حيث هو. المكان وهمٌ خلقته الخليقة الأولى عندما جعلت الإنسان يتصور أنه يوجد مكان يمكن أن يختبئ فيه من الله، في حين أن المكان –مهما كان– لا يمكن أن يكون بعيداً عن الله. ولكن هذا الوهم هو الذي جعل صورة الإنسان الذي يختبئ بعيداً عن الله تظهر في العهد القديم بشكل خاص لتؤكد، ليس تكرار قصة آدم فقط، بل استمرارية محاولات الاختباء عن الله، ولذلك السبب يرتل داود سائلاً: "يا رب قد اختبرتني وعرفتني، أنت عرفت جلوسي وقيامي، فهمت فكري من بعيد، مسلكي ومربضي ذريت .. لأنه ليس كلمة في لساني إلا وأنت يا رب عرفتها كلها .. من خلف ومن قدام حاصرتني .. أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب، إن صعدت إلى السموات، فأنت هناك .. (مز ١٣٩: ١-١٢).

فالنبي يعرف أن الاختباء من الله مستحيل، وأن الاختفاء في مكانٍ، أيّ مكان، سواء أكان السماء أم الهاوية أم أقاصي البحر، غير ممكن، فالله مالئ كل المسكونة ويشرق وجهه أينما كان الإنسان.

وعلى ذلك، فالمكان يعني في نظر الإنسان المنفصل عن الله، أنه يوجد فراغٌ لا يملأه الله، أو أن هناك أبعاداً جغرافية محرومةٌ من الحضور الإلهي؛ لأن الإنسان يشغل ويملأ هذه الأبعاد سواء أكانت غرفةً أو منزلاً.

وإذا كانت الخطايا تتناقض مع بعضها كما يقول الآباء، فالخوف من الاماكن المغلقة Elavsero Phobia أو الخوف من الاماكن المفتوحة أو الخلاء Agoraphobia أو الاماكن العامة المملوءة بالناس، هو خوفٌ يتناقض فيه الإنسان المريض بالخوف مع إنسان آخر مريض بنفس الخوف (جوهرياً)، وإن كانت مظاهر وأسباب الخوف مختلفة. ولكن النقطة الأساسية هنا هي أن المكان يمكن أن يكون مصدرَ رعبٍ للإنسان سواء أكان مغلقاً أو مفتوحاً. وحتى بالنسبة للذين لا يعانون من نفس الخوف، المكان أحياناً رغم اتساعه يضيق بهم لأنهم بلا سلام داخلي، وأحياناً تتحول القصور الرحبة إلى سجونٍ، إذا كانت النفس بلا شبع داخلي. وطبعاً، ما خلق هذا، ليس المكان نفسه، وإنما التحول الذي يطرأ على الطبيعة البشرية. وفي حالة الانفصال عن الله يصبح المكان ذا أهمية كبيرة، كما يجد الإنسان في الاستتار ما يؤكد أنه يمكن أن ينفرد بنفسه لكي يفعل ما يَعرف أنه عارٌ أو غير مقبول عند الله.

إذن، البُعدُ Dimension وهمٌ، يسقط تماماً عندما تمتلئ النفس من الحضور الإلهي، وبدون الحضور الالهي يكتسب البُعد الزماني والمكاني أهميةً مطلقةً للنفس الغريبة عن الله. وهكذا يبدو من تعبيرات العهد الجديد نفسه مثل: "حلول ملء اللاهوت جسدياً" (كو ١: ١٩)، وأن الابن المتجسد هو "ملء الذي يملأ الكل" (أف ١: ٢٣)، و"أننا أخذنا منه نعمةً عوضاً عن نعمةٍ؛ لأنه هو ملء النعمة" (يو ١: ١٤-١٨)، أنها تعلن لنا بكل وضوح أن المسيح هو الحضور الإلهي في الجسد، وأنه نزل من السماء،

وجاء في الجسد، وأن هذه الأفعال تؤكد لنا نحن البعيدين عن الله، أن المصالحة قد تمت المصالحة، وأن الحواجز التي كانت تفصلنا عن الله، رُفِعَت بسبب مجيء الابن وتجسده.

جدير بنا أن نرى كيف تصلنا كلمة بعيد وبُعد، إن جغرافياً، حيث الحديث عن المسافة ظاهرٍ بوضوح "أما بطرس فتبعه من بعيد إلى دار رئيس الكهنة" (مت ٢٦: ٥٨)، أو روحياً، عندما قيل إن العشار "وقف من بعيد" (لو ١٨: ١٣)، والمعنى الروحي ظاهر، ولكنه يُعبَّر عنه بكل جلاء، بابتعاد القلب (مت ١٥: ٨ – وفي ٧: ٦)، الذي يُوصَف أحياناً بأنه بعيد أو غير بعيد عن الملكوت (مر ١٢: ٣٤). وهكذا، نحن البعيدين (أف ٢: ١٧)، جاء المسيح وبشَّرنا بسلام المصالحة، أي سلام اقتراب الله منا، وصار الله ليس بعيداً عن أيٍّ منا (أع ١٧: ٢١).

الزمان والمكان وطبوغرافية الكنيسة:

طبوغرافية الكنيسة القديمة، التي صارت الآن شبه مجهولة، تؤكِّد لنا أننا نعيش طقسها وسرائرها في إطار طبوغرافي يجمع بيت لحم (القربان)، والأردن (المعمودية)، الجلجثة والقبر (المذبح)، والهيكل وحضن الآب (الشرقية). هذه الأماكن لم تعد أبعاداً جغرافية، بل صارت أبعاداً ليتورجية Liturgical Dimensions وصارت بهذا، كائنة في كل كنيسة. لم تَعُد بيت لحم قريةً في فلسطين، وإنما صارت أينما وُجِدَ (بيتُ قربانٍ) في الكنيسة الجامعة، حيث تجهِّز الكنيسة "الصعيدة"، وتقدِّم القربان في الليتورجية. هنا، المكان الجغرافي ليس مكاناً، وإنما هو دلالة الحضور الإلهي للابن المتجسد.

والإنسانُ يعبُر –طقسياً– من الأردن إلى بيت لحم، ومن بيت لحم إلى الجلجثة والقبر، ثم إلى حضن الآب. هذه الرحلة الليتورجية لا تتم حسب ترتيبٍ جغرافي، ولا حسب ترتيب تاريخي، وإنما حسب ترتيب غائي. فالطقوس ترتِّب حتى حياة المسيح حسب الغاية τελος التي ينشدها الطقس، لا حسب الترتيب التاريخي. فالإنسان المسيحي يُولَد في الأردن (المعمودية)، وينمو ويحيا في بيت لحم والجلجثة، وينشد حضن

الآب. وهنا تعيد الغاية τελος ترتيب الأحداث والمواقع الجغرافية حسب احتياجات الإنسان، وحسب النعمة نفسها.

وانطلاقاً من هذا، صار الزمان والمكان ترتيباً، وإن شئنا الدقة اللغوية واللاهوتية، صار طقساً، أي ترتيباً غائياً، حسب المعنى الشائع في كتابات الآباء. فالمسيح الذي يَهَب الولادة الجديدة في المعمودية، يضم غائياً، الأردن والجلجثة والقبر ويمين الآب. والمسيح الذي يعطي جسده ودمه يضم غائياً، بيت لحم والأردن والجلجثة والقبر ويمين الآب. والذي يعطي الحياة والقوة والحركة الإلهية، هو الروح القدس الذي يجمع حياة الابن، ويدخل في حياتنا حسب غاية الثالوث القدوس من أجل خلاص الإنسان.

وهكذا، اختارت طبوغرافية الكنيسة القديمة عناصر الإعلان الإلهي من حياة المسيح، واختارت بيت لحم، بيت الحياة أو الخبز، واختارت المِسحة الروحية التي تكوِّن سدى المعمودية ولُحمتها، واختارت الجلجثة، وحفرت في حائط الهيكل ما صار يُسمى بالشرقية أو حضن الآب، حيث يجمع الآبُ السماوي كلَّ الذين يأتون إليه فاتحاً حضنه الإلهي. وحسب الطبوغرافية القديمة، كان المذبحُ يُظلَّلُ بالقبة – بالسماء، حيث تظهر أيقونة البشارة، وبعض الإعلانات الإلهية، أحياناً من العهد القديم، وأحياناً من العهد الجديد، وكلها تدور حول هدف الثيئوفانيا والخريستوفانيا، ابتداءً من ظهور الله لإبراهيم، حتى معمودية الرب في الأردن. وهنا، تكون كل الأماكن الجغرافية قد انتقلت إلى الواقع الروحي في الليتورجية، وصارت بذلك تشكِّل طبوغرافية الليتورجية، حيث يتجلى المكان بالإعلان الإلهي، ويخبرنا ليس بتواضع الله وظهوره فقط، بل أيضاً بتحقيق المواعيد ونوال عطية الحياة التي سبق فأعلنها جزئياً في العهد القديم حتى أُكملت في يسوع المسيح.

يسوع المسيح بالروح القدس، هو المكان:

وإذا كان إطلاق تعبير "المكان" على الرب يسوع يبدو غريباً على أسماعنا؛ لأننا هجرنا استعمال هذه الكلمة منذ القرن السابع الميلادي، ولأسباب غير واضحة، إلاَّ أن

الآباء الكبار قد سجَّلوا لنا أنه يجوز لنا أن نستخدم كلمة "مكان" للابن والروح القدس، فالأقنوم الثالث هو "مكان" النفوس، وهو "المكان" الذي تنبع منه كل النِّعم الإلهية. يقول القديس باسيليوس الكبير:

"ما سوف أقوله الآن، يبدو غريباً، ولكنه مع ذلك، فهو حقٌ، فالروح يُوصَفُ عادةً بأنه مقر الذين تقدَّسوا، وسوف نرى أن هذا التشبيه (أي مقر أو مكان) لا يحط من كرامة الروح القدس، بل بالحري يمجِّده، فالكلمات التي تصف الجسد، تُستخدم بسبب وضوحها في الأسفار المقدسة، ولكنها تكتسب معنىً روحياً. ولذلك نجد في المزامير أن الله يوصَف بأنه «كن مخلصي ومكاناً حصيناً» (مز ٧١: ٢ س)، وعن الروح قيل: «هوذا موضع لي وصخرة لأقف عليها» (خر ٣٣: ٢١ س).

وبوضوح، المكان هو الرؤيا الداخلية التي يعطيها الروح، والتي صارت لموسى، فاستطاع أن يرى الله بشكل ظاهر. وهذا هو المكان الخاص بالخدمة الليتورجية الحقيقية، والذي قيل عنه: «احترس من أن تصعد محرقاتك في كل موضع... ولكن في المكان الذي يختاره الرب إلهك» (تث ١٢: ١٣ – ١٤). وما هي هذه الخدمة الليتورجية الحقيقية سوى الذبائح الروحية، أي ذبيحة التسبيح (مز ٥٠: ١٤ س)؟ وفي أي موضع تقدمها؟! في الروح القدس. وممن تعلمنا ذلك؟ من كلمات الرب نفسه: «الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق» (يو ٤: ٢٣)، وقد رأى يعقوب هذا المكان، وقال: «إن الرب في هذا المكان» (تك ٢٨: ١٦). وحقاً، إن الروح هو مكان القديسين، وكل قديس هو حقاً مكان الروح القدس؛ لأنه يقدِّم ذاته ذبيحةً وهيكلاً لسكنى الله، ولذلك قيل إنهم هيكل الله (١كور ٦: ١٩). وهكذا يتكلم بولس في المسيح: «نتكلم في المسيح في حضرة الله» (٢كور ٢: ١٧). بل والمسيح يتكلم في بولس: «أنتم تطلبون برهان المسيح الذي يتكلم فيَّ» (٢كور ١٣: ٣). وهكذا يتكلم بولس في الروح، وأيضاً الروح

يتكلم فيه (١كور ١٤: ٢، ١بط ١: ١١)" (الروح القدس للقديس باسيليوس، ف ٢٦: ٦٢).

ومن نص القديس باسيليوس يظهر لنا بوضوح أن المسيح هو "مكان" الخدمة الليتورجية الحقيقية التي تقدَّم بالروح القدس حسب تفسير باسيليوس والآباء، ولكن النقطة الأساسية التي يجب أن نراعيها، هي أن "المكان" ليس حدوداً جغرافية، فهذا كما رأينا في شرح طبوغرافية الكنيسة قد تجلَّى خارج المعنى الجغرافي، وصار مجالَ إعلانٍ ورؤية. وقد أدرك يوحنا الدمشقي أكثر مَن كَتَبَ بعد عصر الآباء العظام، ضرورةَ التمييز بين المكان الجسماني المحدود والمكان العقلاني، والأخير هو حسب تعبير يوحنا الدمشقي:

"مكانٌ عقلاني فيه تعقل الطبيعة العقلية اللاجسمية، وفيه توجَد وتعمل، وهي لا تكبر في الحجم ولكن تكبر في الادراك .... فالله إذن، وهو غير مادي وغير محدود، هو أيضاً ليس في مكان، بل هو مكانٌ لذاته، وهو يملأ الكل، وهو فوق الكل، ويتخلل الكل. ويقال بأنه في مكانٍ، ويقال مكانُ الله حيث يعمل الله عملاً ظاهراً".

وعاد يوحنا الدمشقي ورتَّب درجات الشركة في الله على هذا النحو:

"الله يتخلل بذاته كلَّ الأشياء، دون أن يختلط جوهره بالأشياء، ويُشرك الجميع في أعماله كلا حسب طاقته وقدر احتماله، أي على قدر طهارة جوهره المخلوق وقدرته على الطاعة والاحتمال.

فالكائنات المخلوقة تنقسم حسب طبيعتها إلى ما هو غير مادي وما هو يمارس الفضيلة دون أن يتعرض للشر. وما هو يمارس الفضيلة ويظل مُعرَّض الاختيار بين الخير والشر .... إن ما يُدعي مكان الله هو ذاك الذي له نصيبٌ أوفر في الفعل الإلهي ونعمته" (مقالة في شرح الإيمان الأرثوذكسي ك ١: فصل ١٣).

وما هي أماكن الله؟ السماء – الأرض (أش ٦: ١ – أش ٦٦: ١). الكنيسة مكان الله؛ لأنها مخصصة لتمجيده، لأنها مكانٌ خصَّصناه لنقدم فيه صلواتنا. ولكن وجود الله في مكانٍ ما كما يؤكد كل الآباء، وكما يشرح الدمشقي، لا يعني أن الله يتجزأ، لأنه كائنٌ كله في كل مكانٍ، وليس موزَّعاً كالأجسام، بل الله كله في كل الأشياء، وجوهره فوق كل الأشياء (المرجع السابق).

الخلاص في الزمان والمكان:

ما الذي يجعل الزمان مختلف عن المكان؟

هذا السؤال، وإن كان يخصُّ الفلسفةَ بشكلٍ عام، إلاَّ أنه يخص اللاهوت بشكلٍ خاص، فالزمان –كما نرى– عنصرٌ متحركٌ، أمَّا المكان، فهو عنصرُ ثابت، وبالتالي ليس الزمان مثل المكان في داخل الإدراك الإنساني، ولكن إذا تحرر العقل من وهم تتابع الأحداث، واستطاع أن يتطهَّر من الانقسام الذي يخلقه السأم في النفس، والذي يؤدي إلى شطر وحدة الزمان والمكان، فالعقلُ يمكنه أن يرى أن أحداث الخلاص بشكلٍ خاص، لا يمكن أن ينفصل فيها الزمان عن المكان؛ لأن الزمان والمكان هما شاهدي خلاص الإنسان، وشاهدي دخول الله لدنيا الإنسان من أجل تجديد الكيان الإنساني.

ولعل الكنيسة الجامعة التي رفضت الهرطقات الغنوسية والمانوية التي فصلت المادة والروح، ونادت بالإثنينية، حيث الله الخالق ليس هو الله المخلص، بل هما إلهين مختلفين تماماً، لم يكن رفضها نابعاً من حرصٍ على التوحيد المسيحي فقط، وإنما هو رفضٌ مصدره فصل الخلق عن الخلاص، وهو الفصل الذي يؤدي في النهاية إلى فصل الزمان عن المكان. فالزمان هو زمان الخليقة، وهو زمان الخلاص أيضاً، ولكن التعليم بإلهين يؤدي في النهاية إلى أن يتم الخلاص خارج المكان، دون أن يعني هذا أنه خارج الزمان أيضاً. فالمكان هو العالم المخلوق الذي نشأ فيه الإنسان، والذي فيه يخلص وفيه يتقدس، وهو

العالم المخلوق زمانياً أيضاً. ولهذا ربط الخلقُ بين الزمان والمكان حيث يحتفل الإنسان بالخلاص أينما شاء، وأينما كان، دون انتظار الفصول والمواعيد أو الأماكن. لكن الوحدة الكائنة بين الزمان والمكان، ليست فقط في عدم الانقسام، ولكنها وحدةٌ نابعةٌ من حقيقة حضور المسيح الإلهي في الزمان والمكان: "ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر"، "دُفع إليَّ كل سلطان ما في السموات وما على الأرض"، وكلا العبارتين تؤكدان أن ربَّ الدهور حاضرٌ في كل مكان، في السماء وعلى الأرض؛ لأنه جمع كل شيء في نفسه، أي ما هو في السماء وعلى الأرض، وهو ما يسميه الرسول: "تدبير ملء الأزمنة" (أف ١: ١٠). ووحدة الزمان والمكان هي في الحقيقة تعني نهاية الزمان؛ لأن مالئ الكل صار رأساً للكنيسة، ونهاية المكان كبُعدٍ جغرافي يفصل الإنسان عن الله؛ لأن الله رفع الخطيئة وأزال العداوة ورفع كل الحواجز التي تفصل الإنسان عن شركة أبدية مع الله.

هنا نعود إلى ما سبق وأن قلناه عن أنه ليس لدينا في الأرثوذكسية تصوُّرٌ لمشكلة كيف يوجد المسيح على أكثر من مذبح في آن واحد، ذلك لأن المسيحَ، وإن كان حاضراً في كل مكان وزمان، ولكنه حاضرٌ بشكلٍ سِرِّيٍّ في الإفخارستيا، حيث يَهَب الحياة من خلال جسده، هذه الحياة هي أُلوهيته التي لا يمكن أن تهب لنا شيئاً إلاَّ من خلال ناسوت الابن المتجسد؛ لأن الناسوت هو العنصر الوحيد المشتَرَك بيننا وبين الابن، وبالتالي، فالمسيح يعطي لنا حياته في السر المجيد، وفي الليتورجية.

طبعاً، لسنا في حاجة إلى القول بأن تحول ناسوت المسيح إلى لاهوت هو هرطقة أوطاخي التي أدانتها الكنيسة الجامعة، ولذلك فنحن لا نؤمن بأن الناسوت تحوَّل إلى جوهر اللاهوت.

ولكن التصور الإنساني بأن جسد المسيح موجودٌ على عدة مذابح في وقت واحد، هو تصوُّرٌ نابعٌ من مخيلةٍ لم تتدرب على سر اتحاد المسيح والكنيسة، فالمسيحُ ليس كائناً منفصلاً عن الكنيسة، يتعدد وجود ناسوته، ولكن المسيح هو رأس الكنيسة الذي يربط كل الأعضاء في وحدة واحدة، هي سِرٌّ عظيم فائق لا يمكن أن نعبِّر عنه إلاَّ بمثال

وحدة الرجل والمرأة في الزيجة. وإذا كان المسيحُ قد تزوَّج الكنيسة، وصارت هي عروساً له، فالقداس هو عودة الكنيسة إلى هذا السر العظيم (أف ٥: ٢٩-٣٢).

هذه العودة، وإن كانت تتم حسب ظروف كل جماعة مسيحية، وحسب ترتيب حياتها، إلاَّ أنها لا يجب أن تُفهم حسب مظهرها الخارجي، أي القداس الذي يبدأ في الصباح، وبعده يبدأ قداسٌ آخر .. الخ. هذا المظهر الخارجي لا يشرح الوحدة السرية؛ لأن المؤمنين جميعاً قد وُلِدوا ميلاداً روحياً واحداً، هو المعمودية المقدسة، وهي التي تجعل الكلَّ مولوداً حسب مقاييس الروح لا حسب مقاييس الجسد، أي أن الميلاد الروحي يجعل الكل في وحدة البنوة الإلهية التي تُوهَب في المعمودية، وبالتالي هذه الوحدة في البنوة، ترفعنا فوق حاجز الزمان والمكان، وتجعلنا من طبيعة واحدة جديدة، ليست هي طبيعة العبيد الخاضعة للزمان والمكان، بل المتَّحدة في جسد واحد وروح واحد (١ كو ١٢: ١١-١٣) وهو ما يجعل الإفخارستيا لقاءً دائماً فوق حدود الزمان والمكان.

تبقى نقطة أساسية، هي أن تصوُّر وجود المسيح على أكثر من مذبح، هو تصوُّرٌ نابعٌ من عدم الإيمان بوحدة الكنيسة الجامعة. ومع أننا نقول في قانون الإيمان: "نؤمن بكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية"، ومع أننا نصلي في طلبة السلام ونقول عن الكنيسة: "هذه الكائنة من أقاصي المسكونة إلى أقاصيها"، إلاَّ أننا كثيراً ما نتصور أن الكنائس هي مجموعات منفصلة، دون أن ندرك أنها في الواقع ليست كذلك، وإنما هي شركة سرية Mystrical للجسد الواحد، مما يجعل وجود الذبيحة في أكثر من مكان أو زمان أمراً ضرورياً لحياة ووحدة الجسد الواحد، أي عكس تصوُّرنا النابع من اختفاء حقيقة أن الكنيسة هي جسد المسيح من الكتب اللاهوتية المعاصرة التي تشرح الإفخارستيا.

وعلى هذا الأساس يظهر بوضوح أننا يجب أن نتصوَّر تعدُّد المذابح، وتعدُّد الصعائد في إطار وحدة الحياة السرية التي تجمع أعضاء الجسد الواحد، حيث لا يختلف عضوٌ عن عضوٍ آخر، بل كل الأعضاء في وحدة واحدة، حيث أنها نابعة من حياة

واحدة توزَّع لكي تنشئ حياةً جديدةً في كل مسيحي، وكل كنيسة، دون أن تنقسم. وهكذا قال القديس كيرلس العبارة التي دخلت القداس البيزنطي: "يوزَّع جسد المسيح الذي لا ينقسم ولا يفنى مهما أكلنا منه". فالجسد يوزَّع دون أن ينقسم، وحتى كلمة القسمة، تأخذ معنى الميراث، وليس التقسيم.

الفصل الأول

الطقس الكنسي
بين الرمز، والوعي الإيماني
بسرِّ حضور الثالوث

الكنيسة هي تدبير الله في التاريخ

من الكلمات اللاهوتية المهجورة، كلمة "تدبير – Economia"، وهي كلمة عبرانية يونانية تعني الخطة الإلهية التي يشرف الله عليها بنفسه، ويشارك في وضعها، بل وتنفيذها أيضاً. هذه الخطة بدأت منذ خلق الإنسان وسقوط الإنسانية في الفردوس. وهدف التدبير أو الخطة، هو الخلاص. والتدبير كخطة متعددة المراحل، بدأت في العهد القديم، ثم بدأت تفاصيلها في الظهور بشكل أوضح في العهد الجديد عندما تجسد الله. فالله يسعى وراء الإنسانية كلها حتى أنه شبَّه نفسه بالراعي الذي يسعى وراء الخروف الضال الواحد ويترك الـ ٩٩. ولذلك كان التدبير الإلهي هو تأسيس الكنيسة، هو خلق جماعة للرب في كل العصور تبشر بالإنجيل أو بالخبر السار، وبالتالي لو لم توجد الكنيسة، ما استطعنا أن نتعرف على الإنجيل، ولولا وجود الكنيسة ما كنا قد استطعنا أن نتحدث

عن التدبير.

التدبير الإلهي هو أن نعود إلى الله بالتجسد والصليب والقيامة وبالروح القدس. أخذ الله جسداً لكي يقترب جداً من الإنسانية، وهذا هو جوهر المسيحية، بل ما يميزها عن غيرها من الديانات. فعندما أراد الله أن يعلن عن نفسه، لم يكتفِ بمجرد الكلام، ولأن العلاقات مستويات، هناك من يكتفي بالسلام والمصافحة، وهناك من لا يرضى إلا بالعناق والمشاركة. ولما كان الله عظيمٌ جداً في محبته، فإنه لم يكتفِ بمجرد الكلام عن طريق الأنبياء، بل اتحد بالإنسانية، أي بالطبيعة الإنسانية؛ لأن الإنسانية كانت في حاجة شديدة إلى هذا الاتحاد، وإلى الشركة.

أساس التدبير – الطقس

عندما أمر الرب موسى أن يصنع خيمة الاجتماع، أمره أن يبني هذه الخيمة وفق الخطة أو المثال الذي رآه على الجبل. وكما كان لموسى مثالٌ بنى على أساسه خيمة الاجتماع، هكذا كان للكنيسة مثالٌ رأته جيداً، ليس في صورةٍ أو في رؤيا مثل موسى، بل مثالاً حيًّا هو ربنا يسوع المسيح نفسه الذي عاش بيننا وأظهر لنا أثناء حياته في الجسد كل ما يخص الكنيسة. فعلى مثال المسيح الذي اعتمد، نعتمد نحن، وعلى مثال المسيح الذي دُهِنَ أو مُسِحَ بالروح القدس، نُمسح نحن بالميرون، وعلى مثال المسيح الذي تجلى على الجبل وسطعت ملابسه بنور عظيم وصارت بيضاء كالثلج (مت ١٧: ٢)، هكذا نؤمن أن كل الأشياء المادية تشارك الله في مجده، ولذلك نستدعي الروح القدس على الأيقونات واللفائف وغيرها. وعلى مثال المسيح الذي أعطى جسده ودمه، يتضمن كل قداس في العالم كلمات تأسيس السر، والتي لا يمكن أن تُستبدل بكلمات أخرى؛ لأنها دعوة المسيح لنا أن "اصنعوا هذا لذكري". وعلى مثال المسيح الذي مات، هكذا نشارك نحن في موته سرياً في المعمودية. ولأن المسيح قام، فلهذا السبب وحده، سنقوم في اليوم الأخير. بل وحتى درجات الكهنوت الثلاثة –كما قال العالم القبطي ابن سباع (القرن ١٣)– مؤسسة على حياة المسيح نفسه، فالمسيح خدم قارئاً لأنه قرأ السفر في

المجمع (لو ٤: ١٦)، وخدم شماساً؛ لأنه قال: "أنا بينكم كالذي يخدم" (لو ٢٢: ٢٧)، وخدم كاهناً لأنه قدم ذبيحة نفسه (عب ٧: ٢٦). وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نؤكد أنه إن كان هناك شيءٌ في الكنيسة ليس مرتبطاً بالمسيح يسوع، فهو وضعٌ بشري لا لزوم له.

وعلى هذا الأساس أيضاً، يمكننا أن نقرر أن الكنيسة هي تعبيرٌ عن هذه المحبة الإلهية التي جعلت الله يتحد بالطبيعة البشرية، وأن كل ما في الطقوس، إنما هو تعبير عن هذا الاتحاد ومحاولة لشرحه، أو إعلان عن بركات الله التي أعطيت لنا في هذا الاتحاد.

كيف نفهم الطقوس؟

بدايةً، يجب أن نعرف أن وراء كل ترتيب طقسي، قاعدة لاهوتية، جعلت الطقس تعبيراً عنها، وأنه إذا لم نفهم هذه القواعد اللاهوتية، تحول الطقس إلى ألغازٍ وطلاسم. ولكي يتضح لنا ذلك، من الضروري أن نبدأ بوقفة قصيرة عند طريقة شرح الطقوس الكنسية التي سادت في أغلب الكتب القبطية ابتداءً من القرن التاسع عشر وحتى أيامنا هذه.

فأغلب الذين شرحوا الطقوس يسيرون على خطٍ واضحٍ لا يتغيَّر، وهو أن الطقوس هي عبارة عن رموزٌ تذكِّر العابدين بأمورٍ قابلةٍ للنسيان، وأن الإنسان يتعلم من الطقوس بعض الأمور العقائدية والروحية أيضاً. ولعل أفضل مثال على هذا الخط هو الشرح والأسباب التي تقدَّم لتفسير ضرورة الاتجاه نحو الشرق أثناء الصلاة، والتي يمكن حصرها في:

١– صعود المسيح في اتجاه المشرق.

٢– مجيئه الثاني من الشرق.

٣– الفردوس الذي كان في الشرق.

٤– المسيح شمس البر التي تشرق من الشرق.

وطبعاً، يجد هؤلاء في نصوص الكتاب المقدس ما يؤيد وجهة نظرهم، وإثبات أن الصعود والمجيء الثاني وإشراق الشمس يؤيد الاتجاه إلى الشرق، هو أمرٌ سهلٌ جداً. فبالطبع يمكن أن يتجه الإنسان إلى الشرق لكي يتذكر الفردوس القديم الذي طُرِد منه، ولكي يتذكر أن المسيح شمس البر الذي يشرق لنا بالنور، وإن كان هذا ينطبق على صلوات النهار، لا سيما صلاة باكر أكثر من غيرها. ولكن، ماذا يحدث إذا تحول الاتجاه إلى الشرق إلى عمل آلي؟ وماذا إذا قال البعض لنا إن الله كائن في كل مكان وحاصرونا باعتراضات من الكتاب المقدس نفسه، أو كما قال واحدٌ من الظرفاء إن الشرق جغرافياً بالنسبة لبلدٍ كمصر، وبسبب دوران الأرض هو نيويورك، أو شمال القارة الأمريكية؟ تلك هي الدائرة المغلقة التي يمكن أن ندور فيها جميعاً، وكأننا ورثنا شيئاً يجب أن ندافع عنه ونبرره لهذا الجيل والأجيال الآتية التي قد ترى رأياً مختلفاً، أو قد تخترع تفسيراً رمزياً جديداً يضاف إلى التفسيرات القديمة الموروثة ..

ولكن ماذا نفعل إذا اكتشفنا من كتابات آباء الكنيسة أن الفردوس قد فُتِحَ بصليب وقيامة مخلصنا يسوع المسيح، وأن الكنيسة هي الفردوس، وبالتالي يبطل تماماً السبب الثالث السابق، فمن عاد إلى الفردوس لا يمكنه أن ينظر إلى مكانٍ سبق له وأن طُرد منه. وماذا نفعل إذا اكتشفنا من واقع الصلوات الكنسية نفسها أن المسيح صعد بمعنى أنه جلس وملَكَ على الكنيسة، وأنه في واقع الأمر جعل "السماء والأرض واحداً"، وبالتالي فهو يجلس عند المائدة الإلهية في القداس، الملك الذي يُقدَّم له البخور مع الملكة والدة الإله، فالشرق هنا ليس حقيقةً جغرافيةً، واتجاهاً محدداً في الكون. وحتى المجيء الثاني، لا يذكر الكتاب المقدس ولا التسليم الكنسي أنه سوف يأتي من الشرق الجغرافي، فالأرض سوف تذوب، والشعوب سوف تجتمع معاً أمام الملك للدينونة .. فما هو الشرق في هذه الحالة؟

والأهم من كل هذا، أن هذه الأسباب الأربعة التي وجدناها في كتب شرح الطقوس المعاصرة ليست معروفة في التراث الكنسي، ما عدا السبب الرابع، وهو إشراقة شمس البر والحياة، والذي وُضِع في إطار روحي آخر غير الإطار الذي تذكره الكتب المعاصرة. وعلى سبيل المثال عند العلامة ترتليان، الاتجاه إلى الشرق هو إشراقة حياة المسيح وقيامته في ظلام الموت وظلاله. ولذلك، المسيحُ هو حياتنا التي أشرقت من جديد. إنه ليس مجرد تذكُّر للنور، أي المسيح، بل النور هو القيامة، وهو أحد الأسباب التي جعلت قداس عيد القيامة منذ بداية المسيحية يُقام في فجر الأحد، ليس لارتباطه بموعد قيامة المسيح، فهذا الموعد غير معروف بالتحديد حسب التسليم الرسولي السكندري؛ لأن القيامة أشرقت "والظلام لا زال باقٍ" (يوحنا ٢٠: ١)، فقد كان الموت محيطاً بنا حتى ذاعت بشرى القيامة. فالمسيحي إذن، لا ينظر إلى إشراقة النور في صباح يوم جديد لكي يتذكر النور المسيح، إنما وقد لمسته أشعة القيامة وسرت حياة المسيح في كيانه، يجد أن الاتجاه إلى الشرق ضرورة توحي بها حياته الداخلية التي تبحث عن مصدرها، أي المسيح.

وإذا عدنا إلى التراث الآبائي، وجدنا ما هو أهم من كل الأسباب التي ذَكَرتها الكتب المعاصرة، فالاتجاه إلى الشرق هو طقس المعمودية القديم حسب شهادة كل الآباء، حيث كان الموعوظ يجحد الشيطان، ويعلن عن جحده للعبادة الوثنية وخدمتها حاملة الموت، ويتم هذا وهو ينظر إلى الغرب، إلى حياته القديمة التي ماتت، والتي خدم فيها الشيطان. والغروبُ مأخوذٌ هنا من الموت، من نهاية العمر، ومرتبط –طبعاً– لغوياً بغروب الشمس، دون أن يكون لهذا ارتباطٌ جغرافيٌّ بالغرب. لقد غَرُبَت الحياة القديمة الميِّتة وانتهت، وهكذا يتجه الموعوظ إلى الشرق؛ لكي يتقبل الحياة الجديدة الآتية، والمشرِقة من المسيح بالاعتراف بالإيمان، وهو الاعتراف الذي يتبعه على الفور النزول إلى مياه المعمودية والغطسات الثلاث. ومن بعد الخروج من المعمودية، تصير الصلاة ناحية جهة الحياة الجديدة برفع اليدين، ويصبح الاتجاه ناحية الشرق اعترافاً دائماً بالإيمان بالمسيح، وإقراراً بالحياة الجديدة المشرِقة بقيامة المسيح.

فالاتجاه نحو الشرق مرتبطٌ بكيان الإنسان الجديد الذي ناله في المعمودية، وهو ما يجعل الصلاة استكمالاً لمسيرة الموت والقيامة مع المسيح.

لعلنا نستطيع بالمقارنة بالتفسير الصحيح النابع من ممارسة الأسرار، أن ندرك أن الطقوس الكنسية ليست رموزاً لأشياءٍ عقليةٍ يجب علينا أن نتذكرها، وإنما هي خبرة نابعة من الداخل، من حياتنا الجديدة التي تقترب من أسرارٍ أعلى من كل مقاييس العقل وقدراته، وبالتالي تقودها الرموزُ إلى حقيقة المسيح، فالرمز هنا، ليس جهداً عقلياً للبحث عن معنى، وإن لم يوجد المعنى أو غاب أو فقدناه بسبب الإهمال، يصبح من الضروري أن نخترع له تفسيراً مهما كان هذا التفسير. المسيح يسوع ربنا حاضرٌ بمجد أبيه وفي الروح القدس، كما تقول الأنشودة القبطية القديمة، وبالتالي، هذا الحضور السري الفائق، تقودنا إليه الرموز وتكشف عنه، فالرمز يقوم بعمل مزدوج، فهو:

أولاً: يكشف عن حضور الله الثالوث السري.

وثانياً: يقود الطبيعة الإنسانية الجديدة لكي تتعرف الأسرار.

وهكذا شَرَحَ الكتاب القديم المنسوب للأريوباغي طقوس الكنيسة، وحدَّد بشكلٍ واضحٍ أن الحقيقة الفائقة التي تفوق الإدراك، هي سر الثالوث التي لا يمكن أن نعبِّر عنها إلاَّ بالكلمة الإلهية، أي الصلوات والطقوس السرية. وهل يمكن أن نعبِّر عن الأسرار بغير الأمور السرية الفائقة، وهي لا تخرج عما تشير إليه الكلمة الإلهية، التي مهما كان وضوحها ومهما كانت علنيتها، فهي لا تزال في دائرة السر، وتبشِّر به أو تشير إليه؟ أما الطقوس السرية، فهي تأخذ من الكلمة الإلهية ومن الصلوات ومن الواقع الروحي للسر نفسه، وتعلِن –سِرّياً وبشكلٍ رمزي– للحياة الجديدة، ما سوف تناله من هبات إلهية.

التطبيق على الإتجاه نحو الشرق:

إذا صحَّ ما ذكرناه، فإننا نستطيع أن نرى بكل وضوح أن الجانب الأول، وهو

حضور الله السري في ابنه يسوع المسيح وبالروح القدس، يظهر في مواجهة الإنسان الدائمة –أثناء كافة الصلوات الكنسية– للثالوث، وهو يصلي ناحية الشرق. ولكن الموضوع لا يقف عند محاولة الاتجاه فقط، فالقداسات القبطية والشرقية عموماً، تطلب في بداية الأنافورا بفم الشماس: "إلى الشرق انظروا"، والنظر هنا هو الرؤية الداخلية، وهي حسب محتوى الصلوات نفسه، الاشتراك في التسبيح مع القوات السمائية؛ لأن الفردوس قد فُتِح والإنسان عاد إليه لكي يأكل من شجرة الحياة، أي جسد ودم عمانوئيل. وهنا نجد أن ما يحدث سرياً في الصلوات، وهو حضور المسيح إلهنا الذي تعلنه الكلمة، عندما تطلب من المصلي أن يتجه إلى الشرق، وأن ينظر عقلياً إلى الفردوس العقلي الذي دخله بالمعمودية المقدسة؛ لأنه تصالح مع السمائيين، واجتمع بالكل في الرأس الواحد ربنا يسوع المسيح (أفسس ١: ١٠)، الذي فيه جمع الله الآب كل شيء ما في السموات وما على الأرض.

ففي فردوس الله الكنيسة، أي الفردوس غير المادي، وهو حسب الليتورجيا "الفردوس العقلي"، وهو لا يعني ما هو كائن في العقل، بل ما كوَّنه الكلمة اللوغوس عندما تجسد، وهو ما تجده في التسبحة السنوية[١]، حيث صارت القديسة مريم هي الفردوس العقلي الذي وُجِدَ فيه الكلمة متجسداً، فجمع ما في السموات معه لكي يعطي لنا حسب التدبير ما يعيد إلينا العلاقة المقطوعة.

ودخولنا الى الفردوس يحدث بالمعمودية التي تجعلنا أولاد الله بتحوُّلٍ كيانيٍّ من العبودية إلى "حرية مجد أولاد الآب"، هذا يشرح لنا كثافة التراتيل التي تقال في شهر كيهك حيث الاحتفال بالتجسد، ونزول الله إلى طبعنا الإنساني واتحادنا بذلك الطبع يظهر في التمجيد الذي يقدم لوالدة الإله،

---

(١) الفردوس العقلي تعبير طقسي هام، استخدمه الآباء لشرح حقيقة التجسد واعتبروا أن الرب يسوع جاء إلى الفردوس العقلي، أي مريم العذراء وسكن فيه جسدياً، ومنه "أشرق جسدياً" معلِناً حقيقة الخلاص.

الدلالة والرمز في عالم منقسم:

لقد شاء الذين شرحوا الطقوس القبطية أن يُغرِقوا القارئ في طوفانٍ من الرمزية لمجرد تأكيد جانب واحد ضروري، وهو أن يرى المشترك في الخدمة الليتورجية[١] الرمزَ ويتذكر المعنى. وبالإضافة إلى الاتجاه إلى الشرق، يمكننا أن نسوق مثالاً آخر شاع في أغلب الكتب التي شرحت الطقوس، وهو أن الشمعتين اللتين على المذبح هما رمزٌ للملاكين في القبر. وخطورة هذا الشرح، هي تحديد قوة الرمز فيما يمكن أن يتذكره الخادم، فإذا لم يتذكر، أو إذا كان الشرح نفسه غامضاً، فَقَدَ الرمزُ معناه، وأصبح الطقسُ نفسه من مصادر الملل وتشتيت الفكر. بالطبع، عنصر الذكرى –كما هو في الطقوس، وكما شرحه الآباء– لا يقوم على عمل الذاكرة وقدرتها على أن تتذكر، فهذا، رغم أنه يحدث فعلاً، ولا يجب إنكاره؛ لأن كلَّ شيء في حياة الإنسان العقلية متَّصلٌ بالذاكرة أو تساهم فيه الذاكرة، إلاَّ أن النقطة الأساسية ليست هي ما تستوعبه الذاكرة من معلومات، ذلك أن معلومات الإنسان مهما كانت، يمكن أن تصبح أفكاراً مجردة تبعث في النفس بعض المشاعر الغامضة التي تتفق ومنهج الهرطقة الدوسيتية الذي يحوِّل الإنسان إلى فكر بلا وجود حقيقي، لا سيما على مستوى اللحم والدم. لذلك وضع الآباءُ الرموزَ في إطار الرؤية الروحية، وإطار حضور الابن المتجسد في الكنيسة بشكلٍ سِرِّيٍّ فائق، تكشف عنه الرموز وتدل عليه، وهنا لا يمكن فصل ما نسميه بالرموز عن الصلوات نفسها، وعن اهداف الأسرار الكنسية، وعن غاية الطقوس وما تعلنه العقيدة الأرثوذكسية من حقائق، هي في حد ذاتها، ليست سوى دعائم علاقة الإنسان بالله.

ولذلك، ولكي يكون هذا الكلام واضحاً، ولا يدخل بدوره في مجال الرموز وغموض الشرح، علينا أن نعود إلى الَمَثل الذي ذكرناه، وهو الشمعتين الموضوعتين على

---

(١) يصلي الأب الكاهن تحليل الخدام: "عبيدك خدام هذا اليوم، القمامصة والقسوس والشمامسة والإكليروس وكل الشعب وضعفي"، فالخدام هم كل المشتركين في الخدمة الإلهية، وبالتالي لا يقتصر التعبير على الكاهن أو الشماس كما قد يتبادر إلى البعض.

المذبح؛ لأن أول ما يفعله القس أو الشماس بعد دخوله الهيكل، هو أن يشعل الشمعتين، وهو ما حرصت حتى قوانين البابا خرستوذولوس على أن تؤكده. وطبعاً، إن المذبح في القداس يحمل جسد الرب ودمه، وأثناء التقدمة يغطي الكاهن التقدمة بغطاء التقدمة المعروف باسم "الأبروسفارين"، ويضع لفافةً على شكل مثلث، تُعرف بأنها ختم القبر. هذا الشرح بالذات، وصلنا في إحدى رسائل الأسقف إيسيذوروس البيلوسي من آباء القرن الخامس، وواضح أن الطقس هنا يشير إلى دفن المسيح ووضعه في القبر المختوم، ثم إعلان القيامة بعد صلاة الصلح. غير أن الكاهن عندما يدخل الهيكل لتقديم "الصعيدة" أو القرابين، فإنه يشعل الشمعتين اللتين على المذبح، وهو بذلك يشير إشارةً رمزيةً إلى شهود القيامة، أي القوات السمائية، وهو بذلك يؤكد على أن حضور الملائكة الذي يلعب دوراً هاماً في الطقس الشرقي عموماً والقبطي خاصةً، عائدٌ إلى ثلاث نقاط أساسية:

١– المسيح رأس الخليقة الجديدة الذي جمع كل شيء في السماء وعلى الأرض من بشر وملائكة. فالمسيح الذي يضم تحت سيادته كل الخليقة المنظورة وغير المنظورة هو –بدون شكٍّ– حاضرٌ، وعلى هذا الأساس، رتَّب الطقسُ في صلوات التسبحة ما يُعرَف باسم "المجمع الكبير"، حيث تتلى أسماء الملائكة والرُّتب السماوية مع العذراء والرسل والشهداء ... الخ.

٢– إن المصالحة مع الملائكة، تتم بشكلٍ خاص، في المعمودية. والإشارات القديمة التي وردت في طقس المعمودية وعند العلاَّمة أوريجينوس وديديموس الضرير وغيرهما من آباء الإسكندرية، تؤكد أن حراسة ورعاية الملائكة تبدأ بعد المصالحة الإلهية في المعمودية، حيث يصبح المعمَّد شريكاً للسمائيين في التسبيح، وشركة حياة الدهر الآتي.

٣– إن الليتورجية التي تبدأ بعشية اليوم الجديد، أي يوم قيامة المسيح، هي اجتماع المسيح الحي القائم من بين الأموات الذي يعلن نفسه حياً في الإفخارستيا، ويعلن نفسه قائماً في حياته التي يوزِّعُها على المؤمنين لكي يجمع الكل حيَّاً. وغاية

الاجتماع هي الحياة؛ لأن الانقسام هو موتٌ وعداوة.

هذه العناصر الثلاثة لا يمكن فصلها أو تجزئتها؛ لأن هذا يعني، ليس فقط أن نفقد قدرتنا على الرؤية، ولكن أن نفقد السبب في وجود الرمز نفسه على المذبح.

وفي إطار ما سبق وذكرناه، يظهر بكل وضوح أن الآتي إلى الكنيسة في يوم القيامة، وهو صديقُ الملائكة بسبب سر المعمودية، يأتي إلى الكنيسة "بيت الملائكة"، وأنه يتوقع هذه الصداقة والأُلفة السمائية. ولذلك، فمن خلال اختبار سر المعمودية، يتضح لنا أن تذوُّق قوة قيامة المسيح، وهو أمرٌ لا ينحصر في عمل الذاكرة، بل يتعداها إلى حقيقة واضحة، وهي **الذهاب** إلى الكنيسة بيت الملائكة، **والاجتماع** بالمسيح الحي القائم من بين الأموات، والذي يعلن نفسه حياً في الإفخارستيا بعد أن يُرفع الابروسفارين ويمد كل عابد يده بالسلام، أي القبلة الرسولية علامة القيامة، حسب تعبير غريغوريوس النزينزي. هنا لا تصبح الشمعتان ذكرى لملاكين في القبر، وإنما دلالةُ حياةٍ ورؤية سِرية لما سوف يكشفُ عنه الطقس، لا سيما بعد حلول الروح القدس. فالمسيحُ حيٌّ وحاضرٌ وتخدمه الملائكة. إنه ليس غائباً بالمرة، بل حضوره، هو الذي يعطي الشرعية الوحيدة لوجود الطقوس والأسرار، ولو كان المسيح غائباً لما كان للطقس قيمةٌ، ولاختفت الأسرار تماماً من حياة الكنيسة، وتحول الاشتراك في الخدمة الليتورجية إلى ذكريات وعواطف دوسيتية لشخصٍ غاب وأصبح لا وجود له بالمرة.

هنا، يكون معنى وجود الشمعتين في أثناء صلوات عشية وباكر، هو أن المذبح هو شهادة على تحول القبر، حيث دُفِنَ الرب، إلى ينبوع حياة غير مائتة؛ لأن القبر صار مذبحاً منيراً بالحياة، وتحول الموت إلى ينبوع حياةٍ بالقيامة، وأن المسيحَ حيٌّ، وأن الملائكة شركائنا في الكنيسة يخدمونه، وأننا نحن نأتي إلى الكنيسة لكي نعاينه مع النسوة حاملات الطيب. ولعل هذا هو غاية تلاوة القطعة الخاصة بالقيامة: "قوموا يا بني النور .."، والتي تؤكد حضور النسوة عند القبر، وسماع البشارة من الملاكين بأن المسيحَ حيٌّ، وأنه ليس مع الأموات.

هل يمكن بعد كل هذا، أن يكون الرمز عمليةً ذهنيةً دوسيتيةً نابعةً من الذكرى العقلية، أم يكون الرمز دلالةً على ما اقتبله الإنسان من عطية الحياة والشركة مع السمائيين في المعمودية ثم مشاهدته للقيامة التي يحرص إنجيل باكر -بشكلٍ خاص- على أن يؤكدها، فهو الموضوع الغالب دائماً في قراءات باكر في كل الكنائس الشرقية، وفي الكنيسة القبطية بالذات؟

يتضح لنا مما تقدم أن أحد أسباب الضعف الظاهر في الكتب التي شرحت الطقوس، هو افتقارها إلى الإطار العقيدي والآبائي الذي وُلِدت من خلاله الطقوس الكنسية، وهذا بالطبع، ما جعل كل الشروح التي قُدِّمت، تفتقر إلى العمق الروحي وإلى الغاية العقائدية التي تشير إليها الصلوات، فهذه الغاية هي التي تحدد لنا بوضوح غاية الأسرار الكنسية نفسها.

فإذا لم يكن المسيحي يدخل بيت الملائكة لمعاينة قيامة الرب بشكل سري في طقوس القداس، ولكي يأخذ بعد ذلك الإفخارستيا، إذا لم يكن هذا هو الهدف من حضور الكنيسة، فلماذا كل هذا العناء؟

المسيح الحي قبل اللقاء به في الأسرار والطقوس:

يعد طقس تقديم البخور من الطقوس الهامة الأساسية التي تحتل مكانةً بارزةً في الطقس القبطي، حتى أن تقديم البخور بشكلٍ خاص، يعتبر أحد دعائم صلوات عشية وباكر. والثابت هو أن تقديم البخور للرب، جاء من ترتيب الجلوس حول المائدة الملوكية، حيث الرب جالس، وعن اليمين الملكة القديسة مريم، وعن اليسار يوحنا أعظم المدعوين، ثم شفيع الكنيسة، والآباء الرسل، والشعب. وهو الترتيب الذي ظهر بعد ذلك في وضع الأيقونات خارج الهيكل على حاملٍ، سُمِّيَ في العصر الوسيط بالحجاب. والبخور يُقدَّم للكل، للملك المسيح، والملكة، والشعب؛ لأننا في وليمة الملك العظيم ربنا يسوع المسيح، وهو ما يمكن أن يظهر من الشكل التالي:

يوحنا المعمدان الرب يسوع المسيح السيدة العذراء		
الرسل شفيع الكنيسة الشعب	المائدة أو المذبح	الرسل قديس الشعب
الشعـــــب		

لكن، ولأن العالم المنقسم قد دخل إلى الكنيسة، لذلك، وانطلاقاً من هذه الذهنية المنقسمة، فقد التمس البعضُ تفسيراً ودفاعاً عن استخدام البخور، واعتبروه رمزاً لصلوات القديسين، واعتبره البعضُ نوعاً من تطهير المكان بالمعنى الطبي القديم، واعتبره آخرون أنه لازمٌ جداً لكي يطغى على روائح أجساد الخدام المشاركين في الليتورجية، إلى جوار تفاسير أخرى لا قيمة لها. ويظهر من ذلك أننا نحاول أن نشرح استخدام البخور، وأن نجتهد في ما يبرر ويشرح هذا الاستخدام بطريقة الذهن الذي يعاني الانقسام.

لكن من المؤكد أن البخور هو غير ذلك بالمرة، وأن وراء استخدام البخور توجد حقائق عقائدية هامة تعود إلى العهد القديم نفسه، وإلى حقيقةٍ هامةٍ يعلنها الطقس القبطي، وفي عباراتٍ واضحة:

١ – فالمجمرة التي يحملها الكاهن –وهي آتية إلينا من خيمة الاجتماع– هي العذراء مريم التي حملت كلمة الله في أحشائها، والفحم المتقد هو اللاهوت والناسوت. وكما هو ظاهرٌ، فإن حياة المسيح الذكية التي يسميها الرسول "رائحة حياة لحياة عند الذين يخلصون"، هي التي تصدر من المجمرة، وأن هذا هو فعلاً سِرُّ تقديم البخور الذي

يدل بكل وضوح على حقيقة تجسد الرب من العذراء القديسة مريم.

٢– والمسيح هو ذبيحة المساء التي قُدِّمت على الجلجثة، وهو ذبيحة عطرة اشتمها الآبُ رائحةَ رضى عن الإنسانية. هذا ما يعلنه الكاهن، وهو يطوف بالبخور في البيعة.

٣– وبسبب موت المسيح على الصليب، فَتَحَ لنا الآبُ الصالح بابَ الفردوس، وأدخلنا إلى المصالحة، حتى مع الكاروبيم المتقد بسيفٍ ناري، وكشف لنا طريق شجرة الحياة، أي الإفخارستيا.

ولعل نظرةً دقيقةً شاملةً إلى البخور، تكشف لنا أن تقديم البخور أثناء الأواشي بشكلٍ خاص، يعبِّر بكل دقة عن العناصر الثلاثة السابقة، وهي حياة المسيح، ومصالحتنا مع الآب، وحضورنا الآن في السماء أمام شجرة الحياة.

وهذا هو سبب تقديم البخور أثناء الأواشي؛ لأن طلبات الكنيسة تقدَّم في ذاك الذي اسمه "طيبٌ مسكوب"، أو رائحة حياة. وحسب نص الصلاة الموجود في كل الخولاجيات القديمة: "أوشية بخور عشية للابن":

> "أيها المسيح الهنا العظيم والمخوف الحقيقي الابن الوحيد وكلمة الله الآب طيبٌ مسكوبٌ هو اسمك القدوس (نشيد ١: ٣) وفي كل مكان يقدَّمُ بخورٌ لاسمك القدوس وصعيدة طاهرة (ملاخي ١: ١١)".

فالبخور هو اسم المسيح الذي ذاع، رائحة حياة، وهو "طيبٌ مسكوب"؛ لأنه يحمل الدعوة إلى المسحة. وتقديم البخور لاسم المسيح القدوس معناه تقديمه للمسيح ذاته، لكن تطبيق نبوة ملاخي ١: ١١ يعني بكل وضوح أننا عندما نقدِّم هذه الصعيدة الطاهرة، فإننا في الواقع نقدِّم حياة المسيح، ومن خلالها، نقدِّم صلواتنا للآب. ولذلك، عندما تقول الصلاة بعد ذلك:

"نسألك يا سيدنا اقبل إليك طلباتنا، ولتستقم أمامك صلاتنا مثل بخورٍ، رفعُ أيدينا ذبيحةٌ مسائية، لأنك أنت هو ذبيحة المساء الحقيقية الذي أصعدتَ ذاتك من أجل خطايانا على الصليب المكرم (أفسس ٥: ٢ — عبرانيين ٧: ٣٧ و٩: ٢٦ و٢٧)".

فالمسيح هو البخور الحقيقي، أي الحياة الذكية التي بلا فساد، والتي أينعت لنا القيامة وعدم الفساد. وهو في الواقع ما يعود الكاهن ويؤكِّده بعد ذلك:

"اقبل إليك هذا البخور من أيدينا نحن الخطاة،

رائحةَ بخورٍ غفراناً لخطايانا ...".

وطلب غفران الخطايا عند تقديم البخور لا يستقِم مطلقاً لاهوتياً، إلاَّ بالعودة إلى الشرح الذي تقدِّمه الطقوس القبطية، مؤكِّدةً أن بخور العهد القديم ورائحة الرضى عند الله الذي كان يقدَّم في خيمة الاجتماع، ثم بعد ذلك على مذبح البخور في الهيكل، قد تحقق الآن في تجسد الرب من العذراء وقيامته. فبعد أن صارت لنا رائحة الحياة الإلهية، لا يمكن أن يكون البخور غير تقدمة تقدَّم للمسيح نفسه، تعبيراً عن إيمانٍ سليم ورؤية صادقة لحياته الذكية التي جلبت لنا المصالحة مع الآب.

لقد دار جدل طويل حول استخدام الكلمة القبطية ⲥ̀ⲑⲟⲓⲛⲟⲩϥⲓ في صلاة تقديس الميرون، كما وردت بالقبطية في تعليم الاثنى عشر أو الديداكي. ومن الواضح أن الإشارة إلى الرائحة الذكية، سواء كانت مسحة الميرون، أو البخور، هي إشارةٌ هامةٌ؛ لأن الاسم المسكوب "الطِّيب" هو اسمُ الحياة، وهو دلالة على مسحة الروح القدس، وهي نفس الدلالة التي نخرج بها من عطارة وأفاوية الميرون التي تؤكِّد أصنافها الكثيرة أنها مواد حافظة تمنع تعفن الميرون، أو تغيُّر رائحته الذكية، مهما طال به الزمن. ومن هنا ندرك أن الإشارة القبطية القديمة إلى ⲥⲑⲟⲓⲛⲟⲩϥⲓ هي إشارةٌ هامة تؤكد أننا رائحة المسيح بدُهن المسحة العطرة الذي يجعلنا مسيحيين.

وإذا نظرنا إلى استعمال البخور بعد ذلك، لا سيما أثناء أوشية الراقدين، وأثناء الترحيم في القداس، ووضع البخور أثناء ذكر الراقدين، هو تعبيرٌ دقيق عن اتحاد هؤلاء بالمسيح الحي في الحياة الغالبة الموت. فالنظرة الشاملة تؤكد لنا أن المسيحي الذي يشُمُّ رائحة البخور، إنما يعيش في رؤية حقيقية لتجسد المسيح وقيامته، وهو ما يجعله ينضم إليه في هذه الحركة السرية الرائعة التي تؤكِّد وحدة الحياة الغالبة الموت. وهنا، إذا نظرنا نظرةً شموليةً إلى البخور، وإلى حقيقة التجسد، فالمسيح الذي يولد من العذراء ويظهر حياً برائحة الحياة، يعود إليه المؤمن به، أو "الراقدون بيسوع" حسب تعبير الرسول بولس (١ تس ٤: ١٤) عندما يوضح البخور في المجمرة.

ورائحةُ الحياة العطرة التي يعبِّر عنها البخور، هي بذاتها رائحةُ الحياة العطرة التي توهَب بمسحة الميرون العَطِرة حسب تعبير القديس أثناسيوس:

> "الروح القدس يُدعى المسحة والختم؛ لأن يوحنا كتب قائلاً: "أما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم إلى أن يعلمكم أحد، بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها -روحه- عن كل شيء" (١ يوحنا ٢: ٢٧) ... ويقول بولس: "الذي فيه أيضاً أنتم آمنتم وختمتم إلى يوم الفداء" (أفسس ١: ١٣). هذا ما قيل عن الروح القدس .. فإذا كان الروح القدس هو المسحة والختم الذي به يمسح اللوغوس ويتم كل شيء .. فالختم إنما هو من ذات طبيعة اللوغوس الذي يمسح ويختم، وهذا ما يجعل للمسحة عبير ورائحة الذي يمسح، والذين يُمسَحون يقولون عندما ينالون المسحة: "نحن رائحة المسيح الذكية" (٢كو ٢: ١٥). والختم له ملامح المسيح الذي يختم، والذين ينالون الختم يشتركون فيه، إذ يتشكلون حسب صورة المسيح .." (الرسالة إلى سرابيون ١: ٢٣).

لهذا ذاع استخدام البخور، لكي يؤكد الحضور السري لحياة المسيح العَطِرة التي غلبت الفساد، إنه هو بذاته يقدَّم للشعب، بل ويقدَّم للأيقونات، ويقدَّم في ذكرى

الراقدين، فهو حياة المسيح التي تجمع كل هؤلاء في هبة القيامة وعدم الفساد.

ومن الملامح الجميلة في الطقس عندما يستعد الكاهن لإعلان تأسيس سر العشاء الرباني في الصلوات الكبرى التي تبدأ: "قدوس ...."، وعندما ذِكر التجسد، يقدِّم الشماس المجمرة إلى الكاهن، فيضع فيها يد بخور، وهو يقول: "تجسَّد وتأنس وعلمنا طرق الخلاص .."، وعندما يأتي إلى عبارة: "ووضع لنا هذا السر العظيم الذي للتقوى"، يقول الخولاجي: يضع يديه على المجمرة ويبخرهما ويرفعهما بالبخور ويبخِّر الخبز والخمر. وحسب شرح قديم، "فإن الذي يطهِّر الكاهن هو حياة المسيح، ويطهِّر يديه لأن حياة المسيح هي التي وهَبَت هذه العطية، ويشير إلى أن سر التجسد الفائق إنما يعلَن في الإفخارستيا، وبشكلٍ خاص، ليس فقط اتحاد اللاهوت بالناسوت، وإنما بكل يقين الحياة التي غلبت الموت، والتي يشير الكاهن إليها عندما ينقل البخور إلى تقدمة الخبز والخمر، حيث يعلن هذا السر بهاء وجمال وحياة المسيح يسوع ربنا.

فإذا كان البخور يؤكِّد سر التجسد، ويشرح سر التقدمة، ويفتح عيني وقلب المسيحي الأرثوذكسي على حقيقة المسحة العَطِرة والحياة التي غلبت الموت، فإننا يجب أن نفهم أن الإشارة إلى الروح القدس أيضاً في نص أثناسيوس، هي إشارة ذات دلالة معينة لا يمكن إهمالها، فالمسيحُ الحي حاضرٌ بالروح القدس، وحضوره مؤكَّدٌ؛ لأنه يستطيع أن يهب الحياة الجديدة بعمله الإلهي الذي ينقله الروح القدس إلينا.

رائحة الحياة في المسيح وفي الروح القدس:

رائحةُ الحياة العَطِرة، أي عدم الفساد التي تكوَّنت في إنسانية آدم الجديد ربنا يسوع المسيح، هي التي ينقلها إلينا الروح القدس. هذه العمل الثلاثي لأقانيم الثالوث، تُقدِّمه المسحة العطرة في شكل طقسٍ واحد:

أولاً: إنها مسحة من الآب، ومسحة للابن بالروح القدس. فالذي مَسح الابن في الأردن هو الآب، والمسحة هي الروح القدس.

ثانياً: إنها مسحة عدم فساد، ورائحة حياة يهبها لنا الروح القدس من الابن الممسوح.

ثالثاً: إنها في حد ذاتها كمسحة مادية، هي مسحة عطرة؛ لأنها مصنوعة من مادةٍ عَطِرةٍ، ولكن عِطر هذه المسحة يعطي للإنسان في رشم الصليب.

هنا، الطقسُ أشبه بشرَابٍ حُلوٍ فائق التركيز يحتاج إلى قليلٍ من الماء لكي لا يصاب من يشربه بالإغماء. والتركيز هنا يظهر في أن ختم الحياة عديمة الفساد، هو ختم الصليب، وهو في ذاته يحمل الروح القدس وهبات وعطايا الروح القدس، أي هي أيضاً هبات وعطايا الآب والابن أيضاً.

وهنا نرى كيف تحوَّلت العقيدة كلها مع تجديد الحياة، وامتزج كل هذا بما يُعطى بشكلٍ منظور في الطقس الكنسي.

الإشارات إلى سري المعمودية والميرون:

لعل مَن يواظب على حضور القداس، قد لاحظ كيف يمسح الكاهنُ الحملَ بعد اختياره بالماء، وكما تقول كل الخولاجيات: "مثال معمودية الرب". وقد أعلنت معمودية الرب سر الثالوث لنا. ولعلنا نلاحظ أن كلمات الاستعلان: "مجداً وإكراماً إكراماً ومجداً للثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس"، تقال والتقدمة ملفوفة، أي لا تزال غير مستعلنة بشكل كامل، في انتظار كمال التدبير، أي الصلب والقيامة. فنحن لا نستطيع أن نتواجد حول المائدة، إلا لأننا قد أخذنا سر المعمودية، وبذلك ندخل الوليمة أبناءً لا عبيداً. وعلى ذلك ليست معموديتنا ضرورة فقط لشرعية حضورنا، بل وفي تلاوة صيغة التعميد أيضاً، ويلاحظ أنه يُضاف إليها هنا الشكر والتمجيد برشم الحمل: "باسم الآب والابن والروح القدس". ثم: "مبارك الله الآب .. مبارك الابن الوحيد .. مبارك الروح القدس".

المعمودية والميرون مثل عضو واحد، لا يمكن فصله. ولكن رائحة المسيح، وهي عطر الميرون ورشومات الحمل، توحِّدنا برشومات الميرون، وكلاهما مصدر رشم الصليب في حياتنا اليومية. فحسب شهادة العلامة أوريجينوس، كان رشم الصليب هو بداية كل صلاة، وهو يبدأ وينتهي بصيغة التعميد، ومن هنا جاء رشم الصليب في طقوسنا[١].

السر الكامن في الرمز:

في عالمنا المنقسم إلى أقوال وأفعال ورموز وإشارات، تفقد هذه جميعها، معناها المتعارف عليه عندما تفقد العلامة أو الرمز قوتها كتعبيرٍ عن أمرٍ معروف. كان الوقوف لتحية العلم والنشيد الوطني ممارسةً تعود أصلاً إلى القانون الروماني والحضارة القديمة؛ لأن الوقوف كان هو الوضع الرسمي لتأدية الشهادة، إذ لا يمكن أن تؤدَّى الشهادة جلوساً. وكان الوقوف في حضرة الملك –في الثقافة القديمة– بمثابة احترامٍ له، يفرض على الواقف شعوراً بعدم المساواة. وصار الوقوف للصلاة في حضرة الملك يهوه، من معالم الصلوات القديمة، ولكن عندما حدثت القيامة، صار الوقوفُ قيامةً. ولا زلنا نسمع الكلمة اليونانية "اسطاثيتي" من "الأناسطاسيس"، أي القيامة.

وسر الثالوث كامنٌ في رمزية حضور الملك مع الملكة القديسة مريم، الذي يعبَّر عنه بدوران الخادم حول المذبح يميناً، أي عن يمين المذبح لكي يقدم الإكرام للملك. والخادم يدور عن يمين المذبح، ليس لأنه يمين السعد كما يقال عندنا بلغةٍ عامية شعبية، بل لأننا عن يمين الآب بسبب وجودنا في الابن.

لذلك، فإذا بدأنا بما عرفناه من التسليم الكنسي، أي بالإيمان، أدركنا أن الحضور السري للرب يسوع يعبِّر عنه الطقس بأن يستر الكاهن يديه بلفافتين بعد صلاة الصلح؛ لأن اليد التي تخدم، هي يد الرب غير المنظورة. ولكن بعد استعلان القيامة (رفع

---

(١)راجع كتابنا: معاني رشم الصليب في الحياة الروحية، وطقوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، القاهرة، ٢٠١٦.

الابروسفارين) وعند تقديم الخبز والخمر للرب تظهر يدي الكاهن غير مغطاة؛ لأن خدمة السر صارت هي خدمة الكنيسة، لذلك فعند التقديس يترك الكاهن اللفائف؛ لأن الرب سلَّمَ تقديم الذبيحة لمن يخدمها: "هذا اصنعوه لذكري".

وإذا كانت الصلوات بدأت بـ"مجداً وإكراماً للثالوث ...."، فإنها تنتهي بذات تمجيد الثالوث عند الاعتراف: "واحدٌ هو الآب القدوس، واحدٌ هو الابن القدوس، واحدٌ هو الروح القدس"[١].

ماذا نتعلم:

أولاً: اكتشاف سر الثالوث، لا شحن الذاكرة؛ لأن كل طقوس الكنيسة تقود إلى ذلك، إلى الوقوف عن "يمين الآب" مع الرب عند رشم الصليب، وإلى إدراك سر حضور "عمانوئيل في وسطنا الآن بمجد أبيه والروح القدس.

ثانياً: إن جذور السر كامنة فينا منذ أن اتحدنا بالكنيسة في أسرار الانضمام، فنحن لا نأخذ من الخارج، بل تتوحد الرؤيا الروحية الداخلية التي فينا بما يُقدَّم لنا، وبما نعترف به، وبما نشترك فيه.

ثالثاً" إذا كانت الذاكرة قد استطاعت أن تتفاعل مع ما يحدث، فالخطر الكبير هو أن يكون اهتمامنا مجرد اهتمام فكري، لا الاهتمام الذي يقود إلى الجانب المستيكي، فإذا سمعنا لحن "المجمرة الذهب"، ورتَّلنا "الهيتنيات"، فإننا لا نعود بالفكر فقط إلى حضور والدة الإله والقديسين، بل نحن معهم في ذات الشركة.

---

(١) راجع تفاصيل أوفى ملحق هذه الدراسة: "الكنيسة المشتعلة بنار الروح القدس"، مقال سبق نشره على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية.

الفصل الثاني

الليتورجية،
وتكوين الهوية الأرثوذكسية

لا نستطيع تعريف الأرثوذكسية بدقة تامة، أي بأرثوذكسية، إذا وضعناها في جدول مقارنة بين البروتستانتية والكثلكة. وتاريخياً، لم تظهر الأرثوذكسية في القرن السادس عشر قبل البروتستانتية التي نشأت كرد فعل على تطرف لاهوت العصر الوسيط في أوروبا. وتاريخياً أيضاً، الأرثوذكسية ليست وليدة اللاهوت المدرسي *Scholastic* الذي هو قوام وجوهر لاهوت العصر الوسيط الذي شكَّل وصاغ تعليم الكنيسة الرومانية. **فالأرثوذكسية هي الحياة الرسولية والإيمان الذي سلَّمه الآباء الرسل إلينا ونقله وسلَّمه إلينا آباء الكنيسة العظام**. هذا التسليم الرسولي وصلنا بشكل واضح في الليتورجية، فهي حياة وإيمان وعقيدة الرسل والآباء يُسلَّم إلينا في صلوات الانضمام إلى الكنيسة، أي صلوات وطقوس المعمودية والميرون والإفخارستيا، وهي الأسرار التي تسمى بسر الكمال المسيحي في رسائل القديس أثناسيوس الرسولي إلى سرابيون (١: ٢٩ – ٣٠). وهذه الأسرار تسمى بسر الكمال؛ لأن كمال الحياة المسيحية هو في الانضمام إلى الكنيسة الجامعة. وأن المعمودية هي الانضمام إلى الكنيسة (القديس باسيليوس، الروح القدس، ف ٢٨). وفي سر المعمودية تطلب الكنيسة أن ينضم الموعوظ، ويقبل "الوعظ" كعطية إلهية تُعطى في مسحة الموعوظين:

"أدهنك (يا فلان) باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد. زيت عظة (لفلان) في كنيسة الله الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية" (ترتيب المعمودية المقدسة).

فالوعظ يعطى بالتعليم وبالمسحة، وحسب كلمات تقديس زيت الموعوظين:

"انقله ليكون زيت مسحة وعظة لكي يجعل النفس مؤمنة بالمسيح يسوع ربنا" (ترتيب المعمودية المقدسة).

وهذا يؤكد لنا أن الإيمان ليس عملاً عقلياً ومجرد كلمات تقال يقبلها الإنسان، بل هو تحوُّلٌ في النفس والكيان، ونموٌّ كيانيٌّ يلاحظه الإنسان في نمو معرفته:

"أنت دعوت عبيدك هؤلاء باسمك القدوس وتفضَّل أن تُنعم عليهم بالنمو في الإيمان وغفران الخطايا" (ترتيب المعمودية المقدسة).

والنمو هو عطية من الله لقبول خيرات الحياة الأبدية:

"وأيضاً فلنطلب بإلحاح كثير ونسأل الله ضابط الكل أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح. من أجل عبيده الذين قُدِّمت أسماؤهم لكي يفتح مسامع قلوبهم ويضيء عليهم بنور المعرفة ويطيِّب قلوبهم بمعرفة ثبات الكلام الذي وُعِظوا به. الذي بيده سلطان الرحمة" (ترتيب المعمودية المقدسة).

فالنعمة التي تُوهب من الله هي التي "تطيِّب"، أي تستميل الإنسان وتكشف له ثبات الحقائق الأبدية التي قيلت في التعليم. فالمعلم الكنسي يعلِّم الإيمان، والله هو الذي يفتح قلب السامع؛ ولذلك يظل المعلِّم الكنسي، حتى في المراحل الأخيرة قبل التعميد وأثناء جحد الشيطان، يصلي لكي لا يبقى في النفس "فكر قِلة الإيمان" (ترتيب المعمودية المقدسة).

والإيمان الرسولي الذي يسلَّم لمن ينال سر المعمودية، ليس فقط قانون الإيمان، وإنما حياة التقوى الأرثوذكسية، وهذا ظاهرٌ بشكلٍ واضح في الاعتراف بالإيمان بعد جحد الشيطان قبل التعميد:

"أعترف بك أيها المسيح إلهي وبكل نواميسك المخلِّصة وكل خدمتك المحيية وكل أعمالك المعطية الحياة" (ترتيب المعمودية المقدسة).

وهذا الاعتراف بالحياة الجديدة هو اعترافٌ بأننا نحيا ونسير على ذات درب الآباء. والمسيحي الشرقي يعرف أنه نال الاسم الحَسِن، أي اسم المسيح، في المعمودية، وصار مسيحياً، وصار ذلك الاسم هو الهوية، أي هوية الانتماء إلى الآب السماوي بالابن وفي الروح القدس. وهكذا يشرح معلمنا أثناسيوس أن الذين رفضوا البدعة الأريوسية رفضوا أيضاً أن يُطلق عليهم اسم أريوسي، وأنه لا يوجد في الكنيسة منذ عصر الرسل مَن قَبِلَ أن يُطلق عليه اسمُ رسولٍ أو أسقفٍ، ذلك أن اسم المسيح هو اسمُ الخلاص والحياة الجديدة التي وُهِبَت لنا من الله (راجع الرد على الأريوسيين، المقالة الأولى). فإذا كان الإنسان ينال اسمه من الله، فهو ينال ذلك الاسم بالفعل والممارسة في سر وطقس الانضمام إلى الكنيسة، أي المعمودية والميرون والإفخارستيا. وهذه الأسرار هي دعامة الحياة المسيحية، أي الحياة الآتية من الثالوث، والتي لا يتغير فيها الفكر والقلب فقط، بل والجسد أيضاً. وتغيير الجسد هو جزءٌ جوهري في الإيمان الرسولي؛ لأننا نرتّل في نهاية قانون الإيمان: "وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي"، ولذلك السبب تعاين الكنيسة من آنٍ لآخر عطية قيامة الجسد في حالات التجلي التي تحدث في حياة بعض القديسين. هؤلاء، أحياناً يعاينون هذه الحلة النورانية التي قبلوها في المعمودية، وهم بعد في الجسد مثل مكسيموس ودوماديوس وأرسانيوس، بل وآباء آخرين لا يزال بعضهم على قيد الحياة، قبل وأثناء نياحتهم، إذ تلمع أجسادهم بنورٍ شديد أثناء الصلاة، مؤكدةً لنا أن الكلمات التي تقال في ليتورجية التعميد عن النور الإلهي هي الحقيقة السرية الكامنة والتي قد لا يراها كل الناس بشكل كامل قبل يوم الدينونة:

"ادعُهم إلى نورك الطاهر...." (ترتيب المعمودية المقدسة).

"اجعلهم أهلاً بغير عيب وبطهارة أن يقبلوا إليهم النور وخاتم مسيحك ... ويصيروا حُلة نورانية" (ترتيب المعمودية المقدسة).

"اجعلهم ... أواني طاهرة، أبناء النور ..." (ترتيب المعمودية المقدسة).

والليتورجية هي المدرسة الكبرى التي تخرَّج فيها كل الآباء عبر كل العصور، وهي المدرسة التي يتتلمذ فيها كل مسيحي على الآباء مباشرةً، ليس فقط بقبول الكلمات والمفردات الخاصة وقانون الإيمان، وإنما أيضاً بقبول ممارسة الحياة الروحية التي تدعونا إليها الليتورجية. ولذلك نرى في التاريخ الشرقي المسيحي، أعداداً من القديسين لم يقرأوا كتب الآباء، ولكنهم أتقنوا إيمان الآباء وحياة الآباء بالمعرفة والحياة التي نالوها بواسطة الليتورجية. **فالمسيحية في حقيقة الأمر هي انطباق الكلمة على العمل في وحدة لا تسمح بفصل الفكر عن الحياة أو الحياة عن الفكر**. وقد كان بعض هؤلاء القديسين من غير القادرين على القراءة أو الكتابة، ولكنهم استلموا الإيمان الرسولي والحياة الروحية من صلوات الكنيسة نفسها، وعاشوا هذا الإيمان وهذه الحياة بشكلٍ صحيح، فصاروا تلاميذ الرسل والآباء.

والقصة المشهورة في كتاب الشيوخ عن الثلاثة الذين أرادوا الانضمام إلى الرهبنة، وبعد عام من حياة الابتداء جاء كلٌّ منهم ليقول كيف عاش. وقال الأول إنه نسخ العهد الجديد برمته، فقال له الشيخ: لقد ملأت البرية بالورق. وقال الثاني إنه حَفِظ الكثير من العهد الجديد، فقال له الشيخ: لقد ملأت الهواء بالضجيج. وجاء الثالث في خجلٍ وقال إنه باع النسخة الوحيدة للعهد الجديد التي يملكها وقدَّم الثمن للفقراء، فقال له الشيخ: أنت تمكث معي.

وأرثوذكسية هذه القصة تبدو في انطباق القول على الفعل، أي وحدة الكلمة والحياة. وهناك قصةٌ أخرى تقول إن أحد الشيوخ باع نسخته الوحيدة للعهد الجديد التي

كانت مصدر تعزية له وللجماعة، ولما سُئل عن السبب، قال: إن العهد الجديد نفسه هو الذي أمره بأن يبيع كل شيء ويعطي الثمن للفقراء.

والأرثوذكسية ليست هي الطريق الوسط بين البروتستانتية والكثلكة؛ لأن الأرثوذكسية –تاريخياً– سبقت البروتستانتية، كما أنها، وإن كانت تشترك تاريخياً مع الكنيسة الكاثوليكية في تراث القرون الخمسة الأولى، إلاَّ أنها لا تشترك تاريخياً مع الكنيسة الكاثوليكية في اللاهوت المدرسي، أو تراث العصر الوسيط *Scholastic* وبالتالي فهي لا تستطيع أن تحدد هويتها بما جاء به القرن السادس عشر من أحداث، وهي حركة الاصلاح، وَرَدُ فعل الكنيسة الرومانية في مجمع ترنت (ق ١٦).

فالهوية الأرثوذكسية تظهر إذن، كحياة وإيمان وعقيدة وممارسة، عندما ينضم الأرثوذكسي إلى الكنيسة الجامعة، أي يصبح "مسيحياً"، وذلك الاسم: "مسيحي"، يلخِّص في كلمةٍ واحدة معنى المسيحية وغايتها؛ لأنه مشتقٌ من "المِسحة" والذي مُسِحَ هو الرب يسوع الذي بالمسحة أثناء معموديته، دُعي بـ"المسيح". وبالتالي، وحسب شهادة كل الآباء، يصبح الإنسان مسيحياً بالإيمان وبالمسحة، ويُطلَقُ عليه هذا الاسم الإلهي الذي هو مِن الله حسب شهادة القديس أغناطيوس الأنطاكي:

> "لنصبح تلاميذه ولنتعلم كيف نحيا حسب المسيحية؛ لأن مَن تسمَّى باسمٍ آخر غير هذا الاسم (المسيحي) ليس من الله" (مغنسيا: ١٠).

ويقول القديس ايريناوس:

> "إن الهراطقة الذين يقبلون أسماء مثل "فريجيين، نوفاتيين .. الخ لا يصبحون مسيحيين؛ لأنهم فقدوا اسم المسيح، ولبسوا أسماء وألقاب إنسانية" (ضد الهراطقة ١: ٢٣).

ونصوص الآباء الخاصة بهذا الموضوع كثيرة، ولكن الجدير بالذكر هو كيف

دخلت هذه الحقيقة، الحياة الليتورجية الأرثوذكسية، وتصبح صلاةً ولحناً يقال باسم "إبصالية لاسم ربنا يسوع المسيح"؟ فنحن ننال الاسم الثاني لربنا يسوع، أي المسيح، لكي يصبح، بالمعمودية وبالميرون والإفخارستيا، حياةً تُغرس بالصلاة.

تقول إبصالية الاثنين:

"كل الصديقين الذين أرضوا الله يدرسون الناموس كله.

والله كائن أمامهم، وأسمه القدوس في أفواههم كل حين.

الله هو عمانوئيل، الطعام الحقيقي، شجرة الحياة عديمة الموت".

وهنا لا يفشل الإنسان في أن يرى العلاقة العضوية بين الاسم: "المسيح والمسيحي"، والإفخارستيا؛ لأن الإنسان ينال الاسم كعطيةٍ من الله، ثم يحيا به ويتذوق حياة صاحب الاسم لكي يصبح مثله "عديم الموت".

فالهوية تُعطى وتنمو وتُكتَشَف **في الصلاة والاسرار، أي في الليتورجية**. وتصبح الهوية هو التحول الكياني الذي يبدأ في المعمودية، ومنذ لحظة الانضمام إلى رتبة الموعوظين. ولكن ذلك التحول، وهو تحولٌ فكري وكياني، لا يتوقف، إنما يسعى إليه المسيحي دائماً لكي ينطبق الاسم على حقيقة الحياة:

"فليكن اسم الرب فينا، يضيء على إنساننا الداخلي.

يقوم حولك الشاروبيم والسارافيم ولا يستطيعون أن ينظروك،

ونحن ننظرك كل يوم على المذبح،

ونتناول كل يوم من جسدك ودمك الكريمين" (إبصالية الاثنين).

والليتورجية هي سعيٌ دائمٌ لنوال نعمة وعطية الروح القدس. فالإنسان لا يصلي،

أي يردد الكلمات، وإنما يصلي لكي يتذوق الحياة الإلهية نفسها. وهنا نرى دقة الليتورجية وجمالها الرسولي، ذلك أن اسم "المسيح"، وهو الاسم الذي وُهِب لنا، ليس مجرد نُطق أو كلمة، بل هو الحياة المتدفقة فينا، والتي وإن تدفقت فكرياً في شكل كلمات، إلاَّ أن هذه الكلمات ينطق بها الروح القدس في قلب الإنسان:

"ارسل لنا هذه النعمة العظيمة التي لروحك القدوس؛

لكي أنطق بكرامة يسيرة من أجل اسمك القدوس المبارك.

اسمك القدوس يا ربي يسوع هو يكون لهم طعامَ حياةٍ تقتات به نفوسهم وأجسادهم معاً.

هو يكون لهم ينبوعَ ماءِ حياةٍ حلواً في حناجرهم أكثر من العسل.

إذا أخبروا به تفرح قلوبهم وتزهر أجسادهم.

إذا نطقوا به، تستنير عقولهم وترتفع إلى العلاء قلوبهم" (إبصالية الثلاثاء).

فالمسيحي يدخل الملكوت السماوي هنا، وذلك في الصلاة، وعندما يلتصق اسم المسيح بالفكر والقلب، ويستنير العقل والقلب، ويرتفع إلى العلاء. ودخول الملكوت أثناء الحياة على تراب هذه الأرض، هو الموضوع الذي يشغل الجانب الأساسي من الليتورجية، وبشكلٍ خاصٍ، صلوات وتسابيح "الإبصلمودية". والصورة التي نراها هي صورة الفردوس وشجرة الحياة في الوسط (ثيؤطوكية الخميس)، أي الإفخارستيا. والجزء الأساسي من هذه الصورة أو الايقونة، هو وجود العذراء والملائكة والقديسين والآباء الرسل والشهداء.

هذه المكونات البالغة الأهمية هي دعامة أساسية لحياة وإيمان الآباء الرسل، ودعامة أساسية للهوية الأرثوذكسية. فالكنيسة كانت قبلنا، وستكون مِن بعدنا، وهي،

أي الكنيسة، كانت في العهد القديم واستمرت حتى تحوَّلت إلى مجد وكرامة الابن الوحيد، وهي سوف تتجلى من آنٍ لآخر في هذا الزمان بقوة الروح القدس والعجائب والقوات .. وطبعاً سوف يسير كل هذا بعدنا.

هذا يغرس في النفس الانسانية ما يُسمى بالمحافظة على ما تسلَّمناه؛ لأن ما سبق وجودنا والذي ندين له بالوجود، لا يمكن تبديده. هذا تبرزه الصلوات دون شرح؛ لأن الشرح كثيراً ما يؤدي إلى انحدار من قيمة الرؤية والمعاينة، إلى فقرٍ في التعبير. وبساطة ودقة كلمات الصلوات يكشف عن عمق مكانة الإنسان عند الله، والسخاء في رد كل ما فقده الإنسان مضافاً إليه حياة الابن الوحيد، أو بالحري ردَّه في الابن الوحيد ربنا يسوع وبالروح القدس. ولعلنا نلاحظ كيف نرى تحول الكيان البشري وانطباق هذا التحول على الكلمات:

"لنا الجوهرة اللؤلؤة الكثيرة الثمن، الاسم الحلو المملوء مجداً الذي لربنا يسوع المسيح.

إذا ما لازمناه في إنساننا الداخلي، فهو يجعلنا أغنياء حتى نعطي آخرين".

ولعل القارئ قد لاحظ أن تمجيد أي قديس أو شهيد، إنما يبدأ دائماً بلحن: "خين إفران"، وكلمات اللحن ليست سوى صيغة التعميد: "باسم الآب والابن والروح القدس، مستحق .. الخ". والدقة الكامنة في هذه الممارسة، وفي حُسن اختيار الكلمات تعني أن القديس أو الشهيد، أكمل كل شيء: الحياة أو الاستشهاد باسم الآب والابن والروح القدس، أي انطبقت كلمات المعمودية على الحياة، فصار مستحقاً لأن يدخل ملكوت الآب والابن والروح القدس؛ لأن هؤلاء حسب ذكصولجية باكر هم الذين "أنقذهم وخلَّصهم لأنهم التجأوا إليه وعيَّدوا معه في ملكوته". وهكذا، يبدأ الإنسان كموعوظٍ، ويقبل بمِسحةٍ باسم الآب والابن والروح القدس، وينتهي بتمجيد الآب والابن والروح القدس. إذن، الهوية الأرثوذكسية تُعطى في الأسرار الكنائسية الثلاثة كبذرة تنمو بالتحول الدائم لكي "نضيء بشكل المسيح المحيي" (قسمة سبت الفرح)، وبالتالي هي،

أي الهوية الأرثوذكسية، تُكتشف في المسيح، وتعاش بالروح القدس بالقول والفعل بالكلمة وبالحياة، أو حسب عبارة القديس أغناطيوس الشهيد: "صلاتي إلى الله أن أكون مسيحياً بالفعل".

وتنقل صلاة ما بعد الاعتراف بالإيمان هذه الحقيقة:

"أدهنك (يا فلان) بدهن الفرح مضاداً لكل أفعال المضاد لتُغرَس في شجرة الزيتون اللذيذة في كنيسة الله المقدسة الجامعة الرسولية آمين" (ترتيب المعمودية المقدسة).

وإذا صرنا "أغراساً" في شجرة الزيتون (رومية ١١: ١٦-١٨)، فالمعنى واضح؛ لأننا نصبح خرافاً ضمن قطيع المسيح وأبناء الخدر السماوي.

" .. اجعلهم خرافاً للقطيع المقدس الذي لمسيحك. أغصاناً نقيةً للكنيسة الجامعة. أواني طاهرة. أبناء النور. وارثين الملكوت" (معمودية: ٣٦).

هذه الصلاة تقال بعد الاعتراف بالإيمان، والطقس هنا يحرص على مسألتين كل منهما ذات دلالة:

أولاً: إن الإيمان يُسلَّم بالتلقين عندما يردِّد الموعوظ قانون الإيمان، وكما نرى في كتاب خدمة المعمودية أن قانون الإيمان هو قانون الإيمان السكندري السابق على قانون مجمع نيقية، وهو ذات قانون الإيمان الذي يظهر في برديات "دير البلايزة" (قُرب أسيوط).

ثانياً: إن تلقين الإيمان، بل كل خدمة المعمودية، تتم بحضور العرَّاب أو الاشبين. وهنا، التسليم الرسولي يتم بحضور "جسم الشهادة"، أي على فم اثنين أو ثلاثة تقوم كل كلمة، وهذه القاعدة الإلهية تقول لنا في وضوحٍ شديد إن الإيمان لا يُسلِّمه فردٌ واحد، أو شخصٌ واحد؛ لأنه ليس إيمان الفرد الواحد، وإنما هو إيمان الجماعة، وهي في صورتها

الإلهية هي: "إذا اجتمع اثنين أو ثلاثة باسمي هناك أكون في وسطهم". وهذا ليس فقط مجرد وعد بالحضور، بل هو تأكيدٌ على "جماعية" الإيمان والممارسة. ونرى نفس القاعدة من صلاة الإفخارستيا التي لا يمكن أن تُقام بدون وجود شماس، وواحدٍ من أفراد الشعب، فهذا أيضاً هو "جسم الشهادة"، بل كما هو معروفٌ لنا، عندما يُقرأ الإنجيل، فإن اثنين يحمل كلٌّ منهما شمعةً، يقف على يمين وعلى يسار القارئ، وهذه الممارسة كانت معروفة في المجامع اليهودية في زمن الرب يسوع نفسه، حيث يشهد اثنين على صحة القراءة، ويقوم أيهما بتصحيح القراءة أو الاعوجاج في نطق الأسماء أو الكلمات .. هذا كله نراه في الصلوات نفسها، حيث تطلب الصلوات أن يكون الذين سيعتمدون أعضاء في خراف أو قطيع المسيح، أي أعضاء في الكنيسة الجامعة.

إذن، الهوية تُعطى في المعمودية وبالتسليم الرسولي للحياة المسيحية، وحسب الاعتراف بالإيمان المسلَّم لنا من الرسل. وبوضع الأكاليل على رؤوس المعمدين، يدخل الكل في الشركة الرسولية:

> "أيها الرب الاله ضابط الكل أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي كلَّل رسله القديسين الأطهار وأنبياؤه وشهداؤه الذين أرضوه بأكاليل غير مضمحلة. أنت الآن بارك هذه الأكاليل التي هيأناها لنُلبِسُها لعبيدك الذين اتَّحدوا بالعماد المقدس، لكي تكون لهم أكاليل مجد وكرامة.." (ترتيب المعمودية المقدسة).

الفصل الثالث

الليتورجية ينبوع الماء الحي

الخلاف حول الأسرار الكنسية هو موضوعٌ غربيٌّ بحت لا يمت لنا بصلة، ولا يجوز لنا أن نناقشه على أرض اللاهوت الغربي بشقيه الكاثوليكي والبروتستانتي .. والطريق الواضح هو أن نعود إلى الليتورجية وكُتب الآباء، حيث لا جدل عن الأسرار .. بل وأن نقترب من الليتورجية والآباء، لا لكي نجيب على أسئلة البروتستانت أو الكاثوليك، وإنما لكي نستعيد الرؤية غير الجدلية *Non - dialectic* وهذه الرؤية تبدأ بالصلاة؛ لأن الصلاة ليست موضوعاً جدلياً في أي دين من الأديان. والصلوات لم تنشأ لكي ترد على الأسئلة، بل وُلدت الصلوات لكي تقدِّم نعمة الله. فالصلاة هي مياهٌ عذبةٌ ومياه الراحة، نراها تنساب في كُتب الخدمات الكنسية، تقدم لنا الإيمان والحياة المسيحية في وضوحٍ شديد دون أن تدخل في جدلٍ مع أحد، ودون أن تجيب على أسئلة القرن السادس عشر، وهو العصر الذي تفجَّر فيه الخلاف الغربي حول الأسرار. وهكذا، تحمل لنا كتب الليتورجية الخاصة بالكنيسة الشرقية، وبالكنيسة القبطية بشكل خاص، روح وحياة الرسل والآباء، فهي ينابيع المياه الحيَّة الذي ظلَّت تتدفق عبر الصلوات، يشرب منها كل من يريد دون عناء، بل دون شرحٍ أو تفسير؛ لأنها تتدفق في الصلوات. ومَن يصلي ليس كمَن يقرأ؛ لأن مَن يصلي يأخذ الكلمات ويخزنها في قلبه ويردِّدها حتى تفتح له الكلمات باب الحياة الأبدية: "إلى مَن نذهب وعندك كلمة الحياة الأبدية". وعندما تتغير الحياة، وندخل الحياة الجديدة في المسيح، يتغير الفكر وتختلف الرؤية. فالصلاة لا

تربطها بالجدل أو النقاش أية علاقة، بل وربما تطفئ حدة الجدل. وليس عبثاً أن قال الرسول بولس: "أريد أن يصلي الرجال في كل مكان رافعين أيادي طاهرة بدون غضب ولا جدال" (١ تيموثاوس ٢: ٨). وتنذرنا أوشية الاجتماعات (والاسم نفسه له دلالة روحية)، بل وتحثُّنا على أن نتوسل إلى الثالوث طالبين لنا ولكل الأجيال الآتية بعدنا:

"بيوت صلاة. بيوت طهارة. بيوت بركة.

انعم بها يا رب لنا ولعبيدك الآتين بعدنا إلى الأبد".

ونعمةُ الصلاة الآتية من الله، والتي نتوسل إليه أن تكون لنا ولأولادنا، هي وحدها التي تقود إلى الرؤية السليمة. هذه الرؤية تختلف كثيراً عن الرؤية التي تتكون في العقل بسبب سرعة القراءة، أو سرعة البحث، أو كثافة المعلومات وتصنيفها، ذلك أن عادة القارئ هي أن يجمع المعلومات، ويقارِن النصوص، ويستخلص الحقائق من الكلمات والدراسات و .. الخ. وهذا كله جيدٌ ومطلوب في مجال العلوم والفلسفة والتاريخ والآداب وغيرها من فروع العلوم، أما في اللاهوت، فإن المعرفة المطلوبة هي الحكمة التي تؤدي للخلاص (٢ تيموثاوس ٣: ١٥). والحكمة التي يريدها الرسل لنا تختلف عن حكمة العالم التي يعتبرها الله أنها "جهل" (١ كورنثوس ٣: ١٩)، ولعل كلمات الرسول بولس قاطعة: "إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم في هذا الدهر، فليَصِر جاهلاً لكي يصير حكيماً" (١ كورنثوس ٣: ١٨). فالتجسد يتعارض مع العظمة، والصليبُ رفضٌ لكل أشكال القوة والسيطرة على الآخرين، وسُكنى الروح الكلي القداسة في القلب البشري الذي يتدنس بسرعة، هو إخلاءُ الذات الذي يمارسه الله وتواضعٌ بلا حدود .. هذه هي بعض دعائم الحكمة، أي حكمة الإنجيل التي لا يقبلها العالم لأنها تقف ضد الغرور والقوة والسيطرة، وضد أُم كل الخطايا والرذائل: الكبرياء. وهكذا، تعلن صلاة الصلح منهج الإنجيل:

"عالٍ فوق كل قوة النطق، وكل فكر العقل،

غنى مواهبك يا سيدنا؛

لأن ما أخفيته عن الحكماء والفهماء، هذا أظهرته لنا نحن الأطفال الصغار".

بل، وتؤكد صلاةٌ أخرى أن ما حدث للخليقة بسبب الخطية، كان بسبب عدم قبولنا المباشر لحكمة الله:

"أيها الرب إلهنا الذي خلَّصنا وأدخلنا إلى هذه الحياة. الذي كوَّن كلَّ شيءٍ بكلمته، وبحكمتك خلقت إنساناً ليكون رئيساً على المخلوقات التي صنعتها من قِبَلِك. ويسوس العالم بقداسةٍ وبر. أعطني الحكمة الجالسة عند كرسيك. أعطني في هذه الساعة قلباً حكيماً فهيماً" (القداس الباسيلي، صلاة ثانية للحجاب).

والحكمة الجالسة عند كرسي الآب هي الروح القدس الذي يعطي الاستنارة والفهم للكاهن والشعب، لكي يدرك ويفهم أُلوهية الأسرار:

"أعطني يا رب روحك القدوس النار غير الهيولية التي لا يُفكَّر فيها (فوق مجال الفكر) التي تأكل كل الضعيفات وتحرق الموجودات الردية .. ويلجم حركات الفهم التي تقوده إلى الخيالات المملؤة أوجاعاً وآلاماً" (القداس الكيرلسي، صلاة الحجاب).

هذه الحكمة التي نطلبها، نعترف بأنها تعمل وتدبر أكثر من الحد الذي نستطيع أن ندركه (القداس الكيرلسي، صلاة شكر بعد التناول). أو في موضع آخر في الطلبة: "إيماناً بغير فحصٍ، ومحبة بغير مراياة"، فالإيمان الذي يعلو على الفحص، ليس هو إيمان المجانين وعديمي الذكاء، وإنما هو الإيمان الذي لا يتولد من جدلية ***dialectic*** البحث. فالقراءة والفحص يطهران العقل والإدراك من المعرفة الكاذبة، ولكن ذلك ليس إلاَّ البداية؛ لأننا نعلم عقلياً أن الخبز والخمر هما جسد الرب ودمه. هذه المعرفة العقلية،

نجدها واضحةً ومشروحةً بكفاية جدلية، وبكل البراهين التي تتطلب الكثير من الذكاء والمقدرة في كتب اللاهوت التي كُتِبَت بعد القرن الحادي عشر، عندما اتجه الجدل في الغرب الكاثوليكي إلى تحديد كيف يتحول الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه، فانتقل من الجانب المستيكي إلى الجانب الفلسفي، وكان نتيجة ذلك دخول تعبير "الاستحالة الجوهرية"، وهو عودة إلى فلسفة أرسطو التي تميّز بين الجوهر والعَرَض. لكن الشرق لا يرى في هذا أي قدر من التقدم الروحي؛ لأن الإيمان والحكمة يأتيان كعطية مباشرة، وإعلان الروح القدس حقيقة جسد ودم ربنا حسب صلاة استدعاء الروح القدس في القداس الباسيلي وغيرها من الصلوات:

> "نسألك ايها الرب الهنا نحن عبيدك الخطاة .. ليحل روحك القدوس علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة ويطهرها وينقلها ويظهرها قدساً لقديسيك".

فالروح القدس سبق وحوَّل الذين اعتمدوا، حسب صلاة المعمودية:

> "عرِّهم من عتيقهم، وجدِّد حياتهم، املأهم من قوة روحك القدوس بوحدانية وعزاء ابنك الوحيد؛ لكي لا يكونوا بعد أبناء الجسد، بل أبناء الحق" (ترتيب المعمودية المقدسة).

> "نسألك يا ملكنا نحن عبيدك، انقلهم وابدلهم وقدِّسهم وقوِّهم" (ترتيب المعمودية المقدسة).

وهؤلاء هم الذين "يُعلِن" أو "يُظهر" لهم الروح القدس، أن الخبز والخمر هما جسد الرب ودمه، وذلك نراه بشكلٍ حاسمٍ في حياة هؤلاء الذين نالوا هذه المعرفة وهذه الحكمة السماوية؛ لأنهم يتصرَّفون بخشيةٍ وخوفٍ ومحبة، وغالباً ضد كل المقاييس التي يقبلها المجتمع البشري الذي يقدِّس ويعبد القوة والاشخاص، ويعطي للتجمعات البشرية والأحزاب المكانة الأكبر نظراً للحجم والقوة، وغضاً للنظر عن الجودة والنوعية.

وتحرص الصلاة الختامية بعد الدهن بالميرون أن تطلب هذه الحكمة عند وضع الأكاليل:

"أنت الآن أيضاً بارِك هذه الاكاليل التي هيأناها لنُلبِسها لعبيدك الذين اتحدوا بالعماد المقدس؛ لكي تكون لهم أكاليل مجد وكرامة – أكاليل بركة ومجد – أكاليل فضيلة وبر – أكاليل حكمة وفهم" (ترتيب المعمودية المقدسة).

والذي يتوج بإكليل الحكمة، يسلك حسب شكل المسيح الذي قَبِلَه في المعمودية.

والمعرفة العقلية مطلوبة لأنها تقودنا إلى مصدر الحكمة السماوية، أي الروح القدس نفسه، وهذا نراه بشكلٍ واضحٍ في هذه الصلاة:

"وأيضاً نرجع إليك يا الله باقترابنا إلى مذبحك المقدس، ونسألك أيها الكلمة الذاتي: طهّرنا في هذا الوقت الذي نأتي إليك فيه. أنت الذي أتى إلينا بجسده الغير المتغيّر. ...

وارسل لنا عطية روحك القدوس؛ لكي تأتي على مذبحك المقدس، ونكمّل هذه الخدمة كما يرضيك" (القداس الغريغوري، صلاة ثانية للحجاب).

فالعقل يعرف الطريق إلى الكنيسة، والذاكرة تختزن الصلوات، والإدراك يعرف ترتيب الخدمة، وكل الحواس الأخرى تعمل، بل إن العادات التي نتربى عليها، مثل عدم الكلام والوقوف والوقار، تجعلنا نتصرف بهدوء ورزانة. وهذا ما نفعله أيضاً على صعيد العلاقات الاجتماعية.

لكن الصلاة تؤكد لنا أن كل ما نعرفه عقلياً، إنما هو مجردُ بابٍ ندخل منه إلى عمق السر الفائق، سر حضور الثالوث القدوس الذي تعبّر عنه هذه الصلاة بدقة شديدة:

"أستعطفك أيها الرب القادر على كل شيءٍ. أنا الضعيف العاجز غير المفلِح بين جميع خدامك. عندما أتقدم إلى قدس أقداسك، وألمس هذا السر المخفي المقدس، أعطني يا رب روحك القدوس. النار غير الهيولية التي لا يُفكَّر فيها .. وليجعل (الروح القدس) فيَّ الكلمات المطهِّرة، لكي أكمِّل هذا القربان الموضوع الذي هو سر جميع الأسرار، بصحبة وشركة مسيحك" (القداس الكيرلسي، صلاة الحجاب).

ويا ليت القارئ يقف أمام كل عبارة في هذه الصلاة؛ لأن الكاهن يعرف كلمات التقديس جيداً، لكن الروح يكشف عن معاني هذه الكلمات برؤية تفوق القدرة على التعبير. ومع أن الكاهن من خلال معرفة ذاكرته بالكلمات الخاصة بالصلاة، يمكنه أن يصلي كل الكلمات، إلاَّ أن هذا يختلف تماماً عن الصلاة التي وإن جاءت من الذاكرة، لكنها تتحد بإلهام وإعلان الروح القدس؛ لكي يدرك الكاهن والشعب معاً أن خدمة الليتورجية، تكمُل ليس بتلاوة الصلاة، وإنما بصحبة وشركة المسيح الذي هو وحده يملك القدرة على إتمام الاستحالة، حسب كلمات الصلاة المعروفة في قداس غريغوريوس:

"أنت يا سيدنا، بصوتك وحدك، حوِّل هذين الموضوعين. أنت الحال معنا، هيئ لنا هذه الخدمة المملؤة سراً. أنت اغرس فينا ذِكر خدمتك المقدسة" (القداس الغريغوري، سر حلول الروح القدس).

واذ هو يصلي، تتحول الذاكرة والكلمات المعروفة سابقاً، والتي أتقن حتى اللحن الخاص بها، إلى اتحادٍ بالمسيح، الذي هو وحده، وبصوته، وبالروح القدس، يقول لكل الكنيسة:

"هذا هو جسدي .. وهذا هو دمي".

هذه الأيقونة الرائعة التي نراها في الليتورجية، غير معروفة في التراث الغربي برمته، حيث أحاطت النظريات القانونية والفلسفية بالأسرار، وحوَّلتها إلى قضايا جدلية. لكن

كما نرى هنا، الأسرار -بشكلٍ واضحٍ- هي عطايا الله التي لا يمكن أن تشرحها النظريات الفلسفية، وإنما هي هبات يعطيها الآب بالابن في الروح القدس. وهي هبات تُعطي للكنيسة - الخدام —والشعب، ولذلك تحرص القداسات على استخدام صيغة الجمع دائماً.

وحتى في صلاة استدعاء الروح القدس، فقد حَرِصَ قداس مار مرقس (الكيرلسي) على إبراز اشتراك الشعب في طلب واستدعاء الروح القدس:

> "اسمع يا رب طلبة شعبك، والتفت إلى تنهُّد عبيدك. ومن أجل خطاياي خاصةً، ونجاسات قلبي، لا تحرم شعبك حلول روحك القدوس" (القداس الكيرلسي).

وعندما يطلب الشعب: "ارحمنا يا الله ضابط الكل"، يطلب الكاهن حلول الروح القدس في صلاةٍ جميلةٍ، هي أطول صلاة لاستدعاء الروح القدس في القداسات الشرقية، وتحتوي على معاني لاهوتية ذات أهمية بالغة، لا سيما وصف الروح القدس بأنه هو "ينبوع النِّعم الإلهية"، وأنه أيضاً شريك كرسي مملكة مجد الآب والابن. وكلمة "شريك" هي من الكلمات الليتورجية التي تُقال عن الكاهن العظيم ربنا يسوع المسيح، وعن الروح القدس، كما أنها تُقال عن الكاهن الخديم والشريك في الخدمة؛ لأن الكنيسة هي صورة الثالوث، حسب التعليم الرسولي القديم الذي صاغه القديس أغناطيوس الانطاكي.

وحضور الشعب في رسامة الأسقف، واشتراك الشعب ليس فقط في الاختيار، بل في استدعاء الروح القدس مع الأساقفة، ظاهرٌ بشكلٍ واضح أيضاً في رسامة الأسقف:

> "يقول الأرشيدياكون: لنقل كلنا بحُرقةٍ: يا رب ارحم.

الشعب: يا رب ارحم.

يقول الأرشيدياكون: أيها الرب ضابط الكل السماوي إله آبائنا نسألك أن تسمعنا وترحمنا

نسألك أن ترسل روحك القدوس على هذا المصطفى خديمك (فلان) هذا الذي من أجله كانت هذه الطلبة لديك أيها الرب إله المجد، نسألك يا رب أن تصغي إلينا وترحمنا.

وبعد ذلك يقول الارشيدياكون: "اطلبوا وابتهلوا للرب أيها المجتمعون لكي تأتي عليه نعمة الروح القدس بقولنا مع كل شعبنا يا رب ارحم.

يقول الأرشيدياكون: "قفوا حسناً، صلوا معنا كلكم مع الأساقفة، وارفعوا أيديكم إلى فوق".

وبعد ذلك في طلبة رئيس الاساقفة:

"اطلبوا لكي يحل الروح القدس على هذا الأسقف المختار .. صلوا لإله المجد بخُرقةٍ قائلين كلنا يا رب ارحم".

فالحكمة التي تقود الإنسان إلى الله، تبدأ بكلمات التعليم التي تُعطى في التعليم؛ حتى تفتح العقل والقلب لمعرفة جديدة. لكن هذه المعرفة الجديدة، ليست إلاَّ الخطوة الاولى نحو التذوُّق المباشر من الله. هذا التذوُّق هو تذوُّق الجماعة، واختبار الجماعة، ومساهمة الجماعة أو شركة الجماعة في الصلاة، هي شركة في النعمة. وحقيقة الأمر أن المعمودية التي تُعطى لكل فردٍ على حدةٍ، هي التي تؤهِّل الإنسان لأن يكون عضواً في الجسد الواحد، أي الكنيسة. فهي، أي المعمودية، تفتح مجال المعرفة والخبرة التي استلمتها الجماعة، وهي هنا بشكلٍ خاص، المعرفة التي تُعطى بواسطة الروح القدس الذي يُعطى في المعمودية والميرون؛ لكي يؤهِّل الفرد الواحد لأن يقبل جسد ودم ربنا يسوع بالروح

القدس. فما يُعطى من خلال الممارسة، هو ما يُعلَن من خلال الكلمة. وما ينزع العزلة، أي المعمودية، هو ذاته الذي يغرس الشركة في الإفخارستيا. ومِن هذا ندركُ أن الليتورجية تعطي لنا بشكلٍ واضحٍ، الانضمامَ إلى الكنيسة، ومشاركةً كاملةً في الثالوث بالصلاة، ومشاركةً كاملةً في تذوُّق ما يُعطى في الأسرار. ولو أدركنا أن المعرفة تتكون من خلال الممارسة، لتوقف الجدل. ولو أدركنا أن الأسرار رؤيةٌ وتلامسٌ مباشرٌ مع النار الالهية، نار الروح القدس، لتوقفنا لكي نفحص القضايا الفكرية التي تُطرح على مستوى المعرفة الفكرية النظرية التي لا تربطها بإعلانات الروح القدس، علاقةٌ واضحة، بل ربما لا تستقي هذه المعرفة النظرية شيئاً منها. فالذي ينال المعرفة الآتية من الله في الليتورجية، ومن خلال الشركة والعضوية الواضحة في جسد المسيح الكنيسة، إنما هو في حقيقة الأمر، أبعد ما يكون عن كونِهِ الفرد الواحد المتقدِّم في المعرفة دون غيره، بل الفرد الواحد المتقدم مع غيره، والذي استلم مع الآخرين، وينمو مع الآخرين. هذه الرؤية الإلهية لا تُعلَن لكي تنفي الأخطاء، بل تتذوق الحق ثم تنفي الخطأ. تتلامس مع المسيح نفسه، ومع حقيقة جسده ودمه، قبل أن تُجيب على الأسئلة؛ لأنها لو أجابت على الأسئلة من خلال المعرفة النظرية، تكون قد انفصلت عن الليتورجية، أي عن الصلاة، وتحوَّلت إلى فكرٍ نظري فلسفي يخلق الانقسام والجدل في الكنيسة.

الفصل الرابع

الصلاة والأسرار في الشرق

وُلِدَ لاهوت الكنائس الشرقية في الكنائس والأديرة. ونشأ لكي يقدم الغذاء للشعب. وظل لاهوت الشرق هو لاهوت الصلاة؛ لأن الصلاة لها وضعٌ خاص في التراث الشرقي المسيحي، فهي كلمة تُطلَق على كل شيء في الحياة المسيحية مثل الدعاء والطلبة والشفاعة، بل وكلمة الله في الكتاب المقدس هي صلاة، **وحياة المسيح له المجد وموته وقيامته وانسكاب الروح القدس ليست فقط مناسبات للصلاة كما نرى في خدمة السواعي، بل هي أساس وجوهر الصلاة نفسه.** والأسرار الكنسية لا تمارَس إلاَّ بالصلاة، بل هي دعائم الصلاة .. عموماً وبشكلٍ واضح، الصلاة هي قلب اللاهوت؛ لأن كلمة لاهوت في اليونانية، أي الكلام مع الله، أو الكلام عن الله، تتكون من مقطعين: القول أو الكلام λογια والله θεο. ونظراً لدقة وأهمية هذا الموضوع لأنه المدخل الوحيد للحياة الأرثوذكسية، يجب أن ندقق النظر فيه على النحو المسلَّم لنا من الآباء.

البدء:

البدءُ في اللاهوت الشرقي هو الآب. وفي الفلسفة اليونانية البدءُ هو لحظةٌ محددةٌ في الزمان .. لكن الزمان –بسبب تجسد الابن الكلمة– قد توقف أو انتهى كعلامة تفصل بين الله والانسان؛ ولذلك قال الرسول بولس: "ولما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه

مولوداً من امرأة تحت الناموس .." (غل ٤: ٤). لقد وصل الزمانُ إلى غايته، أي حقق سبب خلقه عندما دخل اللهُ الحياةَ الإنسانيةَ والتاريخ بتجسد ابنه الوحيد، فتوقفت الفصول والأزمنة عن أن تكون مناسبات لقاء، أو مناسبات صلاة؛ لأن الله الكلمة صار إنساناً .. هنا صار البدءُ –بسبب تجسد الكلمة– رأساً وأصلاً، وليس لحظةً من لحظات التاريخ. والكلمة اليونانية αρχη عند آباء الكنيسة، وبشكلٍ خاص، القديس كيرلس تعني المصدر والأصل والرأس، وليس البدء الزمني. وتطور معنى الكلمة، ونقل دلالتها من الزمان والعادة إلى الكيان الإلهي نفسه، هو في حقيقة الأمر ابتعادٌ متَعمَّدٌ عن الفلسفة اليونانية؛ لأن الزمان لم يعد صالحاً كمقياس لعمل الله الكلمة المتجسد، وهكذا البدءُ هو كيان الله، الآب نفسه.

> "ليس من الممكن أن نعتبر "البدءَ" خاصٌ بزمانٍ مهما كان؛ لأن الابن الوحيد هو قبل كل الدهور. والطبيعة الإلهية تفوق أبعاد الزمان، فهي كما هي لا تتغير .. فالبدءُ الذي يمكن قياسه بالزمان أو المسافات، سوف يتعداه الابن، فهو لا يبدأ في زمان أو مكان، بل هو بلا حدود، فهو بالطبيعة الله، ويصرخ: أنا هو الحياة. والإنجيلي المبارك .. يسمي الآب البدء، أي القوة والسيادة التي على الكل .. في هذا البدء .. كان الكلمة (القديس كيرلس الكبير، شرح إنجيل يوحنا، ترجمتنا العربية للإصحاح الأول والثاني، ص ١٧–١٩).

وخروج الزمان من العلاقة بين الله والبشر هو ما جاء به الإنجيل، وهو ما نراه دائماً تحت كلمة "اليوم"، "اليوم يوم خلاص"، أو ما تعلنه الليتورجيا عندما تأخذ نص المزمور: "هذا هو اليوم الذي صنعه الرب، فلنفرح ولنبتهج فيه". والزمان يبدأ بالعدم، إذ لم يكن هناك زمانٌ حتى خلق الله السماء والأرض. ولذلك، لا يؤسِّس الله علاقته مع الإنسان على المتغير الآتي من العدم، أي الزمان، وإنما من خلال ما هو ثابت وأبدي، وهو الحياة الإلهية نفسها.

الخلقُ دعوةٌ للصلاة:

وإذا صار الله هو البدء؛ تم قول الله نفسه: "ويصير الجميع متعلِّمين من الله"، أي صار الله هو "المعلِّم" الذي يتشبَّه به الإنسان. لأن عودة الإنسان إلى البدء، أي الله، هي عودةٌ إلى علة وسبب الوجود؛ لكي تصبح هذه العلة هي الطريق الوحيد للتمييز بين المعرفة الآتية من الله، والتي تقود إلى الحياة، والمعرفة التي لا تربطها بالبدء أية علاقة، والتي تقود الإنسان إلى غموض العدم. وإذا صار اللهُ هو البدء، بات من الواضح أن المعرفة الإنسانية بالله هي معرفة واستيعاب الإنسان لذاته في نور الشركة مع الله، ولا تصبح المعرفة معرفة نظرية ترتبط بأفكار غائبة، وإنما معرفة كيانية حقيقية أساسها الكيان الإنساني نفسه. هذا يطرح بشكلٍ أساسي، خلق الإنسان على صورة الله. ولاهوت الشرق منذ البداية، وفي كتابات الآباء رأى أن الإنسان هو حلقة الاتصال بين السماء والأرض، فهو يأخذ الفهم والحكمة من السماء، أي الله، لكي يطور الأرض ويضفي عليها جمال وابداع الخالق، ولذلك السبب عينه، رأى الآباء أن العالم الروحي ورُتَب الملائكة قد خُلِق لكي يخدم الإنسان (عب ١: ١٤). وهنا، لا مجال للمقارنة بين مَن هو أعظم: الملاك أم الإنسان، ذلك أن الأعظم هو الخادم حسب قول الرب نفسه. وتطوير العالم المادي الذي أُخِضَع للإنسان، إنما يعبِّر عنه المزمور الثامن في صلاة كونية رائعة تؤكد أن الإنسان لا يصل إلى السيادة على الخليقة إلاَّ من خلال الصلاة. هكذا، لم يظهر التدبير بشكل واضح إلاَّ عندما تجسد الابن، وصار آدم الحقيقي الذي على مثاله خُلِقَ آدم الأول، وهو بداية الخليقة الآتية حسب قول الرسول بولس في (رو ٥: ١٢-١٤). وبتجسد الرب يسوع، صار التدبيرُ أكثر وضوحاً، فقد أعاد الابن المتجسد "تأسيس الخليقة"، وبعد أن خرجت من العدم إلى الوجود، صارت الآن مدعوةً لأن تأخذ الهبة الأعظم والأكمل، وهي هبة الشركة في الحياة الإلهية. ولعل القارئ يلاحظ أننا احتفظنا بالكلمة القديمة "الخليقة"، وهي لا تعني الإنسان وحده بدون الكون، بل تعني كل الأشياء المحيطة بالإنسان، والتي دُعيَت لكي تخدم الإنسان، والتي تشترك مع الإنسان في الصلاة وتسبيح الخالق (مزمور ١٩). ومن هنا، ندرك أن الخلق بالكلمة: "قال الله ليكن

نور"، هو تعبيرٌ دقيق جداً عن علاقة الروح والمادة، ذلك أن أصل المادة هو الروح أو الكلمة، وأن كلَّ شيء قائمٌ بكلمة الله؛ لأن الكلمة التي خَلَقَت كل الأشياء ليست كلمة بشرية تنتهي إلى العدم، بل الكلمة الإلهية الحية والقوية التي تخلق وتحفظ كل الكائنات "وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته" (عب ١: ٣)، ويشترك الإنسان بالكلمة في تذوُّق جمال هذه الصلاة الكونية الصادرة من الخليقة كلها. فالكلمة الإلهية التي تحفظ كل الكائنات وتُبقى عليها، هي القوة الخالقة التي تدخل عقل الإنسان، وتجعله الخالق والشريك في تطوير الكون، وتحويل المادة إلى عرشٍ إلهيٍّ يجلس عليه الثالوث والبشرية.

لذلك، ظلَّ لاهوت الشرق يرى **أن الصلاة ليست مجرد حديثٍ مع الله، وإنما هي علاقة كيانية بين الأصل والصورة**. وفي لاهوت الشرق، الخلق من العدم يعني أن قدرة النطق هي نعمة إلهية وُهِبَت للإنسان، وأن هذه القدرة تبدأ بالكلمة. وأثيناغوراس يشبِّه العقل البشري بأوتار القيثارة التي تحركها اليد الإلهية، وعندما يهب الروح القدس من عند الآب، تتحرك أوتار الحياة العقلية الإنسانية، وتخلق الكلمات والمعاني، فتصدر النغمة أو الصلاة. وليس عبثاً أن احتفظ الكتاب المقدس بصلوات الأنبياء؛ لأن هذه الصلوات تتحول بدورها إلى إلهامٍ يحرِّك الأوتار، ولأن نغمات الروح القدس، وفي عالم الموسيقى النغمةُ تلد نغمةً، بل نغمات.

وفي عالم الروح يحرِّك الروح القدس الأنبياءَ لكي تحرِّك صلواتهم البشر بعد ذلك. فالخلق من العدم يعني أن الاقتراب من الله هو اقترابٌ لا تحققه قدرات الإنسان بما فيها النطق، فالإنسان لا يملك القدرة الذاتية على الكلام، وإنما هذه القدرة أودعها الخالق وغرسها فيه؛ لكي تتحرك حسب مشيئة الإنسان ورغبته، أو لكي تتحرك حسب إلهام الروح القدس وكلماته التي يضعها على لسان البشر.

والصورة الإلهية التي وُهِبَت للإنسان تعني أن الصلاة هي دوام الاقتراب من الله. فالإنسان يقترب من الله ليُحقق ذاته، وذلك يتم في الصلاة؛ لأنها تفتح لنا أعماق وسِر القلب الإنساني، وتكشف عن خفاياه عندما نقترب من النور الأزلي، الله نفسه، وهكذا

يظهر ما خفى عن الوعي والإدراك الإنساني.

والصورة هي علاقة كيانية كما سبق وقلنا، وبالتالي، الصلاة تتجاوز كل الأشكال اللفظية، بل إننا هنا نجد ما قاله المعلم العظيم الأنبا أنطونيوس من أن الكيان يسبق الكلمة، وأن العقل الذي يلد المعرفة هو أعظم من المعرفة. وإذا طبَّقنا ذلك على الصلاة نفسها، لاكتشفنا أن الكيان الإنساني أعظم من الكلمة؛ لأنه هو الذي يلد الكلمات من خلال علاقته بالثالوث.

ولذلك، رغم اهتمام الشرق الشديد بدقة الألفاظ في الصوات وصحتها، إلاَّ أن الشرق اعتبر أن التعبير اللفظي، رغم ضروريته القصوى، يمكن التغافل عنه في مراحل الحياة الروحية المتقدمة، عندما يصبح الصمت هو الضرورة. ولذلك، يجب الانتباه إلى فترات الصمت في القداسات؛ لأنها جزءٌ من تراثنا الروحي الرسولي، حيث يصمت القلب عندما يسمع كلمات الشماس: "ننصت آمين"، وهي مِن الكلمات السِّرية التي كانت تقال في العصور الأولى؛ حتى يردد الشعب –سِّرياً– صلاة استدعاء الروح القدس مع الكاهن، وحتى لا يتعلم الغرباء والدخلاء الكلمات المقدسة.

هذا يعني أن الأسرار الكنسية، لا يمكن أن تُستَوعَب بشكلٍ صحيح إلاَّ من خلال الاستيعاب الدقيق لخلق الإنسان على صورة الله؛ ليكون حلقة الاتصال بين السماء والأرض. فالإنسان –كصورة الله– يحوِّل الكون والمادة بشكلٍ خاص، من خلال الصلاة والعمل، إلى دعامةٍ من دعامات علاقته بالله. وتحويل المادة لا يتم بالاستهلاك فقط، وإنما يتم أيضاً بدخول المادة في علاقة الشركة مع الله، لتصبح المادة أحد دعائم هذه الشركة؛ لأن الإنسان هو إله هذا الكون، حسب كلمات المزمور الثامن. وتظهر الأسرار في حياة آدم الجديد كجزء من وحدة السماء والأرض، ووحدة الروح والمادة. فقد أعاد ربنا يسوع المسيح من خلال معجزاته، الوضعَ القديم السابق على السقوط، عندما حوَّل الماءَ خمراً، وعندما سار على المياه بقدميه، وهذه احتاجت إلى لاهوت الابن الكلمة؛ لأن الإنسانية فقدت ما كانت تملكه. وعلينا أن نلاحظ أن كل معجزات الرب

هي القدرات الإلهية التي أُعطيت لآدم الأول، ما عدا إقامة الموتى، وقد شرح هذه النقطة القديس غريغوريوس النيسي وغيره من الآباء، وأكَّدوا أن الإنسان الجديد أو آدم الثاني، إنما قد كَشَفَ عن معنى الصورة الإلهية، وعن معنى الشركة في الطبيعة الإلهية. وما تميَّز به الرب باعتباره الأقنوم الثاني، هو هبة وعطية الحياة التي لا يملك مخلوق أن يعطيها لآخر. أما السيادة على المخلوقات وغيرها، فهي قدرات نعمة الصورة، ومن هنا ندرك ثلاثة حقائق أساسية هي بمثابة دعامة لاهوت الأسرار في الشرق:

أولاً: إن ما ناله الرب يسوع في إنسانيته، مثل الميلاد من العذراء بالروح القدس، ومسحة الروح في الاردن، هو عطية الآب والروح للإنسانية التي يمثلها الآن المسيح، وليس آدم الأول. وطبعاً، سوف تنبع الأسرار: المعمودية والميرون من ميلاد الرب من العذراء، ومسحة الأردن.

ثانياً: عندما صُلِبَ الربُّ على الصليب، فقد قدَّم حياته للإنسانية، وما موت المسيح عنا إلاَّ دخولُ موتنا في علاقة الآب والابن والروح القدس. ومن الأفضل هنا أن نستعين بكلمات قسمة القديس كيرلس السكندري، فهي أدق وأجمل في التعبير عن هذه الحقيقة:

> "يا حمل الله الذي بأوجاعك حملت خطايا العالم، بتحننك امحُ آثامنا. يا وحيد الله الذي بآلامك طهَّرت أدناس المسكونة، بمراحمك طهِّر أدناس نفوسنا. يا مسيح الله الذي بموتك قتلت الموت الذي قتل الجميع، بقوتك أقِم موت نفوسنا".

وهنا لا يجب أن ننسى أن هذه الصلاة تقال بعد صعود الرب ودخوله مجد الآب، وهذا يؤكد لنا أن استيعاب الموت في ناسوت ربنا يسوع المسيح هو استيعابٌ للقضاء عليه، وقبولٌ للموت لكي تنبع القيامة والحياة. وفي المعمودية والميرون، يقدِّم المسيحُ ليس موته فقط، وإنما قيامته أيضاً. وتأخذ المعمودية والميرون من الميلاد من البتول ومن مسحة الأردن، البنوة وسُكنى الروح. وتأخذُ من الجلجثة صَلبَ الطبيعة القديمة.

ومن القبر والقيامة، الحياةَ الأبدية الغالبةَ الموت.

ونعود مرةً أخرى لصلاة القسمة؛ لأن الكلمات أدق:

"لأننا بدون دالةٍ تقدَّمنا إلى حضرتك قارعين باب تعطفك، فهب لنا يا غنياً بالمراحم من كنوز أدويتك. اِشفِ أيها الرؤوف نفوسنا الشقية بمراهم أسرارك المحيية. طهِّر أجسامنا، اغسلنا من آثامنا، اجعلنا أهلاً لحلول روحك الطاهر في نفوسنا. أنر عقولنا لنعاين سُبحك، نقِّ أفكارنا واخلطنا بمجدك. حُبُك أنزلك إلى هبوطنا، نعمتُك تصعدنا إلى علوك ... نتقدم إلى حضرتك واثقين برحمتك وأنت تحل داخلنا بالمحبة .. إلقِ فينا نعمتك .. لكي بذوق لحمك، نؤهَّلُ لذوق نعمتك، وبشرب دمك نؤهَّل لحلاوة محبتك ..".

هذا كله مستحيل بدون الموت والقيامة، إذ يظل المسيحُ بعيد المنال عن أن يكون في داخلنا، إلاَّ إذا صار غير مرئيٍّ وفي مجد الآب، وهو تاج الموت والقيامة، أي الصعود.

ثالثاً: وهكذا، نحن لا نسأل هنا عن علاقة الأسرار بالميلاد والمعمودية والقيامة والصعود، بل نرى بشكلٍ واضح، أن الربَّ ينقل حياته إلينا، وينقل ما تغيَّر في كيانه الإنساني بسبب الاتحاد بأقنومه الإلهي، وبسبب الميلاد والمعمودية والموت والقيامة، وبذلك يصبح صعود الرب هو اتحادُ السماء والأرض.

الفصل الخامس

الصلاة الليتورجية

علاقة كيانية مع الثالوث

احتفظ الشرقُ لمدة طويلة جداً بالشركة، كدعامة للحياة الروحية. والشركة في تراثنا الشرقي تجد أصلها في صورة الله في الإنسان، وغايتها، الاتحاد بالثالوث، وقوتها هي علاقة أقانيم الثالوث في جوهر الله الواحد. لقد شرح القديس أثناسيوس وغيره من الآباء ذلك كله بكفاية في مجال الرد على البدعة الأريوسية وما تفرَّع عنها من هرطقات أخرى. ويعكس التصدي للبدعة الأريوسية، الخبرة الليتورجية الشرقية التي صاغت دفاع الآباء عن الإيمان الرسولي. والصورة التي تطالعنا عبر كتابات الآباء في حقيقة الأمر، هي صورة اجتماع الكنيسة بالثالوث.

هذا الاجتماع لا يتم إلاَّ من أجل إقامة الخدمة أو القدس الإلهي. ذلك، أن هدف الاجتماع هو أن يصبح الكلُّ واحداً في الله، وأن يتحقق ذلك من خلال الصلاة وبشارة كلمة الله، وإقامة "السر العظيم الذي للتقوى"، الذي هو سر تجسد ربنا يسوع المسيح واجتماعه بنا. وسوف ندرس ذلك الموضوع الدقيق دراسةً مفصَّلةً في الفصل الخامس، لكن يهمنا الآن أن نرى أن خبرة الكنيسة الرسولية، وهي خبرة صلاة، استطاعت أن تتصدى للغنوسية والأريوسية بكل قوة ووضوح. فقد عجزت الغنوسية

والأريوسية عن أن تقدم "اجتماع صلاة للإفخارستيا" بسبب الفقر الشديد الناجم عن فقر الهرطقة نفسها.

أولاً: مرحلة التصدي لمدارس الغنوسية

عندما فصلت الغنوسية المادةَ عن الروح، وقسَّمت الله نفسه إلى إلهين: إلهٌ للخير وإلهٌ للشر، قدَّم الآباءُ دفاعهم عن الإيمان بالتمسُّك الشديد بتجسد ربنا يسوع المسيح، وبسر الإفخارستيا. وأكَّد الآباء أن جسد ربنا يسوع المسيح، هو جسدٌ إنسانيٌّ حقيقيٌّ أخذه الرب من العذراء لكي يضع الخليقة المادية والروحية تحت الرأس الجديد الأبدي، أي الرأس الإنساني آدم الجديد، الرأس أو ربنا يسوع المسيح. وما نراه بوضوح هو أن الخليقة الآتية من العدم وفي مقدمتها الإنسان، لا تملك مقومات البقاء الأبدي، فهي تحتاج دائماً إلى عطية ونعمة الوجود، وإلاَّ ارتدت وعادت إلى العدم.

فالوجود كله، الإنسان والكون، له كيانٌ هشٌّ قابلٌ للفناء. أما وأنه لم يفنَ، فهذا هو عمل الله الذي يغذِّي ويقود الخليقة ويحفظها في البقاء حتى تصل إلى غايتها وهو الله نفسه. ورؤية آباء القرون الأولى تقوم على اعتبار أن الإنسان هو نقطةُ لقاء السماء بالأرض، هو رأس الخليقة الذي يجمع الروح والمادة؛ لكي يحول المادة بالنعمة، وبعمل الروح القدس إلى ملكوتٍ للخالق، يشارك الخالق فيه. هذه الصورة تطالعنا عبر فصول إنجيل يوحنا ورسائل بولس الرسول، وبشكلٍ خاص، رسالة أفسس، ثم كتابات القديس إيريناوس، ثم باقي الآباء. وتشرح هذه الحقيقة الجميلة رسالةُ العبرانيين مؤكِّدةً أن الإنسان دُعيَ لكي يرث هذا الملكوت، وأن هذا هو السبب في إخضاع الخليقة تحت قدميه.

فالإنسان رأسُ الخليقة أو العالم أو الكون الصغير الذي يحوِّل بحياته، ومن خلال علاقته بالثالوث المادة والكون، من تقدُمة أو صعيدة أرضية إلى تقدُمة روحانية كاملة، يقدِّمها لله. وطبعاً، نحن نؤجِّل الكلام عن الخطية؛ لأن هذا المشروع برمته طُرِحَ في أسفل بئر الفشل، واستُعبِدَت الخليقة للفشل، أو حسب الترجمة البيروتية لرومية ٨: ٢٥

"للبطل". لذلك السبب، جاء الرأسُ الجديد؛ لكي يجمع الخليقة من جديد، ولكي يعيد ترتيب كل شيء، ويضع الأساس الأبدي الذي لا يسمح للخطية أو الشيطان بأن يستعبد البشرية من جديد، أي أن لا تحدث أيةُ هِزةٍ تطوّحُ بالخليقة مرةً ثانيةً نحو الفشل. وطبعاً، رأى الآباء هذا من خلال صلوات الليتورجية نفسها، ومن خلال اجتماع الكنيسة لإقامة السر، وأدرك الآباءُ أن التعليم الغنوسي الذي يدعو للتخلص من الجسد، هو تعليمٌ بعدم الخلاص، وهو ليس بشارة الفرح بانعتاق الخليقة من الخطية.

"أيها النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آت إلى العالم، أتيت إلى العالم بمحبتك للبشر، وكل الخليقة تهللت بمجيئك" (صلاة باكر).

فـ"النور" الذي ينير، هو النور الآتي، أي أن الخلقَ سوف يكمُل بالخلاص. و"النورُ" بشكلٍ خاص، يبدأ بالخلق، وبخلق الكون المادي، ويصبح في بشارة الإنجيل هو أحد الأسماء المميّزة للابن قبل التجسد، وأثناء التجسد. فالابن هو "نور العالم"، بل يسطع هذا النور من جسد وثياب المسيح عندما يتجلى على جبل طابور. ويصبح "النور" هو اسم المعمودية:

"ادعُ عبيدك يا سيدي إلى نورك الطاهر" (ترتيب صلوات المعمودية).

بل حتى في صلاة الإفخارستيا نفسها:

"أنت هو غفران خطايانا وضياء نفوسنا" (القداس الباسيلي).

و"النور" الذي يُعطى في المعمودية ليس هو نور الابن فقط، بل هو نور الروح القدس، ولذلك يصبح "النور" من الكلمات الأساسية التي تعبّر عن الحياة الجديدة: "أنا هو نور العالم، مَن يتبعني فلا يمشي في الظلمة". وكما هو معروفٌ، الظلمةُ هي الموت، والنورُ هو القيامة: "الشعب الجالس في الظلمة أبصر نوراً عظيماً والجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم النور". والنور أيضاً من دعائم الشركة؛ لأن الخلق هو دعوة للشركة:

"كان هو النور الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم. فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس"، ذلك أننا يجب أن ندرك أن كلمة "حياة"، تعني بشكل أساسي "الشركة"، وتُبرز ذلك صلاة الأنافورا في قداس مار مرقس:

> "أنت الذي خلق السموات وما في السموات، والأرض وكل ما فيها، البحار والأنهار. أنت الذي خلق الإنسان كصورتك وكشبهك، وخلقت كلَّ الأشياء بحكمتك، نورُك الحقيقي، ابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا كلنا يسوع المسيح" (القداس الكيرلسي).

> "اللهم والد النور ورئيس الحياة واهب المعرفة .. الذي أصعدنا من العمق إلى النور، الذي أعطانا الحياة من الموت .. الذي جعل ظلمة الضلالة التي فينا تضيء من قبل إتيان ابنك الوحيد بالجسد. أنت الآن أيضاً يا سيدنا أنر عيون قلوبنا .. لكي بقلب طاهر .. ندعوك يا الله الآب" (صلاة قسمة للآب).

بل يرتفع الأداء الروحي واللاهوتي إلى معاينة معنى القيامة من الأموات في صلاة قسمة القيامة:

> "ونحن الجلوس أيضاً في الظلمة زماناً، أنعم لنا بنور قيامته من قبل تجسده الطاهر. فليضيء علينا نور معرفتك الحقيقية لنضيء بشكلك المحيي" (قسمة للابن تقال للقيامة).

وما هو شكل المسيح المحيي الذي يضيء **فينا** بنور المعرفة، سوى حياة عدم الموت، أي حياة الشركة في الله؟ ومن الليتورجية اغترف الآباء؛ لأن الصلوات القديمة التي شاعت في كل أرجاء العالم المسيحي، والتي لها جذورٌ في العهد الجديد نفسه، كانت تؤكد وحدة السماء والأرض، ليس فقط في رؤيا القديس يوحنا الإنجيلي، بل في كل أجزاء العهد الجديد، وبشكلٍ خاص، الفصل الأول من إنجيل يوحنا، والفصل الأول من الرسالة

إلى أفسس. ولأن التعليم المسيحي لا يقبل أن تنقسم الخليقة إلى مادة وروح، بل رأى أن الإنسان هو تاج الخليقة الذي فيه يتم اتحاد المادة بالروح، صارت هذه الحقيقة، وهي حقيقة تُختَبَر في الصلوات وفي الإفخارستيا بشكلٍ خاص، حيث يصبح الخبز والخمر، وهما من "ثمار الأرض" حسب تعبير القديس ايريناوس، هما "طعام عدم الموت" حسب تعبير القديس أغناطيوس، وبالتالي تصبح الإفخارستيا هي عودة وحدة المادة والروح في المسيح الابن المتجسد، حيث توهَب الحياة الأبدية في الطعام الإلهي المأخوذ من الأرض.

ومن بشارة الرسل أيضاً، ومن صلوات الكنيسة، تمسَّك الآباءُ بوحدة البشر والملائكة الذين رافقوا الرب المتجسد وخدموه، الذين هم حاضرون في الكنيسة "بيت الملائكة". وهي ذات الكنيسة التي يولد فيها المسيحي ويستلم الإيمان الرسولي في ليتورجية المعمودية، ويصبح صديق الملائكة. وهي ذات الكنيسة التي يغتذي فيها بخبز الحياة النازل من فوق. وتعلن هذه الحقيقة كلُّ الصلوات الشرقية، حيث نرى حضور الملائكة في المعمودية والميرون، بل وفي القداس الإلهي نفسه، حيث ربنا يسوع المسيح جالسٌ على كرسي مجده "وتقف أمامه الملائكة ورؤساء الملائكة" والقوات المقدسة .. وعندما ينضم الشعب إلى الشاروبيم والسرافيم، ويشترك في "تسبحة الغلبة والخلاص"، فالمعنى الرسولي واضح، وهو عودة الوحدة والمصالحة إلى الخليقة المنظورة وغير المنظورة التي صارت مؤتلفة تحت رأسٍ واحدٍ، هو ربنا يسوع المسيح. بل يمكن أن نلاحظ كيف تسبّح الكنيسةُ بعد عيد الصعود وحلول الروح القدس الذي وحَّد الكلَّ فيه:

> "فلنسبح اسم الرب؛ لأنه بالمجد تمجَّد. صعد إلى السماء وأرسل لنا الباركليت، روح الحق المعزي ... جعل الاثنين واحداً، أي السماء والأرض".

ثانياً: مرحلة التصدي للأريوسية

فصلت الأريوسية السماء عن الأرض بالعودة إلى الفلسفة الوثنية التي تؤكد أن الله لا تربطه بالخليقة أية علاقة. فالله مجرد مشرف على المادة وعلى الكون كله، ولذلك

هو يخلق كائنات روحية تقوم هي بالخلق، وتعطي الوحي، وتقود البشرية نحو معرفة الخليقة وليس معرفة الله. أما الخالق فهو بعيد المنال. ففي الأريوسية تنفصل السماء عن الأرض ويظل الله في الكون السمائي محاطاً بالخدام من الملائكة. هؤلاء يحملون رسالات للأنبياء. وقد أنكرت الغنوسية ومدارس البدع اليهودية، دور الله في الوحي، فالذي يحمل الرسالة هو ملاك أو كائن روحاني، أما الله، فهو لا يتكلم مباشرةً مع الخليقة. وأريوس رأى أن الابن والروح القدس هما من المخلوقات السماوية التي تحمل بعض ملامح الأُلوهة، ولكن لا الابن ولا الروح القدس هو الله.

وعندما نفقد رؤيتنا لله ونرى أن الخلاص هو عملٌ يمكن أن يقوم به مخلوق مهما كانت درجته، فإننا نرى على الفور أن دورَ الصلاةِ قد انحصر في الطاعة وعمل الوصايا، والبحث عن المصير الأبدي بعيداً عن الشركة. وهكذا تكون الأريوسية قد اعادت الرؤية اليهودية غير المنفتحة على تيار الروح القدس، بل على تيار الوثنية. وقد جاء هذا الخليط لكي يطرح على الكنيسة الجامعة، ليس فقط قضية علاقة الآب بالابن، بل علاقة الخليقة بالله ودور الناموس والانبياء في الخلاص، ونوع المصير الأبدي الذي ينتظر الإنسان.

وقد تصدَّى الآباء لكل هذا بالتمسك بالشركة في الحياة الإلهية. ولأن المجال لا يسمح بعرض الأريوسية وما كتبه الآباء من براهين ودفاع، فإننا نكتفي في المرحلة الحالية بملاحظة ما يلي:

١– الخلق من العدم لا يحفظ الخليقة، بل يهدد الخليقة بالفناء إذا انفصلت عن الله لحظةً واحدة.

٢– الخلق من العدم لا يسمح لأي مخلوق مهما كانت قدراته بالمشاركة في تجديد الخليقة؛ لأن أي مخلوق نال حياته هبةً وعطيةً من الله، وبالتالي هو ليس "ذاتي الحياة"، بل "موهوب الحياة"، وهبة الحياة لأي مخلوق، تحصر عمل المخلوق وقدراته في استثمار هذه الهبة والاحتفاظ بها حسب خلقه.

٣– يعجز المخلوق الآتي من العدم عن أن يجود بحياته نفسها؛ لأن هبة الحياة لأخر هو عمل الخالق وحده، فالخلق من العدم لا يسمح بتقديم الحياة لمخلوق آخر هو بدوره آتٍ من العدم؛ لأن ما لا يملكه المخلوق لا يقدر أن يعطيه.

٤– لذلك جاء الخالق نفسه وتجسَّد لكي يحرر الخليقة من الارتباط بالعدم وبالفناء، ويقدس وجودها ويعيدها إلى ينبوع الحياة .. ذلك ما شرحه معلمنا العظيم القديس أثناسيوس، وهو ما تعبِّر عنه الصلوات الطقسية القبطية بكل وضوح:

"وعندما أردت أن تجدده وترده إلى رتبته الأولى، لا ملاك ولا رئيس ملائكة ولا نبياً ائتمنه على خلاصنا، بل أنت .. تجسدت وشابهتنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها" (القداس الغريغوري).

ودور الأنبياء كما يعبِّر عنه القداس الباسيلي:

"وعندما سقطنا بغواية العدو .. لم تتركنا عنك إلى الانقضاء، بل تعهدتنا بأنبيائك القديسين. وفي آخر الأيام ظهرتَ لنا نحن الجلوس في الظلمة وظلال الموت بابنك الوحيد الجنس ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح".

وهنا نرى، ليس فقط النور الذي يشرق في الظلمة، بل أيضاً مجيء الآب إلينا في ابنه، وهي عبارة دقيقة سابقة على البدعة الأريوسية، ولكنها تكتسب قوةً وعمقاً آخر في الصراع مع الأريوسية؛ لأن الذي جاء، ليس الابن وحده، وإنما الآب أيضاً من خلال تجسُّد ابنه. ولو استطاع القارئ أن يتخيل نوع ودرجة واتجاه الصلاة على أرض الأريوسية؛ لأدرك على الفور أن بعض عبارات الغضب في كتابات القديس أثناسيوس تعبِّر عن ألمٍ حقيقيٍّ ووجعٍ أدرك الكنيسة الجامعة؛ لأن الخلاص وتجديد وَرَد الخليقة إلى الله لا يمكن تحقيقه بالمرة إذا كان المخلص مخلوقاً؛ لأن الأرض وكل ما عليها "تأخذ ولا تعطي" حسب عبارة القديس غريغوريوس النيسي، والخليقة لا تملك أن تقدم أو تعطي للإنسان حياة إنسانية جديدة، ناهيك عن حياة عدم الموت أو الحياة الابدية التي تخص

الخالق دون المخلوق. وإذا أعطت الخليقة، فهي تعطي مما تأخذ.

وإذا عُدنا إلى الصلاة، نجد أن انقطاع الشركة بين الإنسان والله ظاهرٌ تماماً في الأريوسية، فلو تصوَّرنا أن الشركة تمرُّ من خلال وسطاء لا تربطهم بالله أية علاقة؛ لأدركنا على الفور أن الصلاة تصبح واجباً أو فروضاً، وتدخل بذلك في دائرة الناموس، وتصبح واجب الطاعة يؤديه الإنسان خوفاً ورهبةً. وحتى الحب نفسه، يتجمد عند الرضى والامتنان، ولا يدخل بالمرة من باب المعرفة الشخصية بالخالق. أما في الأرثوذكسية، فالصلاة تتحول من علاقة خضوع الخوف، إلى علاقة خضوع المحبة، وتتحول من ألفاظٍ تقال إلى برنامج نمو عقلي وروحي ونفسي، يبدأ بالميلاد ويصل إلى ما بعد يوم الدينونة.

فقد أغلق التجسُّد الفجوةَ التي كانت قائمة بين الفكر والوجود، والكلمة والحياة. فمنذ أن صار الابن الكلمة إنساناً، صار الفكر يطوِّر الوجود وصار الوجود هو الضابط لاتجاه ومسار الفكر. وباتحاد اللاهوت بالناسوت، صارت الكلمة ليست ألفاظاً تعبِّر عن الخيال وأماني الإنسان، بل صارت الكلمة هي الأداة التي تكشف عن الواقع. وإذا "صار الله انساناً لكي يصبح الإنسان إلهاً"(تجسد الكلمة، ف ٥٤)، فإن الكلمة تجد مكانها ليس في عالم الخيال، بل في الحياة والواقع الذي أصبح يفوق الخيال.

وهكذا نرى كيف نقلت الليتورجيات، ذلك كله، وبشكلٍ خاص الليتورجية القبطية التي تعكس التقوى الأرثوذكسية الشرقية. فالليتورجيا هي حياة الابن المتجسد وقد تحولت إلى تسبيحٍ وصلاة. يدخل المصلي في الأعياد وفي أيام الآحاد لكي يجد أنه أمام البناء الذي بناه الرب يسوع المسيح. فالاجتماع الكنسي حسب العادة الرسولية، يتم يوم الأحد أو يوم القيامة أو يوم الرب أو يوم قيامة الرب. والبحث التاريخي عن أصل الاجتماع الكنسي وعلاقة السبت بالأحد قد تجاهل لفترةٍ طويلة أن المسيح له المجد لم يلغي السبت، وإنما أضاف إليه الأحد. والسبت لا يمكن إلغائه بالمرة، فهو يوم راحة الخليقة، وهو حسب شرح رسالة العبرانيين، يخبر بالراحة الآتية، ليس تلك التي أعطاها يشوع بن نون، بل يشوع الحقيقي ربنا يسوع المسيح. ولذلك، فراحة الخليقة تكمل

بالقيامة والدخول إلى أرض الموعد الحقيقية، أي اورشليم السمائية. ويوم الأحد هو أيضاً يوم العنصرة، وحضور الروح القدس في ذات اليوم الذي قام فيه الرب، كَشَفَ للآباء معلمي البيعة، ليس فقط عن واحدية عمل الثالوث، بل أيضاً عن أن القيامة هي روح الحياة الذي فاض من الآب بالابن، ومن خلال الروح القدس حسب تعبير الآباء جميعاً. ولذلك يتم تقديس الزمان وليس التعدي عليه أو اهماله، لكي يصبح الزمان خادماً للأبدية، وتدخل أيام السنة في الدورة الطقسية أو الليتورجية، ليس من أجل خلق نظام طقسي، وهو في حد ذاته سهلٌ ولا يحتاج إلى تجسُّد الرب أو حضور الروح القدس، وإنما لكي يتحول الزمان كله إلى ما يقال في الليتورجية: "هذا هو اليوم الذي صنعه الرب". بل ولكي يصبح الزمان، ليس الفاصل بين عمل الله القديم الأبدي، بل البُعد الواضح الذي يتحقق فيه عمل الله. لقد دخل ابن الله التاريخ، ودخل الحياة الإنسانية متجسداً ووحَّد في ذاته الزمان والأبدية؛ لأنه جمع السماء والأرض في شخصه الإلهي الإنساني.

وكيف يمكن لنا أن نقف على الأرض ونخاطب الأزلي نحن الزمانيين، إلاَّ لأن الثالوث قد فَتَحَ لنا أحضانه الأزلية، وجاء بالخليقة وبالزمان من خلال الابن وانسكاب الروح القدس لكي تحل في حضن الآب ممجدةً ظافرةً فيه، ولكي يسري هذا المجد والظفر رويداً رويداً حتى تقترب الساعة التي يتوقف فيها الموت والفساد، وتتحرر خليقة الله بالقيامة العامة. فالصلاة هي رؤية وخميرة الحياة الجديدة التي قال الرب عنها إنها تخمِّر العجين كله، وتسري هذه الخميرة في هدوءٍ، ودون ضجيج، حتى يصبح الدقيق كله وقد تشبَّع بالخميرة، وصار أهلاً للنار لكي يتحول إلى خبز الله.

الفصل السادس

الليتورجيا،
واستيعاب درس التصدِّي للبِدع

نعتذر للقارئ عن هذه الجولة التاريخية، والتي حاولنا فيها على قدر الإمكان تجنُّب اقتباس نصوص من كتابات الآباء، حتى لا يتحول الموضوع إلى دراسة للبدع نفسها. فالصلاةُ كما تقدَّم لنا في الليتورجية، كانت من العلامات الأساسية التي كشفت طريق الحق أمام أجيالٍ متعاقِبة من المسيحيين الذين تمسَّكوا بالليتورجية؛ وبالتالي تجنَّبوا البدع التي سقط فيها فلاسفةٌ ورجالٌ أذكياء كان لديهم المنطق والفلسفة والذكاء، ولم تكن لديهم الليتورجية، وبالتالي لم يفهموا حقيقة الصلاة. فالصلاة كما نرى هي حياة ربنا يسوع المسيح نفسه الذي حوَّل الحياة الإنسانية التائهة في بحار الشك والخيال، إلى حياةٍ حقيقيةٍ تأخذ أصلها وغايتها من الله نفسه.

أولاً: لو كان الإنسان روحاً محبوساً في الجسد الترابي حسب زعم الغنوسية، فما هو دور الصلاة؟ وطالما أن المعرفة هي طريق الخلاص، فلماذا يصلي الانسان؟ وطبعاً ليس من الضروري أن نبحث عن الكائن الذي يصلي إليه الغنوسي، فذلك لا مجال له هنا، لأن النسك ونظام تناول الطعام يأخذ المقام الأول، وتفصل الغنوسيةُ الصلاةَ عن النسك، وبالتالي تصبح الصلاة هامشيةً لا قيمة لها بالمرة؛ لأن تطَّلُع الإنسان الغنوسي إلى

الخروج من الجسد هو غاية ما يطمع فيه الإنسان. وانفصال المعرفة عن الصلاة وسيادة النسك الغنوسي ظاهرٌ بكل وضوح في الكتابات الغنوسية التي وصلتنا، لا سيما مزامير ماني، وبرديات نجع حمادي وغيرها. فالقارئ يجد نفسه في بحرٍ لا قرار له من مصطلحات وأسماء ومراتب روحية لا علاقة لها بالحياة الإنسانية، بما فيها من ألم ومعاناة ومرض وموت، بل لا تربطها بالكون أية رابطة؛ فقد قضت الغنوسية على الخليقة المادية باعتبارها من عمل إله الشر، ولذلك اختفت صلوات الشكر على الطعام، ولم يعد الإنسان هو كاهن وملك الكون، يحوّله بالصلاة والعمل إلى تقدُمة، بل تحوَّل هو إلى سجينٍ يطلب الفرار ويسعى إليه بكل الوسائل.

وهنا يمكن أن نرى كيف حفرت الغنوسية حفرةَ موتها؛ لأن الدين أو المذهب الذي يعزل الحياة اليومية عن الوقوف أمام الله، إنما يسعى إلى قبره بكل سرعة. لكن الآفة الحقيقية لم تكن في ذلك فقط، بل امتدت إلى العالم الروحي نفسه، حيث فقدت الغنوسية الاتجاه، أي صارت مثل التائه في صحراء بلا خريطة وبلا ماء، بل وبلا هدف، فالعالم الروحي هائلٌ، ولذلك فهو يحتاج إلى طريقٍ وإلى خريطة وإلى غذاء. وذلك كله، أعطاه تجسُّد الكلمة وحياته على الأرض وموته وقيامته، وهذا ما رفضته الغنوسية، ولذلك يقدِّر علماء التاريخ الكنسي عمر الغنوسية بحوالي ٣٠٠ سنة حفرت فيها قبرها بيدها.

ثانياً: ولكن ماذا عن الأريوسية، وهي لم تنكر إنسانية المسيح ولا موته وقيامته؟ والجواب الواضح هو أن إنسانية المسيح وحدها بدون أُلوهيته، تعني الدخول تحت نير الناموس، وبالتالي تفقد الصلاة دورها تماماً. لأن الإنسان هنا يصلي في إطار ما يسمح به الناموس، بل وفي حدود ما يشترطه؛ ولذلك لا يكون هناك فرقٌ جوهري بين الناموس والصلاة، كلاهما مرتبط بالآخر، الصلاة في الأريوسية بلا مستقبل؛ لأن الإنسان قد أُغلق عليه في أبعاد الزمان. والأبدية لا تدخل الزمان إلاَّ بالتجسد. والمستقبل لا يتصل بالحاضر أو بالماضي إلاَّ عن طريق مَن يملك القدرة على خلق هذا الاتصال، وهو ذاك الذي قيل عنه: "يسوع المسيح هو هو أمس واليوم والى الأبد". فهو ليس فقط الاله الحي الذي يجمع كل شذرات الزمان في يده، بل هو أيضاً الإله المتجسد الذي ولِدَ في الماضي

من العذراء وصُلِب على عهد بيلاطس البنطي، ولكنه قام لكي يجمع أبعاد التاريخ والزمان في وحدةٍ مع الأبدية.

وعندما تفقد الأريوسية الإيمان بوساطة الابن المتجسد، بالتالي تفقد الدعامة الحقيقية لحياة الصلاة؛ **لأن وساطة الابن أو "شفاعته"، حسب تعبير العهد الجديد نفسه، هي حضور المخلِّص في الزمان والأبدية معاً حضوراً واحداً؛ لأنه الإله المتجسد. وهي أيضاً حضور المخلِّص مع الإنسانية ومع الله في شخصٍ واحدٍ. وهي أيضاً انحدار الحياة الغالبة السمائية نحو الحياة الأرضية الميتة؛ لكي تُحيي الخليقة التي يحبها الله منذ الأزل وتخلص وترجع إلى الله في الوسيط والشفيع، ربنا يسوع المسيح.**

وهكذا، كما فقدت الغنوسية علاقتها بالخليقة؛ لأنها من صنع إله الشر، فقدت الأريوسية علاقتها بالخليقة؛ لأن الله لا يتنازل للاتصال بها، بل عجزت الأريوسية عن تقديم صلوات ليتورجية، وهذا العجز الظاهر بكل وضوح، إنما يرجع مصدره الحقيقي إلى عدم اهتمام الأريوسية بالصلاة؛ لأن حياة المسيح كإنسان أو كمخلوق حسب الأريوسية لا تصلح لأن تكون مرقاةَ التقدم نحو الله، فهو واحدٌ مثلنا لا يملك إلاَّ أن يكون متقدماً عنَّا في بعض الأمور. هو مثل بطلٍ سريع الركض، وعلى باقي الأبطال أن يتبعوه. وهو مثلنا يناضل من أجل الاحتفاظ بالطاعة والأمانة، وينال معرفته بالآب شيئاً فشيئاً.

وهكذا، جرَّدت الأريوسية المسيحيةَ من الحياة الجديدة الآتية من الله، ومن القوت السماوي الذي يُوهَب في الإفخارستيا، وحوَّلت الإنجيل إلى دعوةٍ اجتماعية وفلسفية أخلاقية تُناسِب الأقوياء، ولا مكان فيها للضعفاء والخطاة والساقطين. ومع أنه يلزمنا مجالٌ أكبر لكي نشرح فيه كيف فقدت الأريوسية كل إمكانيات الكلام، حتى مجرد الكلام عن النعمة، إلاَّ أننا نكتفي في الوقت الحاضر بالإشارة إلى أن منهج الأريوسية – بإنكارها التجسد– لم يكن فقط العودة إلى العهد القديم، بل هو أيضاً فصل الصلاة عن النعمة، وفصل الكلمة عن الحياة، وفصل الخليقة المنظورة عن غير المنظورة. ذلك؛ لأن الكلمة المتجسد هو الذي جعل الصلاةَ طريقاً للنعمةِ، وحوَّل الكلمة من مجرد نطقٍ إلى

نطقٍ بالحياة؛ لأنه هو مصدر الحياة، وقد جمع في ذاته، ووحَّد في حياته، السماء والأرض .. كل ذلك بسبب اتحاد اللاهوت بالناسوت..

بل، وأكثر من ذلك، حصرت الأريوسية الإنسان في كيانه المخلوق، وحجبت عنه التشبُّه بالله، وبالتالي فقدت الصلاةُ غايتها؛ لأن غاية الصلاة أن يصبح الإنسان ابناً بالابن وفي الروح القدس، ينادي الآب بصوت الروح القدس: "أبَّا أيها الآب" (غلاطية ٤: ٤).

الفصل السابع

الليتورجية،
ومراحل تجديد الخليقة

من أعمق الدروس الروحية واللاهوتية التي تمارَس في الكنيسة القبطية، طقس أسبوع البصخة، حيث تحرص الكنيسة على غلق الهيكل بعد قداس أحد الشعانين، وإقامة كل الصلوات في خورس الموعوظين .. ذلك أننا لا ندخل الهيكل إلاَّ بسبب القيامة، فهي التي أعطت للترتيب الكنسي شرعية وجوده .. بل يحرص الطقس أيضاً على أن يقام قداس خميس العهد في الهيكل، مع حذف الإشارات الخاصة بالقيامة، حتى في قانون الإيمان وأجزاء أخرى من القداس مثل صلاة الصلح والمجمع .. والتفسير الشائع لهذا الترتيب هو أن المسيح لم يُصلَب بعد، ولم يقم، ولذلك لا تقال هذه الأجزاء .. هذا صحيح .. لكن الحذف له معنى آخر أعمق بكثير ... فهو يأتي لكي يؤكد لنا أن ما نمارسه في الكنيسة من طقوس، إنما هو مستَمَد من حياة ربنا يسوع المسيح ومن الروح القدس .. ذلك أن الصلوات والطقوس، إنما هي تنبع من حياة والآلام وموت وقيامة ربنا يسوع المسيح الكلمة المتجسد .. ولكن الكتب الطقسية والشرح الموجز الذي تركه علماء الكنيسة القبطية لا يذكر إلا أن الطقوس رموزٌ للتعليم وتقوية الذاكرة، أو أننا نفعل هذا وذاك لكي نتذكر ذلك المعنى، وكأن المقصود من الطقس هو عدم النسيان، ولكن الطقس جزءٌ من الصلاة، بل بدونه يتعذَّر علينا أن نفهم الكثير من الصلوات، والذين

يقولون لنا إنه اشتراك الحواس الخمس في الخدمة الليتورجية، هم أيضاً على صواب، لكن الأمر أعظم من أن يكون مجرد اشتراك الحواس الخمس. لنأخذ مثلاً السجود .. طبعاً السجود عبادة .. وكل الديانات تعلِّم سجود الإنسان لله .. ولكننا نعلم أن السجود ممنوع تماماً أيام الآحاد إلاَّ عند استدعاء الروح القدس، وهو ممنوع أيضاً في أيام الخماسين وبعد التناول. إذاً الأمر أعمق من أن يكون السجود مجرد حركة يتذكر فيها الإنسان أنه تراب عندما يلتصق بالتراب، ولذلك يقول العالم القس سمعان بن كليل في كتاب "حكمة الآباء":

> "اعلم أيها الحبيب أن السجود هو ثلاثة أنواع: سجود العبادة الذي يقدِّمه العبد لسيده. وسجود التكريم الذي شاع في عادات الأُمم. وسجود التسبيح الذي تعلِّمه الكنيسة الجامعة. وسجود التسبيح هو بالروح القدس الساكن فينا، وبالحق، حسب قول الرب نفسه: "الساجدين للآب يسجدون له بالروح القدس وبالحق"، أي بالابن الوحيد الذي قال: "أنا الحق". أمَّا كيف نسجد بالروح؟ لأن الروح يكشف لنا أعماق الله، ولذلك نسجد له بخوفٍ ورعدةٍ. أما بالحق؛ فلأن الابن الكلمة المتجسد، سجد أثناء الصلاة وعلَّمنا أن نسجد للآب معه في البستان عندما سجد وصلى معنا ولأجلنا، فأدخلنا إلى رتبة سجود البنين، وهو سجود الحق، أي سجود الابن الكلمة المتجسد للآب الحق. وسجودنا هو قبولٌ لآلام ربنا يسوع المسيح، قبولُ الأحرار وليس خضوع العبيد؛ لأن خضوع المحبة ليس مثل خضوع الخوف. ومَن يسجد برعدة الخوف، ليس كمن يسجد برعدة المحبة التي ترى ما لا يراه الخوف. وخشية المحبة هي خشية الحكمة، أما خشية الخوف فهي خشية توقُّع العقاب" (الباب الثالث – الرأس الأول).

ولذلك عندما يقول الشماس قبل استدعاء الروح القدس: "اسجدوا لله بخوف ورعدة"؛ يسبِّح الشعب الله: "نسبِّحك، نباركك، نخدمك، ونسجد لك". ولعل هذه الكلمات كانت في فكر هذا العالم الذي ميَّز بين سجود العبيد وسجود التسبيح.

فسجود التسبيح هو سجود البنين، وهو سجود الشكر على هبة الحياة الأبدية وعلى نعمة الملكوت الأبدي. أما العبد فهو يسجد لمن لا يعرف، ولمن يقبل أحكام الشريعة التي ليس فيها سوى هبات أرضية.

أما الابن، فإنه يسجد بالروح كما قال رب المجد للسامرية، وسجودنا بالروح هو سجود من نال استعلان الآب كآب، ولذلك يسجد سجود المحبة، سجود من يعرف أبوة الله ويأتي إليه بكل خشوع؛ لأن عطية "التبني" تزرع فينا "الخشية"، لا رعدة العبيد. ونداء الشماس: "اسجدوا لله بخوفٍ ورعدةٍ"، يعبِّر عن حالة مَن عاين عظمة إنعام وصلاح الله ووجد نفسه في محبة الله الفائقة التي يقول عنها القداس الغريغوري: "ليس شيءٌ من النطق يستطيع أن يحد لجة محبتك للبشر"، كما لو كان واقفاً على شاطئ البحر ورأى موجةً عارمةً آتيةً لا يقف أمامها حائلٌ أو عائق، عندئذٍ يدرك أن محبة الله الآب أعظم من كل أمواج البحر مجتمعةً.

فالابنُ، إنما يسجد بالروح؛ لأنه وُلِد بالروح والماء ميلاداً جديداً فتح لنا ينابيع الحياة السمائية، ونال مسحة يسوع فصار مسيحياً أو ممسوحاً مثل الرب الذي مسحنا فيه (راجع القديس أثناسيوس، ضد أريوس ٢: ٤٧)، فنال بذلك أن يقول بالروح: "أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤ – ٦). ولولا مسحة الروح التي فينا لَمَا صار لنا دالة البنوة التي تجعلنا نصرخ: "أبانا الذي في السموات ...". وقد أعلن لنا الرب يسوع هذه الأبوة، فصار اسم الآب هو الاسم الأعظم الذي أشار إليه الرب نفسه في صلاته الختامية، إذ قال: "أنا أظهرت اسمك للناس ..." (يو ١٧: ٦)، وطلب من الآب أن يحفظ الذين عرفوا أبوة الآب في اسمه، أي في شخصه وأقنومه الإلهي (يو ١٧: ٢٠)؛ لكي يجمع الآب كل أبنائه إلى واحد، أي يسوع (يو ١٢: ٣٠)؛ لأن إقامة الثالوث فينا بمحبته هو عمله الإلهي الفائق (راجع يو ١٤: ٢٣). وعهد الرب لنا هو عهدُ الآب الذي ختمه الآب في الابن بالروح القدس، ولذلك صار اسم الآب هو الاسم المميِّز لله.

وقد توقَّف علماء العهد الجديد حول ظاهرة يجادِل فيها شهود يهوه منذ نشأتهم

حتى الآن، وهي اختفاء اسم "يهوه" والأسماء العبرانية الأخرى الخاصة بالله من العهد الجديد، وحلول اسم "الآب" محل "ألوهيم – يهوه – إيل .. الخ". على أن هذا التغيير لم يكن بسبب انتقال الدعوة المسيحية من بيئة فلسطين العبرانية إلى الشتات والأمم اليونانية، بل بسبب الإيمان العميق بأن الابن نفسه لم يستخدم كلمة "الله" إلاَّ مرتين: المرة الاولى على الصليب، والمرة الثانية بعد القيامة، وفي كلتا المرَّتين كان يتحدث باسم الإنسانية. أما في خلال حياته بالجسد، وفي كل أحاديثه، وبشكلٍ خاص، العظة على الجبل، فقد كان اسم "الآب" هو الاسم الوحيد؛ لأنه الاسم الخاص الذي يبرز علاقة البشرية بالله، الذي أرسل ابنه متجسداً من العذراء. والاسم يُظهر العلاقة الجديدة ويؤصل الإنسانية في حياة صلاة جديدة تبدأ بالبدء الأزلي، "الآب":

"يا الله الذي ختمنا بختم البنوة بيسوع المسيح ربنا .." (صلاة قسمة القداس الكيرلسي).

والجديد هنا ليس اللغة، وإنما العلاقة الجديدة التي تستدعي لغةً جديدةً. ومرةً ثانية، جاءت الحياة، وجدَّدت الكلام البشري، وجعلت الحياةُ الجديدة، الكلماتِ القديمة حافلةً بمعاني جديدة. والعلاقة الجديدة قضت على نظام الصلوات الطقسي كما عرفته اليهودية، فقد اختفت المناسبات التي يجوز فيها الصلاة، وذلك بسبب الذي جاء وتجسد وأعطى الروح لينطق فينا: "أبَّا ايها الآب"، فجعل الزمان كله صلاةً؛ لأن الله قابِل الصلاة، اتَّحد بالطبيعة الإنسانية، فقضى على الفجوة التي حاول الطقس اليهودي أن يملأها، وأن يحتفظ بها. وميلاد المسيح من القديسة مريم بالروح القدس، هو الذي جعل اللسان البشري ينطق بكل لغات البشر، ويدعو الله في المسيح "أبَّا"، ويجعل لتلك الكلمة مدلولاً حقيقياً.

وميلاد المسيح من البتول، وبدون زرعِ بشرٍ، يعني في حقيقة الأمر أن بداية تجديد البشرية، هو في تجديد الصلاة نفسها. وهنا لا ينطبق الكلام أو اللفظ على الحقيقة فقط؛ لأن الإنسان صار قادراً على أن يقول لله: "أبَّا"، ولكن يتجاوز التطابق

كل أشكال الصلوات في العهد القديم. فقبل التجسد كان الإنسان يصلي لله، أو إلى الله، ولكن بعد التجسد، صار الإنسان يصلي "في الله"، والفرق هنا ليس بين "إلى" و "في"، أي أنه ليس فرقاً في حروف الجر أو في اللفظ، وإنما هو فرقٌ في العلاقة التي تكوَّنت بسبب اتحاد اللاهوت بالناسوت في أحشاء البتول. وصلاتنا في الله تعني:

١– أننا في الله المتجسد الابن الكلمة، وهو رأس الجسد الكنيسة، الذي جمع في ذاته "أبناء الله المتفرقين"، وصار هؤلاء فيه وبالروح القدس، في الآب أيضاً. ونصوص العهد الجديد تفوق الحصر، ولعل أشهرها هو ما ورد في رسائل الرسول بولس، حيث تحتل حروف الجر "**في** المسيح" "**بـ** المسيح" المكان الأكبر من بشارة الرسول بولس بمركز البشرية الجديد.

٢– ونحن نصلي في الله؛ لأن الصلوات تقدَّم حسب كلمات الرب نفسه: "فيه إلى الآب"، فهو الذي "باسمه"، أو "في اسمه" تقدم الصلوات، حيث الاسم = الشخص، حسب المعنى المعروف والظاهر من أسفار الكتاب المقدس. وقدر أدركت الكنيسة القبطية هذه الحقيقة الرسولية الهامة، ولذلك أضافت على الصلاة الربانية عبارة: "بالمسيح يسوع ربنا" وتقال قبل الذكصولوجية. هذه الإضافة تظهر قبل المجمع المسكوني الأول ٣٢٥م وتعود إلى بدء المسيحية المصرية، فكل الصلوات التي تقدَّم "في الله"، هي الصلوات التي قال عنها الرب نفسه: "مهما سألتم (باسمي) من الآب فإني أفعله".

٣– والابن ليس فقط هو رأس الكنيسة والكاهن العظيم، بل هو أيضاً الذي أعطانا الروح القدس لكي ينطق فينا بالشفاعة التي تنير المعرفة لكي نعرف أسرار الله والخدمة التي نقدمها إليه. والروح القدس ينطق فينا حسب الصلاة الليتورجية:

> "ايها الرب العارف قلب كل أحد .. أنت تعلم أني غير مستحق ولا مستعد ولا مستوجب لهذه الخدمة المقدسة التي لك. وليس له وجه أن أقترب وأفتح فاي أمام مجدك المقدس .. امنحني أن أجد نعمة ومعونة ورحمة في هذه الساعة وأرسل لي من العلاء قوة لكي ابتدئ وأهيئ وأكمِّل كما يرضيك

خدمتك المقدسة .." (القداس الباسيلي، صلاة الاستعداد).

"أنت يا سيدنا اجعلنا مستوجبين بقوة روحك القدوس أن نكمل هذه الخدمة (القداس الباسيلي، صلاة ما بعد الاستعداد).

ومن الليتورجية أيضاً نعرف أن أحد أسماء الله هو "المناجي":

"قدوسٌ أنت يا ذا الخدمة، قدوسٌ أنت العظيم. قدوسٌ أنت المبارك. قدوسٌ أنت المناجي" (القداس الباسيلي، أسبسمس رابع واطس).

والمناجي هو الذي يدعو الإنسان ويناجيه، أي يطلبه. وخلف هذا الاسم الفريد، نرى ليس فقط رغبة المسيح في أن يدخل حياتنا ويشترك معنا في الوليمة: "هاأنذا واقف على الباب وأقرع إن فتح لي أحد أدخل وأتعشى معه" (رؤ ٣: ٢٠)، بل أيضاً تعليم الرسول عن شفاعة الروح القدس الذي ينطق فينا ونيابةً عنا سائلاً لنا الخيرات السماوية من الآب لكي تتجه عيوننا إلى الآب:

"شعبك وبيعتك يطلبون بك وإليك مع الآب قائلين ارحمنا يا الله .." (القداس الغريغوري).

الصلاة والمسحة الملوكية

كان الملوك والكهنة يُمسَحون في العهد القديم، وحمل كلٌّ واحدٍ منهم رسالةً خاصة في إطار التدبير الإلهي. هذه المسحة سبقت ودلت على مسحة المسيح التي نالها من الآب مباشرةً، فقد تُوِّجَ ملكاً على الخليقة بتجسده وموته وقيامته. وعلاقة الابن المتجسد بالروح القدس هو موضوع أشهى من العسل، فقد جاء الرب من السماء حاملاً معه علاقته الأقنومية بالروح القدس، علاقة أزلية تعلو على الزمان والمكان وعلى كل المقاييس. وحسب التدبير الإلهي، منحَ الابنُ هذه العلاقة الأزلية مع الروح القدس

للإنسانية، عندما قَبِلَ مسحة الروح القدس بعد صعوده من مياه الأردن. فالعلاقة الأزلية قبل التجسد يعبّر عنها التجسد، وهذا هو أحد المعاني الأساسية "للظهور الإلهي". وعندما مُسِحَ الابنُ المتجسد، كانت الإنسانية هي التي مُسِحَت فيه، حسب تعبير جميع آباء الكنيسة الجامعة. ولكن، ما هو الجديد، ألم تكن المِسحة تمارَس في العهد القديم؟ نعم، ولكن الذي يمسح الآن هو أقنوم الآب نفسه، والمِسحة هي أقنوم الروح القدس نفسه، وذلك لم يكن ظاهراً بهذا الوضوح في العهد القديم، كما أن الذين مُسِحوا ملوكاً كانوا يملكون الأرض، أما الذي مُسح، وهو ربنا يسوع المسيح، فهو يملك السماء والأرض معاً. والذين ينالون مِسحته الملوكية، إنما سوف يملكون معه الأرض "الودعاء يرثون الأرض" (متى ٥: ٥)، والسماء "ووارثون الله في المسيح" (رو ٨: ١٧). وهذا الملك إنما يظهر بشكل علني في الليتورجية، وتعبّر عنه طقوس الزواج والمعمودية والميرون أجمل تعبير، لا سيما في وضع الأكاليل على رؤوس المعمَّدين والمتزوجين، حسب صلوات الكنيسة القبطية وغيرها من كنائس الشرق.

وبمعمودية المسيح في الأردن تصبح الطبيعة الإنسانية طرفاً في العلاقة الأقنومية بين الآب والابن والروح القدس. فبالميلاد من مريم العذراء، صارت علاقتنا مع الابن ظاهرةً بوضوح بسبب اتحاده الاقنومي بالناسوت. أما في المعمودية، فقد صارت علاقتنا بالآب والروح القدس من خلال الابن المتجسد ظاهرةً بشكلٍ أفضل. وقد انعكس ذلك على الطقوس الكنسية وكافة الممارسات الليتورجية، بل والصلاة نفسها. ومن الضروري أن نلخِّص ذلك كما يلي:

١ – لا تمارِس الكنيسة الأرثوذكسية صلواتها بدون استدعاء الروح القدس. فكل الصلوات تحتوي على استدعاء واضح للروح القدس، من تقديس مياه المعمودية حتى رسامة رئيس الأساقفة، مروراً بكل الصلوات والطقوس. والسبب في ذلك معروفٌ من كتابات الآباء. فالروح القدس هو الذي يؤسِّس المملكة في هذا الزمان، والليتورجية هي دخول هذا الملكوت المسيحاني، والدخول لا يتم إلاَّ بالدعوة، والدعوة هنا يقدِّمُها الابن للبشرية لكي تدخل به إلى هذه العلاقة الملوكية؛ ولذلك تستدعي الكنيسة الروح القدس

لكي ينير ويطهّر الضمائر والعيون، ثم لكي يأخذ من المسيح ويعطي الكنيسة. والروح مَسَحَ الابن المتجسد، والابنُ الذي قَبِلَ هذه المِسحة هو الوسيط بين الكنيسة والروح القدس، ولكن هذه الوساطة تجعل "العريس" يقدم "العربون"، و "عطية الزواج" بالكنيسة، أي الروح القدس لكي ترى الكنيسة في عريسها كل ما تتمناه، وتملك معه في ملكه الأبدي الذي أسسه الروح القدس. هذا ما بشَّر به الرسول بولس، وما أفاض الآباء في شرحه، وما تعلن عنه صلوات قطع الساعة الثالثة، وطقس السجدة في بساطة شديدة. ويلاحظ القارئ الخبير بتاريخ الطقوس أن عيد الخمسين حسب الطقس اليهودي القديم، كان مناسبةً للاحتفال بنزول الشريعة على جبل سيناء، والطقس القبطي يحرص على وضع "مناقد" البخور؛ لأن الجبل الذي اشتعل بالنار قديماً، يشتعل الآن سِرّياً وبشكلٍ أجمل وفائق، حينما يصبح الروح القدس نفسه هو الشريعة التي توضَع في القلب حسب الوعد النبوي في أرميا ص ٣١. وهنا نرى أن نهاية خطوبة وزواج الرب بالكنيسة، هي أن تنال الشريعة، أي "كتاب العهد" الذي لا يُكتب حسب لغة وكلمات الناس، بل يُكتب عهداً أبدياً وعقدَ زواجٍ لا طلاق فيه، بل حتى خيانة الزنى والارتداد، تنال المغفرة حسب نبوة هوشع بعد أن كانت تعاقَب بالموت، وهو ما أراد الرب نفسه أن يؤكّده عندما أطلق سراح المرأة الزانية التي أُمسكت في ذات الفعل، مؤكِّداً أنه جاء لكي يقدّم الحياةَ لا الموت.

٢– وحلول الروح القدس على الرب في الأردن ليس هو فقط أصل استدعاء الروح القدس في صلوات الليتورجية، بل هو أيضاً سر تحول الصلاة المسيحية إلى مستوى أعظم بكثير من مستوى صلوات العهد القديم، رغم ما فيها من قداسة وحكمة وإلهام الروح القدس. فالصلاة في العهد القديم هي صلاةٌ موجَّهةٌ إلى الله، أما الصلاة في العهد الجديد فهي صلاةٌ "في الله". وهنا، وكما سبق وأشرنا، الروح القدس هو الذي يضع كلمات الصلاة المستمدة من حياة ربنا يسوع المسيح وموته وقيامته وعلاقته الازلية مع الآب والروح القدس، وبذلك تحوَّلت الصلاة إلى رؤية إلهية لِمَا هو في الله، وطلب أن ينتقل ما هو في الله ليكون هو الحياة والميراث الذي يوهَب للكنيسة.

ونستطيع أن ندرك عمق عطية الرب بالمقارنة بين القاعدة الطقسية في العهد القديم التي كانت تمنع كل مَن لم ينل الختان من الاشتراك أو الاحتفال بالفصح، وبين القاعدة الطقسية في العهد الجديد التي بمقتضاها لا يُسمَح لمِن لم يعتمد بالاشتراك في ذبيحة سر الشكر. هنا، الكنيسةُ لا تقلِّد المجمع اليهودي، وإنما لأن الذي لم ينل الروح القدس في المعمودية والمسحة لا يمكنه أن يدخل وليمة العشاء الملوكي، إذ لا يملك العبد أن يجلس مع الملوك ويأكل من طعام الملوك الذي لا يعرف عنه شيئاً.

والختان كان علامة العهد مع إبراهيم أب الآباء، وخروف الفصح هو وليمة الخلاص من الموت وقتل الأبكار والخروج من أرض مصر. وكما هو واضح، الفترة الزمنية بين الختان والفصح هي فترة كبيرة، بل إن الحدث الأول، أي الختان لا تربطه بالحدث الثاني، أي الفصح أية علاقة عضوية، نظراً لاختلاف الأشخاص والزمان والاحداث. أما في الكنيسة، فإن أسرار المعمودية والميرون والإفخارستيا، هي وحدة عضوية لا يمكن أن تنفصل، والعبرة ليست في الفترة الزمانية، ولا في تتابع الأسرار، وإنما العبرة أنها كلها تنبع من المسيح ربنا، من موته وقيامته ومعموديته في الأردن، ثم جسده ودمه، فهو الحاضر في الأسرار، يوحِّدنا به وبموته وبقيامته وبالروح القدس. وهنا يظهر أن الفرق الأكبر بين الكنيسة والمجمع، هو فرقٌ دقيقٌ جداً؛ لأن الختان والفصح أحداثٌ تاريخية ليس لها علاقة بالكيان الإنساني نفسه، أي أنها لا تمس الحياة الداخلية، وإنما تخلق الرابطة الاجتماعية والروحية بين أفراد شعب الله، وتنظم حياتهم. ذلك ما عبَّر عنه الرسول بولس وغيره من الآباء بأن العهد نُقِشَ على الحجر، وأنه كان قائماً على الحروف، أو الناموس؛ لأن العهد كان يهدف إلى تنظيم علاقة الشعب مع الله ومع أفراده .. ولكن عندما جاء الأنبياء برسالة التجديد وبالنبوة بالعهد الجديد الآتي، صار من الواضح أن كلمات العهد سوف تُكتب على قلب الإنسان، وأن العلاقة بين الأفراد لن تقوم على الممارسة الخارجية التي تنظم العلاقات العامة والاجتماعية، بل سوف تنبع هذه العلاقة من الداخل، من الكيان الجديد الذي يرى كل شيء برؤية أخرى مختلفة تماماً عن المجالات التي يحددها الناموس؛ لأنها رؤية الذي قال: "ليس لأحدٍ حبٌّ أعظمُ من هذا أن يبذل نفسه لأجل أحبائه".

وهنا، وكما سبق وقلنا، صارت المعرفة نابعةً من التحول الداخلي، وصارت وحدة الكلمات والطقس والحياة والاختبار ظاهرةً بوضوح؛ لأن الذي يعتمد ويُدهن ويتناول، يعرف بكل يقين أنه في عهدٍ أبديٍّ مع الثالوث، وفي وحدة لا يمكن أن تتجزَّأ فيها الكلمات والأفعال والسلوك والطقوس والحياة. ولاحظ، كيف يحرص الطقس على أن يردنا إلى صيغة التعميد عندما نرشم الصليب قبل بداية الصلاة.

الخلق من العدم، والخلق الجديد بالموت والقيامة

تشهد كلمات الرسول للحقيقة الفائقة التي جاء بها الإنجيل:

"لذلك اذكروا أنكم أنتم أيها الأُمم كنتم قبلاً حسب الجسد تُدعَون غرلةً من الذين كان لهم ختان الجسد الذي تصنعه يد الإنسان في الجسد وكنتم في ذلك الزمان بدون مسيح أجنبيين عن المواطنة والعهد والمواعيد التي أعطيت لإسرائيل، بل لم يكن رجاء في إله في هذه الحياة. ولكن الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم في ذلك الزمان بعيدين صرتم الآن قريبين بدم المسيح لأنه هو سلامنا الذي جعل الأمم واليهود واحداً ونقض حائط السياج المتوسط الذي كان يمنع دخول الأمم هيكل الله في أورشليم، وهو علامة العداوة بين الاثنين اليهود والأمم. ولكن الآن أبطل المسيح بموته وبجسده ناموس الوصايا وما يصاحبه من فرائض جسدية لكي يخلق اليهود والأمم في نفسه إنساناً واحداً جديداً، وبذلك يصنع السلام ويصالح الاثنين في جسده الواحد مع الله بالصليب وفي جسده الواحد يقتل العداوة" (أفسس ٢: ١١-١٥) (الترجمة العربية القديمة عن القبطية، مخطوطة في جامعة برمنجهام ق ١٣).

فالخلق الأول حسب كلمات صلاة الصلح:

"أيها الكائن الذي كان الدائم إلى الأبد .. الذي من أجل الصلاح وحده مما لم يكن كوَّنت الإنسان وجعلته في فردوس النعيم .." (القداس الغريغوريوي).

والفرق الضخم بين الإنسان والله، هو فرقٌ بين الكائن – الذي كان – الدائم إلى الأبد، وبين الذي لم يكن، ثم تكوَّن من العدم. ولذلك، عندما سقط الإنسان، تعذَّر على كل الخليقة، بما فيها الملائكة، أن تجدده وترده إلى حياته الأولى، أو رتبته الأولى؛ لأن الآتي من العدم لا يملك أن يجود بحياته ويقدِّمها نيابةً أو فداءً .. الخ. لأن الكائن الذي جاء مما لم يكن، يفقد حياته إذا حاول أن يعطيها لآخر، أي أنه ينتهي بالموت، وبالتالي كان العدم تحت أقدام المخلوق الأول، وهو ما شرحه القديس اثناسيوس في تجسد الكلمة، ويعبِّر عنه القداس بكلمة واحدة:

"منقذ حياتنا من الفساد" (القداس الغريغوريوي).

وقد أعاد القداس ذكر ذات الحقيقة بعد ذلك:

"من أجل تعطفاتك الجزيلة كونتني إذ لم أكن. أقمت السماء لي سقفاً. أظهرت لي شجرة الحياة. عرفتني شوكة الموت" (القداس الغريغوريوي).

فالفساد كما شرحه معلمنا أثناسيوس هو عودة الإنسان من جديد إلى حالته الأولى التي سبقت تكوينه. وكما هو ظاهرٌ هنا أن الله عرَّف الإنسان شجرة الحياة، ودعاه إلى الأكل منها، وفي نفس الوقت لم يهدد الإنسان بالموت كعقوبة، بل "عرَّفه شوكة الموت". وقد أبرز الشرق هذا الجانب دائماً، فهو يؤكد أن الله لم يقل في سفر التكوين إذا أكلت فسوف أُميتك، وإنما إذا "أكلت موتاً تموت". ولذلك، يقول القداس: "أنا اختطفت لي شوكة الموت". أما بتجسد الابن ربنا يسوع المسيح، فقد تم تجديد الصورة على نحوٍ آخر، وذلك بأن تحوَّلت الصورة من صورةِ مَن يقف بين الحياة والموت، إلى صورة مَن غُرِسَ في قلب الحياة والقيامة، أي ربنا يسوع المسيح نفسه.

ولاحظ هنا قوة الصياغة في صلاة التجنيز، وكما هو واضح، فالمناسبة هي الصلاة على إنسان رقد:

"بالحقيقة قد كمُلت كثرة تحننك الغزير، ولم يبطل قولك يا ضابط الكل أبو مخلصنا وإلهنا وملكنا يسوع المسيح حياتنا وعوننا وشفائنا ومنقذنا، يسوع ربنا. الذي جاء وأنقذنا من فخاخ الموت القاتل **بموته المحيي**، وجدد لنا الحياة دفعةً أخرى بقيامته من الأموات، وأعطانا عربون القيامة، **والشوكة المرة** سحقها بالصليب، وهو غير مستحِ مما قد حلَّ به لأنه صار في التواضع والخلاص" (صلوات تجنيز النساء الكبار).

وتقول الصلاة بعد ذلك:

"لأنك لم تخلق الإنسان للشرور بل للخيرات ..".

فالله لم يخلق الإنسان ليموت، بل خلقه للحياة:

"والموت الذي دخل إلى العالم **بحسد إبليس**،

هدمته **بالظهور المحيي الذي لابنك الوحيد**.." (القداس الباسيلي).

وتجديد الحياة دفعةً أخرى، وغرسها بالقيامة في الحياة الأبدية، تعبِّر عنه قسمة سبت الفرح، وهي قطعة لاهوتية فخمة، بدقةٍ شديدةٍ:

"يا يسوع المسيح ذا الاسم المخلِّص الذي بكثرة رحمته نزل إلى الجحيم، وأبطل عز الموت .. أتيت يا سيدنا وأنقذتنا بمعرفة صليبك الحقيقية، أنعمت لنا بشجرة الحياة التي هي جسدك الإلهي ودمك الحقيقي".

وهكذا، عندما فشل الإنسان الأول في أن يأكل من شجرة الحياة .. جاء الإنسان آدم الثاني الرب من السماء لكي ينعم لنا بشجرة الحياة: الجسد الإلهي والدم الحقيقي. لكن أهم ما يجب أن ننتبه إليه الآن هو دور القيامة والصعود، حيث يبدأ كهنوت المسيح بدخوله إلى "موضع قدس الأقداس الموضع، الذي لا يدخل إليه ذو

طبيعة بشرية. وصار سابقاً عنا صائراً رئيس كهنة إلى الأبد على رتبة ملكي صادق"؛ لأن صلاة القسمة تؤكد بعد ذلك تقديم الجسد والدم.

الفصل الثامن

الليتورجية، والكتابَ المقدس

كيف تشرح الليتورجية الكتاب المقدس؟

تفسير الكتاب المقدس بعهديه هو في حقيقة الأمر موضوعٌ أكبر من أن يعالَج في كتابٍ واحد، مهما كانت قدرة ودقة الباحث. لكن صعوبة الكلام عن الموضوع ليست هي المانع الأكبر الذي لا يمكن اجتيازه. وكل النظريات والمؤلفات اللاهوتية التي وضعت قواعد التفسير وتاريخ التفسير .. الخ، لم تلقِ نظرةً دقيقةً فاحصةً على كيفية استخدام نصوص الكتاب المقدس في صلوات الكنيسة. وحتى المؤلفات الحديثة التي لصقت بالعلامة أوريجينوس ومدرسة الإسكندرية اسم "التأويل أو التفسير الرمزي"، تجاهلت الأسباب الرعائية والروحية، ومنها موضوع الصلاة الذي أدَّى إلى تبني التفسير الرمزي؛ حتى يرتفع الإدراك لمعنى الأحداث إلى رؤية ومعاينة التاريخ القديم، أي تاريخ العهد القديم في نور الكلمة المتجسد وقيامته.

وحقيقة الأمر أن الكتاب المقدس يُقرأ ويُسمع في اجتماعات الكنيسة، أي أنه كتاب الصلاة الأول في حياة الكنيسة الأولى، وبالتالي لا يمكن فهمه بشكلٍ صحيح إلاَّ من خلال الخبرة الليتورجية التي تتكون في الصلاة والأسرار. وخروج تفسير الكتاب المقدس خارج الليتورجية المسيحية بشكلٍ عام، هو الذي أضعف علاقة الكتاب المقدس

بالصلاة وبالأسرار، وخلق لنا مشكلة علاقة كلمة الله بالأسرار..

وفي الليتورجية القبطية وحدها، دون غيرها، نجد أن اسم الكتاب المقدس في الكثير من صلواتنا هو "أنفاس الله". فإذا كانت كلمات الله هي أنفاس الله، والاسم مأخوذٌ من نَفَس أو نسمة الحياة، أو عطية الحياة التي توهَب بالروح القدس، وجد المصلّي أنه أمام "كتاب الحياة"، وأن الكلمات هي هبات الله الحية لكي تحيا النفس. وعلينا أن نلاحظ أن أحد مميزات الليتورجية القبطية الأرثوذكسية هو وفرة استخدام كلمة "الحياة". لاحظ ماذا تقول الأوشية عن الحياة:

> "اسمك القدوس هو الذي نقوله؛ فلتحيا نفوسنا بروحك القدوس، ولا يقوى علينا نحن عبيدك موت الخطية، ولا على كل شعبك" (القداس الباسيلي).

فالحياة تتدفق كعطية دائمة من الله، وتوهب لنا بوفرة في الكلمة، وفي الأسرار، وفي الصلاة، وفي شركتنا مع الثالوث. وهذه في الواقع ليست مصادر متعددة متباينة، بل حياة واحدة توهَب في أشكال ودرجات مختلفة حسب قدرة الإنسان وفهمه وتقدمه. ولذلك السبب، يتعذَّر علينا أن ندرس موضوع الفداء والكفارة وما إليه دون أن نرى ماذا تقول الليتورجية.

ما هو الأصل اللغوي لكلمة كفارة في الكتاب المقدس؟

قبل أن نفحص الليتورجية، نحتاج إلى حل التضارب اللغوي والغموض الذي أحاط بكلمة "كفارة"، ذلك أننا في مرحلة استخدام اللغة العربية، ومنذ القرن العاشر حتى القرن العشرين، لم نلتزم بعد بأُسلوب البحث الذي وضعه علماء الكنيسة القبطية في القرن الثاني والثالث عشر، وهو التعريب عن اليونانية والقبطية، مع الاحتفاظ باللغات القديمة. وفي حقيقة الأمر، التضارب اللغوي عندنا هو حديثٌ جداً، ولكن العودة إلى أُسلوب تعريب علماء القرن الثاني والثالث عشر، سوف يؤكد لنا أننا لم نلتزم عند التعريب بالبحث عن أصل الكلمة من اليونانية؛ لأننا استخدمنا اللغات الأوروبية دون العودة إلى

اليونانية. لاحظ على سبيل المثال كيف تُترجم كلمة "كفارة" إلى اللغة الإنجليزية، وهي في اليونانية Ηιλασμοσ:

atonement, atoning sacrifice, expiation, propitiation, remedy for defilement, sacrifice for sin.

وتضارُب هذه الكلمات واضح، ومصدره في حقيقة الأمر، عجز اللغة اللاتينية عن استيعاب معنى الكلمة اليونانية، ولذلك تجد أن كلمة Ηιλασμοσ تترجم الى:

deprecatio, exoratio, placatio, propitiatio.

وهذه الكلمات هي كما يعرف الذين درسوا اللاتينية، هي كلمات مستخدمَة في القانون الروماني، أكثر من استخدامها في الصلوات والكتاب المقدس. أمَّا في اليونانية، فإن معاني الكلمة تظهر على هذا النحو:

١– الفعل Ηιλασκεστηαι استُخدم ١١ مرة في العهد القديم، ومرتين فقط في العهد الجديد في لوقا ١٨: ١٣: "اللهم ارحمني أنا الخاطئ"، وفي عبرانيين ٢: ١٧ حيث تقول الرسالة في المسيح: "رحيماً ورئيس كهنة أميناً في ما لله حتى يكفِّر عن خطايا الشعب". إذن، لغوياً وحسب استعمال الكتاب المقدس نفسه، لا يعني الفعل التكفير فقط، بل أيضاً الرحمة كما سنرى بعد ذلك.

٢– الاسم Ηιλαστεριον يظهر ٢٧ مرة في العهد القديم، منها ٢٢ مرة في الكلام عن غطاء الرحمة أو *Mercy seat* الذي كان يغطي تابوت العهد (راجع عبرانيين ٩: ٥). **وهكذا نرى أن الاسم "كفارة" لا يرتبط بالعقوبة في العهد القديم بالمرة، بل بالرحمة.** في العهد الجديد يظهر الاسم مرتين فقط رومية ٣: ٢٤–٢٥ وعبرانيين ٩: ٥ وحسب نص رومية ٣: ٢٤–٢٥: "متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السابقة

بإمهال الله". وهنا الذي قدَّم "الكفارة" هو الله، وليس الابن المتجسد، ولا وجود بالمرة لنصٍّ واحدٍ، أو إشارة واحدة تقول إن الابن قدَّم كفارةً للآب في العهدين القديم والجديد.

٣- استخدم القديس يوحنا الاسم Ηιλασμοσ مرتين في الرسالة الأولى، وبالذات في ١ يوحنا ٢: ٢ - ٤: ١٠ ويلاحظ القارئ أن ١ يوحنا ٤: ١٠ تقول بكل وضوح: "الله محبة. بهذا أُظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به. في هذا هي المحبة ليس أننا نحن أحببنا الله، بل إنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة Ηιλασμοσ لخطايانا". ولا مكان هنا للعقوبة أو مصالحة العدل مع الرحمة، وإنما الكلام صريحٌ وقاطعٌ عن أن الكفارة هي إرسالية الابن إلى العالم، والذي أَرسَلَ هو الآب، وبالتالي لا مجال لكلام، أي كلام عن إرضاء العدل الإلهي، أو إيفاء حقه!!

"إن أخطأ أحدٌ، فلنا شفيعٌ عند الآب يسوع المسيح البار، وهو كفارة لخطايانا" (١ يوحنا ٢: ٢). وهنا نرى بكل وضوح أن الكفارة هي جانبٌ هام من شفاعة المسيح، وهي ليست شفاعة التوسل، كما يظن البعض؛ لأن كلمة شفيع في هذا النص هي الكلمة اليونانية Παρακλετοσ أي بارقليط - محامي - معزّي - مدافع. وشفاعة المسيح هنا تنفي كل شبهة عن انتقام الآب أو إدانة الآب للابن، أو صبِّ جام غضب الآب على الابن، ذلك أن الشفاعة، مهما كان نوعها، ليست هي التي تزيل الغضب أو تقدم للغضب ما يجعل هذا الغضب يهدأ؛ لأن الغضب الذي يطالِب بالعقاب ثم يعاقِب فعلاً بالموت، هو غضبٌ لا تجدي معه الشفاعة، بل هي لا تجوز أصلاً، طالما أن العقاب سيحدث، بل وسيتم. ولو تصوَّرنا أن الابن يجهل إرادة الآب، ويحاول جاهداً أن يستميل قلب الآب إليه بالشفاعة الكفارية أو بالموت على الصليب، نكون قد حكمنا على أنفسنا بأننا وقعنا في البدعة الأريوسية التي تنكر على الابن أزليته، والتي تقول أيضاً بأن الابن لا يعرف إرادة الآب.

وهنا، نكون قد وصلنا إلى نقطةٍ هامةٍ وخطيرة، لا يجب أن يتوقف عندها

البحث، وهي: هل يوجد في الكتاب المقدس إشارة أو لمزة أو عبارة تؤيد أن الابن قد دفع الثمن للآب، وأنه دفعه كاملاً؟

والرد على هذا السؤال واضحٌ عبر صفحات الكتاب المقدس نفسه، ولكن لأننا لا نقرأ الكتاب المقدس كما هو، بل نقرأه كما يشرحه لنا الذين نتصور أنهم درسوه، يتسرب إلينا هذا التصور الخطير بأن الابن دفع الثمن للآب .. ولأن هذه العبارة الخطيرة لم ترد في الكتاب المقدس بالمرة، وجب علينا أن نتوقف عندها طويلاً. صحيح أنه يوجد كلام عن الشراء، وأننا اشتُرينا، ولكن غير صحيح أنه يوجد كلام عن دفع الثمن، وأن الذي دفع هو الابن.

هل دفع الابنُ الثمنَ حقاً؟

حسب نص العهد الجديد نفسه لا ترد عبارة "دفع الثمن"، وهنا نجد أن الكلمة "اشتُريتم" تظهر عند الرسول بولس، وعلى سبيل المثال: "لأنكم قد اشتُريتم بثمن، فمجِّدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله" (١ كور ٦: ٢٠). وفي نفس الرسالة يقول الرسول أيضاً: "لأن مَن دُعيَ في الرب وهو عبدٌ، فهو عتيقٌ للرب. كذلك أيضاً الحر المدعو هو عبد للمسيح. قد اشتُريتم بثمنٍ، فلا تصيروا عبيداً للناس" (١ كور ٧: ٢٢) (راجع ايضاً غلا ٣: ١٣ و ٤: ٥ – ٢ بطرس ٢: ١ – رؤ ٥: ٩ – ١٤: ٣). وقبل أن ندرس هذه النصوص علينا أن نسجِّل هنا ثلاث ملاحظات هامة:

أولاً: لا تذكر هذه النصوص أن الابن دفع الثمن للآب، حيث لا تذكر النصوص بالمرة أياً من الآب أو الابن أو الروح القدس.

ثانياً: لا توجد إشارة إلى أن الثمن هو دمُ المسيح، سوى في (رؤيا ٥: ٩)، وحتى هذا النص لا يذكر أن الثمن دُفِعَ للآب، بل يقول صراحةً: "لأنك ذُبِحتَ واشتريتنا لله بدمك"، وبالتالي يوجد فرقٌ دقيقٌ وهائل بين مَن يشتري لله، ومن يشتري مِن الله. فالابن ذُبِحَ واشترى البشرية لله، ولو كان الثمن قد قُدِّم للآب، لقال النص: "لأنك ذُبحت

واشتريتنا من الله"، ولكن حيث أن النص يقول: "اشتريتنا لله"؛ تسقط تماماً كل التعابير الخاطئة عن دفع الثمن.

ثالثاً: لو كان الابن قد دفع الثمن للآب، فهذا يعني أن الابن قد حرَّرنا من سلطان الآب وملكوته، وهذا عكس ما يعلنه الكتاب المقدس كله؛ لأننا بموت المسيح، لم نتحرر من الآب، بل بموت المسيح تحررنا من الخطية والموت، ودخلنا ملكوت الآب، وبالتالي أنقذنا الابنُ وفدانا وردَّنا للآب. وطبعاً، لا مجال بالمرة في الكتاب المقدس، لرأي العلامة أوريجينوس بأن الثمن قد دُفِعَ للشيطان، فقد وصف القديس غريغوريوس النزينزي هذا الرأي بأنه تجديفٌ على الله.

"الثمن"، وشراء العبيد في الامبراطورية الرومانية

كان العبيدُ مثل السلع الاستهلاكية وغيرها، يباعون في السوق، وكان شراء وبيع العبيد من الأمور اليومية المعروفة في زمان الآباء الرسل .. فهل أخذ العهد الجديد المفردات الشائعة في العالم اليوناني القديم لكي يشرح بها الخلاص؟

كان أدولف ديسمان *Deissmann* هو أول من أثار هذه النقطة الهامة في العصر الحديث، وحسب رأي هذا العالم وغيره، اشترانا المسيح من عبودية الخطية ودفع الثمن على النحو المعروف في العالم القديم. ويشير ديسمان إلى أن العبد كان يُباع لأحد الآلهة، وكان الثمن يُدفع للمعبد، وبعد ذلك يُعتَبَر العبدُ حراً أو عتيقاً، ويُعتَبَر الثمن هو ثمنُ فداءٍ أو خلاص. ولأن هذه النقطة هامة، يلزمنا ترجمة أحد النقوش اليونانية في منطقة دلفي *Delphi* في اليونان وهو نصٌّ يعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد:

> "اشترى الاله ابولو *Apollo* من السيد *Sosibius* سوسيبوس عبدة أنثى مولودة في روما اسمها *Nicaea* نيقية بقصد ردِّ حريتها إليها بثمنٍ مقداره ثلاثة وزنات ونصف من الفضة. والمالك لهذه العبدة الانثى هو السيد *Eunmnastes* يونمنستس من والدته *Amphissa* أمفيسا، وقد استلم

المالك الثمن. أما نيقية فقد أعطت النقود (الثمن) للإله أبولو حتى تتحرر. والشهود على ذلك هم: (أسماء الشهود).

وطبعاً، يثير هذا النص شهية الباحث، ويجد فيه مجالاً للمقارنة مع النصوص التي أشرنا إليها من قبل (١ كور ٧: ٢٣). ولكن الدراسة الدقيقة تجعلنا نختلف مع هؤلاء العلماء للأسباب اللغوية والتاريخية التالية:

أولاً: كان أمام الرسول بولس مشكلة العبيد والاحرار. والرسول يُقدِم هنا على استعمال تعبيرات غير مدوَّنة في العالم اليوناني القديم، فليس لدى اليونان أو الرومان أي نص يقول إن الحر هو عبدٌ للمسيح، وإن العبد هو عتيقٌ للرب (١ كور ٧: ٢١-٢٢).

ثانياً: يذكر النص القديم وسائر النصوص الأخرى، قيمة الثمن المدفوع، بينما لا يذكر العهد الجديد قيمة الثمن بالمرة. وتذكر النقوش، ليس فقط قيمة الثمن، بل وتحدد مَن الذي دفع، ومَن الذي استلم، والشهود؛ لأن هذه النقوش هي في الواقع عقودٌ مدنيةٌ، بينما لا يوجد في العهد الجديد إشارة إلى إيصال استلام، أو عقد، كما لا يذكر العهد الجديد أن الثمن قد دُفِع للآب.

ثالثاً: الفعل اليوناني المستخدم في العهد الجديد εξαγοραζειν هو فعلٌ مرَّكب لا يظهر بالمرة في النقوش اليونانية، ولا في الأدب اليوناني القديم بالمعنى المستخدم في العهد الجديد، وهو معنى "الخلاص، أو الفداء"، فهو يرد ثلاث مرات في الأدب اليوناني عند *polydius* و *plutarch* و *discaearchas* بمعنى "يشتري" فقط. وحتى في العهد القديم نفسه، وبالذات في الترجمة اليونانية، لا يظهر الفعل بالمعنى الذي نراه في العهد الجديد، وحتى في أشعياء ٥٢: ٣ يقول النص: "هكذا قال الرب: مجاناً بعتم وبلا فضة تفكُّون".

رابعاً: ومن الناحية التاريخية والقانونية، كان بعض العبيد يُعتَقون أحياناً بواسطة القياصرة، وكان تعبير "عتيق قيصر" هو الذي أغرى بعض علماء العهد الجديد بالمقارنة

بين هذا التعبير: "عتيق قيصر" و "عتيق الرب"، لكن هذا التشابه الظاهري يزول فوراً عندما نتذكر أن القيصر كان يملك العبد، وكان يعتقه، أما المسيح، فهو لا يملك العبد، بل يعتق العبد من الخطية؛ لكي يصير "عبداً للرب"، ثم يملكه بعد أن يعتقه.

خامساً: كان العبد الذي يعتق في العالم القديم ينال حريته، ولا يقوم بأي خدمة للإله. أما العبد الذي يشتريه المسيح، فهو يخدم المسيح، ولعل هذه الخدمة بشكلٍ خاص، هي التي جعلت الرسول بولس يصف خدمته بأنه "عبد المسيح" (رومية ١: ١).

"الثمن" و"الشراء" في العهد القديم:

حسب الترجمة اليونانية للعهد القديم والترجمة العربية القديمة للعهد القديم، الشراء والثمن هو "اقتناء". فالأصل اللغوي العبراني هو "اقتناء" أو *Possession* والترجمة العربية الحديثة المعروفة باسم "الترجمة البيروتية" تستخدم كلمة "خاصَّة"، وهي تؤدي ذات المعنى؛ لأن الكلمة العبرانية *Segullah* تُتَرجم في القاموس العبراني الإنجليزي، وعند علماء العهد القديم في العصر الحديث إلى: *Aemost precious possession*. وهكذا، "الاقتناء"، وليس الشراء أو الثمن، هو المعنى الغالب جداً على كل النصوص. وهنا نقدِّم بعض الأمثلة الواضحة على ما نقول:

* "إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي "خاصَّةً" من بين جميع الشعوب فإن لي كل الأرض" (خروج ١٩: ٥).

* "وواعدك الربُّ اليوم أن تكون له شعباً خاصَّاً كما قال لك" (تث ٢٦: ١٨ – ٧: ٨ – ١٤: ٢).

ويمكننا أن نلاحظ كيف تؤدي الدراسات اللغوية دورها في تنقية الفكر اللاهوتي من شوائب الفكر البشري، إذا دققنا النظر في سفر المزامير، وفي سفر أشعياء، حيث يظهر "الاقتناء، أو "الامتلاك"، أو "الخاصة" كمرادف للفداء والخلق، أي أنَّ يقتني =

خَلَقَ = يملك = يفدي، بل لو أدركنا أن المترجمين للعهد القديم من العبرانية إلى اليونانية لاحظوا ذلك، واختلفوا حول معنى الفعل العبراني "qanah – قنى"، لوجدنا أن المخطوطة السينائية تُتَرجم خروج ١٥: ١٦ إلى "الشعب الذي فديته"، بينما المخطوطة الفاتيكانية "الشعب الذي اقتنيه"، وهنا يظهر الوجه اللغوي، ليس كمشكلة كما يظن القارئ، وإنما كنوعٍ من الغنى؛ حيث تُستَخدم الكلمات المتقاربة المعاني للتعبير عن حقيقة واحدة، دون الإخلال بالحقيقة؛ لكي يدرك السامع أو القارئ هذه الحقيقة من خلال خبرته الخاصة. هذا الغنى اللغوي من مميزات الكتاب المقدس بعهديه، وهو عنصرٌ يجب الاحتفاظ به كاملاً؛ لأن القدرة على تعدُّد التعبير عن حقيقة واحدة، هي قدرة فنية هائلة تقود الفكر إلى تعدد الإدراك، وتبقى الحقيقة واحدة كما هي. ويكفي دلالةً على ذلك أن نقرأ نص مزمور ٧٤: ٢:

* "اذكر يا رب جماعتك التي اقتنيتها منذ القدم وفديتها سبط ميراثك".

وهنا وضع نص المزمور الحقيقة الواحدة، وهي الاقتناء، مع الفداء والميراث، لكي يدرك القارئ أن الله يقتني شعبه، وهذا ما يجعله يفدي هذا الشعب، ويحفظه كميراث له وسط الشعوب.

* "سبحوا الرب لأن الرب صالح .. لأن الرب اختار يعقوب لذاته واسرائيل لخاصته (أو ميراثه)" (مزمور ١٣٥: ٤).

ونلاحظ أيضاً نفس الشيء عند دراستنا للتعدد في التعبير في نص أشعياء ٤٣: ٢١، فالنص العبراني القديم يقول: "هذا الشعب فديته لنفسي"، والترجمة السبعينية تقول: "هذا الشعب الذي اقتنيته". والنص الآرامي، أي الترجمة العامية تقول: "هذا الشعب جبلته – yasartile"، وهو ذات التعبير في الترجمة البيروتية، وهكذا يستقيم المعنى إذا تذكرنا الحقائق التالية:

أولاً: الفداء هو تحريرٌ واقتناء، مصدره خبرة الخلاص في الخروج من مصر. "أنا

الربُّ وأنا أُخرجكم من تحت أثقال المصريين، وأُنقذكم (أفديكم) من عبوديتهم وأخلصكم بذراع ممدودة وأتخذكم لي شعباً" (خروج ٦: ٦-٩). فإذا كانت حادثة الخروج هي قلب الخلاص، وهي التي عليها تتركز كل التعبيرات المتعددة، فإن العهد القديم لا يجد أي مانع من التعبير عن الخروج بالفداء أو الاقتناء أو الخلاص .. فكل هذه تؤدي الغرض من الكلام عن حقيقة العلاقة الخاصة بين الله والانسان.

ثانياً: وإذا تذكرنا أن الحقيقة هي التي تهدي المتكلم، أدركنا أن الحق يختار الكلمات المناسبة المتعددة وليس العكس. وندعِّم ذلك بنصٍّ واضحٍ صريح من أشعياء: "هوذا مخلصك آتٍ ها أُجرته معه وجزاؤه أمامه .. ويسمونهم شعباً مقدساً مفدي الرب" (٦٢: ١٢)، فهل يمكن لمن يقرأ النص بدقة أن يفشل في فهم أن مُقدس = مَفدي؟ وأن التقديس = الاقتناء = الفداء = الخروج = العهد، وأننا أمام مترادفات؟

"الاقتناء" في العهد الجديد

من النصوص الهامة التي اختارها العهد الجديد من العهد القديم، نص العهد في خروج ٦: ٦-٩ حيث يظهر هذا النص في (١ بطرس ٢: ٩)، وفي مناسبةٍ هامةٍ جداً، إذ يوجِّه الرسول بطرس الحديث إلى الذين اعتنقوا المسيحية: "وأما أنتم فجنسٌ مختار وكهنوت ملوكي، أمة مقدسة، شعب اقتناء، لكي تُخبِروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب". و"الاقتناء" هنا هو ذات الكلام الذي رأيناه في العهد القديم؛ لأن الله اختار إبراهيم، ودعي الآباء، وأرسل الأنبياء، وأعطى الناموس، وأخرج الشعب .. ذلك كله يدور حول موضوع واحد، هو "العهد". وركيزة العهد في التاريخ هي الخلاص، وركيزة الخلاص هو الخروج، وركيزة الخروج هي اختيار الله. هذا الاختيار هو بذاته الذي جعل الناموس يصبح أحد علامات العهد. والعهد الجديد نفسه يحرص على أن لا يُنكر العهد القديم، وأن يأخذ وينقل منه الكلمات والمعاني نفسها، وهذا ظاهرٌ من ذلك النص الفريد في أرميا ٣١: ٣١-٣٢ حيث يعلن الله في زمان أرميا أنه هو يقطع عهداً جديداً، ليس مثل العهد القديم "ها أيامٌ تأتي يقول الرب، وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا

عهداً جديداً. ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر". وتؤكِّد الكلمات بعد ذلك، نفس الكلام الذي قيل في العهد السابق، عهد الخروج: "وهم يكونون لي شعباً". والتصاق الله بالشعب هو الذي يجعل الشعب شعبَ لله. أي أننا أمام الدعوة، والاختيار، والخروج، والفداء، والاقتناء، وكل هذا يشير إلى العهد الجديد.

وفي حقيقة الأمر، أننا كلما وسَّعنا دائرة الرؤية، أمكننا أن نرى الأمور بكل وضوح، وكلما ضيَّقنا دائرة الرؤية، صارت الرؤية غامضة. ألا يذكر القارئ أن الرب نفسه هو أول من استخدم نبوة ارميا ٣١: ٣١ وفي مناسبةٍ هامةٍ، وهي تأسيس سر الإفخارستيا: "هذا هو العهد الجديد بدمي"؟ أليست هذه دعوة إلى أن ندخل العهد الجديد، وأن نصبح شعب الاقتناء؟ وهذه هي كلمات اليهودي المتنصر الرسول بولس في سفر الأعمال: "احترزوا لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه"، أو حسب الترجمة الأورشليمية الحديثة: "كنيسة الله التي اقتناها بدم المسيح". لكن كل هذه القراءات تشير إلى حقيقةٍ واحدة، وهي أن الآب اقتنى الكنيسة بدم ابنه، وهذا عكس ما يُشاع عندنا في مصر من أن الابن هو الذي دفع الثمن للآب، أو هو الذي اقتنى الكنيسة من الآب. ويكفي هنا أن نتذكر كلمات القداس الباسيلي: "هذه التي اقتنيتها بالدم الكريم الذي لمسيحك"، فهل يوجد بعد كل هذا مجال للكلام عن أن الابن دفع الثمن؟ ألا يجدر بنا أن نقول مع الكتاب المقدس بعهديه، ومع الليتورجا نفسها: "اقتنى"، وليس "دفعَ الثمن"؟

وفعل "يقتني" في اليونانية، هو فعلٌ يشتبك دائماً في العهدين مع فعل "يخلِّص". ويكفي أن نرى كيف تساهم القراءة الدقيقة في فهم النصوص:

* نلاحظ كيف يرد فعل "يقتني" بمعنى يحفظ أو يخلِّص: "مَن طلب أن يخلص περιποιεσαι نفسه يهلكها ومَن أهلكها يحييها" (لوقا ١٧: ٣٣). ونفس القول (مرقس ٨: ٣٥ – لوقا ٩: ٢٤). وطبعاً اشتباك فعل "يحفظ أو يقتني –

περιποιεσαστηαι مع فعل σοζειν ظاهر؛ لأن الاحتفاظ أو الاقتناء هو ذات الحقيقة الواحدة.

ولا توجد أية إشارة بالمرة إلى أن دم المسيح قد دُفِع؛ ذلك يتطلب أن نلوي جميع النصوص السابقة لكي نجد شخصين: البائع والشاري، والثمن. وفي كل النصوص السابقة لا نجد البائع، ولا نجد الشاري، بل نجد الله الذي يقتني من خلال ابنه. وفي ضوء أعمال ٢٠: ٢٨ يمكننا أن نرى أن العهد القديم هو الذي صاغ هذه النصوص؛ لأن العهد قام على دم حمل الفصح، وهو دمٌ لم يُدفَع لأحدٍ، بل حرَّر الشعب من الموت. ونفس الكلام يقال في العهد الجديد عن دم الحمل الذي ذُبِحَ، والذي اقتنى أو اشترى للآب، وجعل الشعب أمةً مقدسةً ومملكةً وكهنوتاً (رؤ ٥: ٩-١٠ - ١ بطرس ٢: ٩ - تيطس ٢: ١٤). وفي هذا الاطار أيضاً يجب أن نقرأ ذلك النص الجميل والفريد حيث يقول الرسول بولس إن الروح القدس هو "عربون ميراثنا لفداء المقتنى لمدح مجده" (أفسس ١: ١٤). فالروح القدس لا يُدفع كثمن، وإذا جاز لنا أن ننحرف في تفسير النصوص الخاصة بدم المسيح بسبب القصور في فهم الخلفية اللغوية، فإننا لا نملك أن نخطئ في فهم الكلام عن الروح القدس؛ لأن العربون هو جزء من الثمن، يُدفَع مقدماً تأكيداً وضماناً للبيع. ولا يوجد في العهدين ما يمكن أن يؤخَذ على أن الروح القدس قد دُفِعَ ثمناً؛ لأن عربون الروح، إنما أُعطيَ للمؤمنين أنفسهم، وليس لآخر. أي لا يوجد مَن يشتري هنا، وإنما كما قال العلامة أوريجينوس في شرحه لرسالة أفسس:

> "الروح القدس هو روح الموعد، وهو نفسه العربون لميراثنا الذي أُعطي للقديسين لكي يتم فدائهم ويتم اقتنائهم لله" (شذرات تفسير رسالة أفسس نشرها Gregg: مجلة الدراسات اللاهوتية مجلد ٣ سنة ١٩٠٢ ص ٢٤٣).

وعلى نفس درب العلامة أوريجينوس سار الآباء: ذهبي الفم وكيرلس عمود الدين. يقول ذهبي الفم:

> "إننا خليقة الله، ولكن بسبب الخطية، أصبحنا عبيداً الشيطان. ولأننا كنا

تحت سلطان الشيطان، افتدانا المخلص بدمه. هذا هو معنى الكلمات: "لأنكم افتُديتم (اشتُريتم) بثمن" (١ كور ٦: ٢٠ – ٧: ٢٣). لقد اشتُرينا بالدم الثمين (١ بطرس ١: ١٨)، وكما أن أي أب صالح وقور إذا ترك عبده العاق لمعلِّم يدربه ويؤدبه، ثم رأى أن عبده صار يُؤدَّب ويُضرَّب بواسطة معلمه الشرير، وسمع الأبُ عبده يقول: "الآن أقوم وأرجع إلى أبي"؛ لأنني كنت أحيا هناك حياةً أفضل. يقوم الأبُ فوراً ويدفع الثمن ويخلِّص عبده لكي ما يصبح شعب اقتناء خاص به" (الآباء اليونانيين ٦٤: ١٠٥٣).

ومثل ذهبي الفم، يؤكد القديس كيرلس عمود الدين أن الآب هو الذي افتدى واقتنى العبيد غير الطائعين .. وطبعاً لا يوجد عند ذهبي الفم وكيرلس أية إشارة إلى أن الآب دفع دم ابنه للشيطان، وهو الرأي الذي ذكره العلامة أوريجينوس ولصق هذا الرأي به حتى نسى الذين يكتبون عنه إنه قال أشياء أخرى أعظم وأشمل بكثير عن موت ربنا يسوع المسيح بالجسد على الصليب وقيامته.

"المغفرة" ليست قاصرة على سفك الدم في الذبائح

عَرِفَ العهد القديم عدة تقدمات غير دموية للصفح والمغفرة، ومنها الصلاة والبخور، وهي تعتبر بمثابة ذبائح أيضًاً، أي ذبائح روحية. يقول سفر الخروج: "وكان في الغد أن موسى قال للشعب أنتم قد أخطأتم خطية عظيمة فأصعد الآن إلى الرب لعلي أكفر خطيئتكم.." (خروج ٣٢: ٣٠). وطبعاً كفارة موسى كانت صلاةً وتوسلاً. كما أن شفاعة هارون الواردة في (سفر العدد ٧: ٩ – ١٣) يذكرها سفر الحكمة (١٨: ٢١–٢٥)، مضيفاً إليها صلاة هارون وتقديم البخور. هذا يشكِّل أيضاً الخلفية الأساسية التي قام عليها الطقس القبطي؛ لأن تقدمة البخور في عشية وباكر هي تقدمة لغفران الخطايا حسب نصوص الصلوات التي تعتمد على العهد القديم نفسه بشكلٍ مباشر. وعن الخولاجي ننقل النصوص، ونتركها للقارئ.

يقول الكاهن أوشية البخور للابن:

"أيها المسيح إلهنا العظيم المخوف الحقيقي، الابن الوحيد، وكلمة الله، طيبٌ مسكوبٌ هو اسمك القدوس، وفي كل مكان يقدَّم بخورٌ لاسمك القدوس وصعيدة طاهرة".

يقول الشماس: "صلوا من أجل ذبيحتنا والذين قدموها".

يقول الكاهن: "نسألك يا سيدنا اقبل إليك طلباتنا ولتستَقِم أمامك صلاتنا مثل بخورٍ. رفعُ أيدينا ذبيحةٌ مسائية" (أوشية بخور عشية، تقال سراً للابن).

وسوف نعود إلى دراسة ذبيحة المساء؛ لأنها كانت تقدمة بخور ودقيق، حسب الوصف الشامل في المشنا Mishnah وهو كتاب طقوس الديانة اليهودية. ومن المشنا وشرح علماء اليهودية، نعرف أن ذبيحة المساء في زمان تجسد ربنا يسوع المسيح، كانت من أهم الذبائح اليومية، ولذلك تقول الصلاة القبطية:

"لأنك أنت هو ذبيحةُ المساء الحقيقية الذي أصعدتَ ذاتك من أجل خطايانا على الصليب المكرم كإرادة أبيك الصالح" (سر بخور عشية).

وفي صلاة الاستعداد يقول الكاهن عن الخدمة، أي الليتورجية:

"لكي ابتدئ وأهيئ وأكمِّل كما يرضيك خدمتك المقدسة، كمسرة إرادتك رائحة بخور" (القداس الباسيلي، صلاة الاستعداد).

ويقول الخولاجي أيضاً تحت عنوان بخور السيد المصلوب:

"هذا الذي أصعد ذاته ذبيحةً مقبولةً على الصليب عن خلاص جنسنا، فاشتمَّه أبوه الصالح وقت المساء على الجلجثة. فَتَحَ باب الفردوس ورَدَّ آدم إلى رئاسته مرةً أخرى. من قِبل صليبه وقيامته ردَّ الإنسان مرةً أخرى إلى

الفردوس" (بخور السيد المصلوب، الخمسة الأرباع الخشوعية).

وهنا نرى أن ذبيحة المساء، واسمها في العبرانية "منخة"، أي "منحة"، أو عطية. كما أن موت المسيح على الصليب هو عطية ومنحة لنا. واختيار الطقس لهذه الذبيحة بالذات دون غيرها، هو اختيارٌ متعمَّد؛ لأن ذبيحة الخطية وذبيحة الإثم وتقدمة يوم الكفارة، لا تظهر في الليتورجيات الشرقية بالمرة، وإنما الذي يُستَخدَم هو: خروف الفصح — ذبيحة، أو تقدمة ملكي صادق – ذبيحة المساء. وسوف ندرس هذه النقطة في شيء من التفصيل فيما بعد[١]. ولكن يكفي هنا أن نرى أن الصلوات الشرقية، والقبطية بشكلٍ خاص، اعتبرت أن ذبيحة إبراهيم، أي تقدمة اسحق، قد حلَّ محلها بخور الكنيسة الجامعة:

> "يا الله الذي قَبِلَ إليه **محرقة إبراهيم** وبدل اسحق أعددت له خروفاً، هكذا أيضاً اقبل منا نحن أيضاً يا سيدنا محرقة هذا البخور، وارسل لنا عوضه رحمتك ذات الغنى" (بخور سر الإبركسيس).

وهنا نرى ايضاً أن نص أفسس ٥: ٢ "اسلكوا في المحبة كما أحبنا المسيح أيضاً وأسلم نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحةً لله رائحةً طيبة"، يؤكِّد لنا أن موت الصليب هو عطية، وأن هذه العطية تجعل البخور نفسه قرباناً ومحرقةً، أي منحة أو منخة أو **ⲇⲱⲣⲟⲛ**. هذا بالطبع يؤكد لنا حرية تقديم الابن ذاته على الصليب، فقد قدَّم ذاته وبإرادته الحرة للآب ذبيحةَ بخورٍ مثل ذبيحة المساء.

لقد ساد الاعتقاد في الشرق في العصر الحديث، بأن دم المسيح سُفِكَ على الصليب لكي يمحو خطية الإنسان. هذا طبعاً صحيح، وجزءٌ من التعليم الرسولي الذي لا ننكره بالمرة، وإنما الذي نريد أن نشرحه هو أن حصر موت المسيح في تقديم الدم

---

(١) راجع بالتفصيل دراستنا عن موت المسيح على الصليب، حسب تسليم الآباء، القاهرة، مارس ٢٠٠٩، ص ٦١٥ — ٦٤٤، والدراسة منشورة على موقع الدراسات القبطية.

للآب، هو تفسيرٌ متأخر جداً، جاءت به حركة الاصلاح، وصار من العلامات المميزة لحركة النهضة البروتستانتية في القرن الثامن عشر، حيث اعتبرت هذه الحركة أن دم المسيح هدَّأ غضب الآب، وأن دم المسيح هو الذي حلَّ العداوة بين الله والإنسان، وأن هذه العداوة كانت عداوة متبادَلة بين الطرفين. هذا التفسير لا يمكن مصالحته مطلقاً مع صلوات الليتورجية بالمرة، بل يتعارض معها تماماً، ومع لاهوت الآباء الشرقيين والغربيين معاً. وحتى في العهد الجديد نفسه، إذا نظرنا إلى المناسبات والنصوص التي يقدِّم لنا فيها العهد الجديد دمَ ربنا يسوع المسيح، وجدنا أن الموضوع برمته في هذه النصوص، لا علاقة له بالثمن أو الكفارة المدفوعة، أو فداء الإنسان من العدل الإلهي، وعلى سبيل المثال:

١– الحياة الأبدية بدم المسيح

يقول الرب في إنجيل يوحنا (٦: ٥٣ – ٥٦) "الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم. من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير" .. وطبعاً، هنا نجد الدم مع الجسد، وليس الدم وحده هو الذي يهب لنا الحياة الأبدية.

٢– دم المسيح كأس البركة

يقول الرسول بولس: "كأس البركة التي نباركها، أليست هي شركة دم المسيح". (١ كورنثوس ١٠: ٦–١٧)، فكيف صار الدم الذي قُدِّم لكي يزيل الغضب الإلهي والذي يقدَّم لإرضاء العدل، كأس البركة؟ وكيف حمل المسيح اللعنة على الصليب ومات تحت وطأة اللعنة، ثم يقال بعد ذلك إن هذا هو كأس البركة؟ والاسم (كأس البركة) له دلالة طقسية في العهد القديم والديانة اليهودية، فهو جزءٌ من طقس الفصح اليهودي، وبالتالي كما نعرف، هو كأس تحقيق المواعيد، وانتصار الحياة على الموت؛ لأن خروف الفصح وكل الاحتفال لم يكن ذبيحة خطية، بل ذبيحةً افتدت الحياة من الموت، وهو أحد المواعيد العظمى التي أكملها الرب بموته على الصليب.

٣- دم العهد الأبدي

قال المخلص ليلة العشاء الرباني: "هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يُسفك عنكم" (لوقا ٢٢: ٢٠). وطبعاً، الدم هنا هو دمٌ واحد، وهو ذات الدم الذي يقول عنه الرسول أيضاً: "إله السلام الذي أقام من الأموات راعي الخراف العظيم ربنا يسوع المسيح بدم العهد الأبدي.." (عبرانيين ١٣: ٢٠)، فكيف قام الرب من الأموات بدم العهد الأبدي، والعهد كما نعرف، هو مثل معاهدة بين طرفين، وميثاق بين اثنين لا يدخل فيه بالمرة دفع الغرامة أو التعويض؛ لأنه عهدُ سلامٍ وبركة، خاصةً وأن العهد كان من الله .. فكيف تحوَّل دمُ العهد الأبدي إلى ثمنٍ يُدفع لإرضاء العدل الإلهي، وكيف يقوم المسيح من الأموات بدم إرضاء العدل الإلهي؟ .. لقد فسر الكثير من آباء الكنيسة الجامعة في الشرق والغرب هذا النص على أن دم العهد الجديد هو دم العهد الأبدي، وهو الدم الواهب الحياة، مما جعل القديس غريغوريوس النزينزي يصف الإفخارستيا بأنها "ذبيحة القيامة"؛ لأننا كما سنرى، أن ما بُذل وما أُعطيَ وما أُهرق، إنما قُدِّم للإنسانية التي تحتاج إلى هذا الدم لكي تحيا به.

النصوص الخاصة بالاقتناء والفداء بالدم

١- كما مرة بنا نستطيع أن نرى بوضوح أن أعمال (٢٠: ٢٨) "كنيسة الله التي اقتناها بدمه"، هو مثل "رؤ ٥: ٩"، فالذي اشترى واقتنى هو الله، وليس الابن الذي اشترى من الآب، أو الآب الذي اشترى من الابن.

٢- يقول الرسول بولس: "لمدح مجد نعمته التي أنعم بها علينا في المحبوب الذي لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا حسب غنى نعمته" (أفسس ١: ٧)، ومجد النعمة والفداء هو غنى مراحم الله، وليس وفاء القصاص.

٣- يقول الرسول بطرس "انكم افتُديتم لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب .. بل بدمٍ كريم كما من حملٍ بلا عيبٍ ولا دنسٍ، دم المسيح المعروف سابقاً قبل تأسيس العالم،

ولكن قد أُظهِر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم" (١ بط ١: ١٨ - ١٩)، فكيف كان هذا الدم معروفاً سابقاً قبل خلق الكون، وقبل سقوط آدم؟ لذلك، ألا يجدر بنا أن نقول إن الخطية والسقوط ليست هي التي جعلت الابن يتجسد ويموت، وإنما هو غني الرحمة الإلهية.

٤- ولأن الفداء هو عمل الثالوث القدوس، ينسب الرسول بولس، المصالحةَ للابن كما هي للآب أيضاً. فقد قال عن ربنا يسوع المسيح: "لأنه فيه سُرَّ أن يحل كل الملء وأن يصالح به الكلَّ لنفسه عاملاً الصلح بدم صليبه" (كو ١: ١٩-٢٠). فقد صالحنا الابنُ لنفسه بدم صليبه. وبسبب قواعد الإعراب اليونانية والعربية، الذي قام بالمصالحة لنفسه هو الابن أيضاً وليس الآب فقط، فكيف تصالحنا مع الآب بدم الابن، لو كان الدم قد دُفِع ثمناً للآب؟!

٥- ودم المسيح هو أساس السلام بين اليهود والأمم؛ لأن المصالحة وهدم الحائط أو السياج الذي كان يمنع الأمم من دخول الهيكل، قد انهار بفضل المصالحة بموت المسيح، وهي مصالحة السلام التي أعطت للطقس القبطي دون غيره من الطقوس الأرثوذكسية الانفراد بصلاة الصلح وقُبلة المحبة الرسولية، وهي تلك الصلاة التي تنير وعي الجماعة الكائنة في حضرة الثالوث القدوس لأن تكون في سلام وتحيا في محبة، وسوف نتعرض لصلاة الصلح بمزيد من التفصيل في الصفحات المقبلة، ولكن يكفي في الوقت الحاضر أن نرى أن الرسول بولس يقول: "أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين، صرتم قريبين بدم المسيح؛ لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً (الأمم واليهود) مبطلاً بجسده ناموس الوصايا .. لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً السلام، ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب قاتلاً العداوة به" (أفسس ٢: ١٣-١٦).

وهنا أدعوك قارئي العزيز أن تتأمل قوة كلمات الرسول: **الموت على الصليب يخلق الإنسان الجديد، ويُبطل وساطة الناموس الموسوي، ويُصالِح البشر أعداء الله مع الله كلي المحبة** .. ذلك كله هو حرية المحبة وغنى النعمة، وليس قواعد الناموس أو

القانون الخاص بالعدالة.

٦– أمَّا النصوص الخاصة بدم المسيح في رسالة رومية ٣: ٢٥ – ٥: ٩ فالرسول يؤكد أن الذي قدَّم الكفارة بالدم هو الله (٣: ٢٥)، وفي (٥: ٨) الله هو الذي أعلن لنا عن محبته، وبالتالي نخلص بدمه (٥: ٩).

٧– ودم المسيح يطهِّر ضمائرنا من الخطايا (عب ٩: ١٤)، وذلك دون التعرض بالمرة في العهد الجديد كله إلى أن المسيح مات لكي يغفر خطية آدم، وإنما لكي يغفر الخطايا بكل أنواعها دون حصر، سواء لمغفرة الخطية الأدمية في الصليب، أو الخطايا الفعلية غير الآدمية في المعمودية والإفخارستيا: "ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية" (١ يوحنا ١: ٧).

٨– ونظراً لأن موت المسيح هو تقديسٌ للشعب، وليس لترضية العدل الإلهي الذي نفهمه كما نفهم العدل الأرضي، وهو غير ذلك على وجه التأكيد، يقول الرسول: "لذلك يسوع أيضاً لكي يقدس الشعب بدم نفسه تألم خارج الباب" (عب ١٣: ١٢)، وهو ذات المعنى في (رؤيا ٧: ١٤).

شهادة الليتورجية القبطية

الليتورجية هي عصارة التعليم الرسولي ولاهوت الآباء، ولذلك فهي لا تدخل في نظريات عن الفداء والتجسد، بل تقدم النعمة الإلهية بذات الروح، وبذات الكلمات التي استُعملت في الكتاب المقدس.

فبعد استدعاء الروح القدس، يبدأ الكاهن بأوشية السلام، ويقول – ونحن هنا ننقل عن الخولاجي: "اذكر يا رب سلام كنيستك الواحدة الوحيدة المقدسة"، ثم عندما يصل إلى هذه الكلمات: "هذه التي اقتنيتها لك بالدم الكريم الذي لمسيحك"، يقول الخولاجي أن الكاهن "يشير بيديه إلى الدم ثم الجسد على المذبح". هنا يتوقف كل تفسير

مهما كان قائله، ذلك أن الدم الكريم هو ذاته دم الابن الوحيد، وهو ذاته الذي اقتنى به الآبُ الكنيسةَ حسب كلمات الكتاب المقدس في (أع ٢٠: ٢٨ – ١ بط ١: ١٨، ١٩ – رؤ ٥: ٩)، وهنا تأخذ الليتورجية من الكتاب المقدس نفسه؛ لكي تؤكد، ليس فقط أنه ذات الدم الواحد، بل إن الحدث نفسه هو حدثٌ واحدٌ، وأن الذي يقتني هو الآب، وأن ذلك الاقتناء تمَّ على الصليب، وهو يتم الآن ويتم في كل عصر؛ لأنه ليس ثمناً يُدفع، بل عطيةً تُوهَب، وإلاَّ كيف يجوز لنا أن نتناول من دم الابن الوحيد الذي يشير إليه الكاهن، وكيف نتناول نحن الثمن الذي دُفع عنَّا للآب؟ ألا يجدر بنا هنا أن نقول للآب هذا عملٌ غير مشروع، أن نأخذ ونشترك نحن في الثمن الذي دُفِع إليك؟ أليست هذه سرقة، وعدم أمانة، أن نأخذ ما يخص الآب؛ لأننا نتناول ما ليس لنا حق فيه؟ وتنقل هذا المعنى الصلوات التالية:

> "أيها الكائن الذي كان، الذي أتى، وأيضاً يأتي، الذي تجسد وصُلِبَ على الصليب من أجلنا ... أنت الذي يخضع لك شعبك وميراثك، هؤلاء الذين اقتنيتهم لك بدمك الكريم" (القداس الغريغوري، صلاة وضع يد بعد التناول، خضوع للابن).

> "يا الله الذي أحبنا هكذا، وأنعم لنا برتبة البنوة لكي ندعى نحن أبناء الله، ونحن وارثون لك يا الله الآب وشركاء في ميراث مسيحك" (القداس الكيرلسي، صلاة خضوع قبل التناول من الأسرار المقدسة).

> "أيها الرب الإله ضابط الكل، ابسط يمينك العزيزة القادرة في كل شيء وبارك عبيدك .. شعبك هذا الذي اخترته من تسلُّط المحتال. ميراثك المختار هذا الذي اقتنيته بدم ابنك الوحيد" (صلاة خضوع قبل التناول تقال بدلاً في القداس الباسيلي أو الكيرلسي).

فالإفخارستيا هي التي تكشف لنا عن هذه الحقيقة التاريخية، وهي أننا نشرب من مياه الشرق مياهاً روحيةً صافيةً، تقدمها لنا الليتورجية، واضعةً بذلك كلمات الكتاب

المقدس في مكانها الصحيح، ومقدمةً لنا تفسيرها السليم.

وأُصدِقُكَ القول قارئي العزيز، إن الكاهن القبطي الذي يفتتح صلوات الكنيسة برفع البخور بقوله: "ارحمنا يا الله ضابط الكل. أيها الثالوث القدوس ارحمنا .."، لا يقودنا فقط إلى الثالوث القدوس، بل يؤكِّد في كل كلمة وعبارة، سخاء ومجانية النعمة. فصلاة الشكر، ليست شكراً لمن دفع الديون عنا أو اشترانا، بل لمن (لاحظ الكلمات): "سترنا وأعاننا وحفظنا وقبلنا إليه". ويرتفع الأداء الروحي: "وشفق علينا وعضدنا وأتى بنا إلى هذه الساعة". وعندما تصل صلاة الشكر إلى خاتمتها، تراها تسجِّل الكلام عن النعمة على النحو: "لا تدخلنا في تجربة .. بالنعمة والرأفات ومحبة البشر اللواتي لأبنك الوحيد". فكيف تمكن الابن من أن يكون صاحب النعمة والرأفة ومحبة البشر، وهو ليس إلاَّ وسيطاً في عملية شراء وبيع ودفع ديون، وما يتعلق بالقانون والتجارة؟

وعندما يصل الكاهن إلى أوشيه البخور، أدعوك عزيزي القارئ أن تلاحظ قوة وجمال التعبير:

> "أنت هو ذبيحة المساء الحقيقية الذي أصعدت ذاتك عن خطايانا على الصليب المكرم كإرادة أبيك الصالح".

وذبيحة المساء هذه –كما سبق أن قلنا– ليست ذبيحة خطية، وإنما تقدمة حرة وقربان شكر، والمناسبة هنا هي تقديم البخور، وهو ما تؤكده ثاؤطوكية الأحد:

> "أنت هي المجمرة الذهب النقي، حاملةُ جمر النار المباركة، الذي يؤخذ من المذبح ويطهِّر الخطايا ويمحو الآثام، أي الله الكلمة الذي تجسَّد منكِ، ورفع ذاته بخوراً إلى الله أبيه .. هذا الذي أصعد ذاته ذبيحةً مقبولةً على الصليب".

وتعود الثاؤطوكية إلى ذات الموضوع:

> "شبَّهوا رئيس الكهنة بمخلصنا الصالح، الذبيحة الحقيقية لمغفرة الخطايا. هذا

الذي أصعد ذاته ذبيحةً مقبولةً على الصليب عن خلاص جنسنا، فاشتمَّه أبوه الصالح وقت المساء على الجلجثة، فَتَحض باب الفردوس وردَّ آدم إلى رئاسته مرةً أخرى".

ولأن المسيح هو بخور المسرة ورضاء الارادة الحرة بتقديم الذات عن محبة وسخاء، تقول نفس الثاؤطوكية: "مِن قِبَل مريم عرفنا الذبيحة الحقيقية ..."، وهي "خبز التقدمة"، وهو ذات خبز ذبيحة المساء. والنص القبطي يقول "خبز التقدمة جسد الرب"، وطبعاً هنا لا توجد ثنائية بين ذبيحة المساء موت المسيح على الصليب، وبين وذبيحة المساء الإفخارستيا.

أما ما هو جدير بالذكر، فهو أن كل هذا يقال في التسبيح والشكر والتمجيد، أي في الصلاة .. وبالتالي تكتسب هذه الكلمات المأخوذة من كتاب العهد الموسوي، دلالة أخرى؛ لأنها متى دخلت مجال التسبيح والطلبة والشكر، صارت الصلاة تتحرك على أرض الكرم والسخاء الإلهي، ناظرةً إلى تجسد ربنا يسوع الذي لم تطلبه البشرية ولا حتى فكَّرت فيه، بل رآه الانبياء بروح النبوة وظلَّ موضع رؤية الفئة المختارة.

وقداس مار مرقس (الكيرلسي) نفسه يبرز هذه الحقيقة بكل وضوح:

"مستحقٌ وعادل .. أيها الكائن السيد الرب الآب ضابط الكل ... وخلقت كل الأشياء بحكمتكَ نورك الحقيقي ابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا كلنا يسوع المسيح، هذا الذي من قِبَلِه نشكر ونقرّب لك معه مع الروح القدس الثالوث المقدس المساوي غير المفترق هذه الذبيحة الناطقة، وهذه الليتورجية (الخدمة) غير الدموية".

وهذا ليس مجرد نصٍّ شاردٍ، بل هو قلب اللاهوت الشرقي. فصلاة القسمة في القداس الباسيلي:

"أيها السيد الرب إلهنا العظيم الأبدي .. الذي أعطانا الخلاص من خطايانا بابنه الوحيد يسوع المسيح .. اللهم الذي قدَّس هذه القرابين الموضوعة بحلول روحك القدوس عليها وطهرتها .."،

فالآب يقدِّس الذبيحة بالروح القدس، والابن يقبل الذبيحة غير الدموية:

"نسأل ونطلب إليك يا محب البشر اللهم اقبل ذبيحتنا منا ..".

ويرتفع الأداء الروحي في إيقاعٍ يفوق كل ما نعرفه من إيقاعٍ موسيقي، فتقول صلاة قسمة للآب في أعياد الملائكة والسيدة العذراء:

"هوذا كائنٌ معنا اليوم على هذه المائدة عمانوئيل إلهنا حمل الله الذي يحمل خطية العالم كله .. الجالس على كرسي مجده الذي تقف أمامه جميع الطغمات السمائية".

وهنا نرى أن هذه الذبيحة تجمع الطغمات السماوية، ويدخل المصلي مع الملائكة إلى حضرة الثالوث القدوس، ووالدة الاله، دون أن تفارق عينيه أو قلبه هذه الحقيقة الفائقة، وهي أن: "**هذه الذبيحة التي ذبحت عن حياة العالم كله**". وأن هذه الذبيحة الحية الناطقة السماوية هي التي تجعل الكاهن القبطي يقول:

"مقدسةٌ ومملؤةٌ مجداً هذه الذبيحة التي ذُبحت عن حياة العالم كله. من أجل هذا صرخ مخلصنا قائلاً إن جسدي مأكلٌ حق ودمي مشربٌ حق".

وهذه الذبيحة هي التي تجعل الكنيسة كلها تقول في صلاة أخرى موجَّهة للابن:

"أنت هو كلمة الآب الإله الذي قبل كل الدهور رئيس الكهنة الأعظم[١]

(١) تعبير "رئيس الكهنة الأعظم" في القداسات الشرقية، يؤكد حقيقة طقسية وعقائدية هامة، وهي أن الكاهن، إنما يخدم في حضور رئيس الكهنة، فهو الذي يؤكد ويضمن خدمة الكاهن.

... لهذا نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشرأان لا تكون لنا هذه الذبيحة تبكيتاً لخطايانا وعاراً لآثامنا؛ لأننا قدَّمناها لك عن ضعفنا".

ولو كانت هذه الذبيحة قد قُدِّمت للآب فقط، وليس لنا نحن أيضاً، لَمَا استطاعت الكنيسة أن تقول إنها تقدِّم هذه الذبيحة للآب والابن والروح القدس. وما يؤكد ذلك هو قول الرب نفسه: "هذا هو جسدي، هذا هو دمي"، واستخدام اسم الإشارة "هذا"، يعني أنه كان يشير إلى ما هو حادثٌ وكائنٌ فعلاً. وهنا نلفت النظر إلى أن تقديم الذبيحة للآب فقط هو دعامة لاهوت حركة الإصلاح في القرن السادس عشر، الذي حاصر موت الرب في تقديم ذاته للآب فقط، وفصل بين العلية وخميس العهد والجلجثة ويوم الجمعة العظيمة، فقسَّم شخص الرب يسوع إلى أحداثٍ متباعدة، وهو ما أدَّى إلى فصل السرائر عن الصليب والقيامة. ولا زال هذا الفصل قائماً في بعض الكتابات القبطية الأرثوذكسية التي تحاصر الخلاص في موت الرب المحيي عنا، بينما تترك القيامة والصعود.

وكيف يمكن لمن يجعل من الثالوث قلب اللاهوت، أن ينكر أن مصالحتنا لم تكن مع الآب وحده، بل مع الآب والابن والروح القدس؟ ولذلك، نحن نقدِّم هذه الذبيحة غير الدموية والناطقة الروحانية للثالوث. فهي ليست ذبيحة يقدمها الابن للآب، وإنما هي ذبيحة تقدَّم للآب والابن والروح القدس، والسبب الظاهر تماماً هو أن الثالوث لاهوت واحد، وحياة واحدة، وطبيعة واحدة، وجوهر واحد. ولذلك، فإن ما يمس الآب أو يخصه، إنما يمس الابن والروح ويخصهما معاً؛ لأنهما واحدٌ مع الآب. وهنا نرى لاهوت الشرق والإسكندرية بكل وضوح يتجلى في صفاءٍ شديد في صلوات الليتورجية على هذا النحو:

١ – يقدِّم المسيح الكلمة المتجسد، ذاتَه للموت عن حياة العالم؛ لكي تتم مصالحة الإنسانية مع الثالوث، أي مع الآب والابن والروح القدس. طبعاً هذا تم يوم الجمعة العظيمة، وقد غرس الربَّ يسوع هذا الانتصار الساحق على الموت والشيطان

بموته وقيامته، فينا نحن في سر الانضمام.

٢– بعد قيامة الابن المتجسد، صار الابن المتجسد هو رئيس الكهنة، وهو الذي إليه "دُفِعَ كلُّ شيء" في السماء وعلى الأرض، وبالتالي تدخل الكنيسة إلى رئيس الكهنة، ومعها تقدمة المسيح، أي الإفخارستيا، أي معها ذات الذبيحة التي قُدِّمت عنا، والتي قدَّمها الابن عنَّا على الجلجثة، حسب صلوات الليتورجية. هنا نرى أن الذبيحة والمذبح والكاهن، وهؤلاء هم واحد يعملون في وحدة واحدة، مصدرها عدم انفصال الكاهن عن الذبيحة والمذبح. فالكاهن يقبل الذبيحة، وهنا الذي يقدِّم، هو الكنيسة. والكاهن يقدِّم الذبيحة، وهنا الذي يقدِّم هنا الابن الكاهن والكنيسة، وبالتالي يشترك المسيح له المجد كأقنوم من أقانيم الثالوث في قبول الذبيحة، ويشترك ككاهن في قبول الذبيحة.

لقد تمت مناقشة هذا الموضوع برمته في مجمع مكاني عُقِدَ في القسطنطينية عام ١٢٣٥م تم فيه تجريد أسقف تجاسر وقال إن الإفخارستيا يقدِّمها الابن للآب فقط. ولجأ آباء هذا المجمع إلى قداس مار مرقس وكتابات القديس كيرلس عمود الدين للحكم على هذه الفكرة الخاطئة، ويكفي هنا أن نلاحظ أن الصراع اللاهوتي الذي احتدم في الغرب بين الكنيسة الرومانية وحركة الإصلاح، هو صراعٌ يتم على أرض الغرب، وحسب التطور الغربي نفسه الذي ميَّز بين ذبيحة الصليب وذبيحة الإفخارستيا، والذي جعل الابن يقدم ذبيحة خطية عن البشرية نيابةً عنها، وليس لأجلها، والفرق كبير بين "عن"، "ولأجل". وهذه الذبيحة تكفِّر بمعنى أنها ترفع العقوبة، وتُرضي عدل الآب، وبالتالي أصبح من الحتمي ومن المنطقي ألاَّ تقدم هذه الذبيحة سوى مرةً واحدةً على الجلجثة فقط، وبالتالي تصبح الإفخارستيا هي ذكرى عقلية لِما حدث عن الصليب، لا تربطها بالصليب سوى ما يدور في عقل الإنسان المصلي فقط. وكأننا من جانب الأمانة التاريخية، يجب أن نرى أن حركة الإصلاح هي الامتداد الفكري التاريخي والمنطقي الذي ساد أوربا في العصر الوسيط، أي أنها التطور الطبيعي لتعليم الكنيسة الرومانية.

أما الشرق الذي لم يتصور مطلقاً أن المسيح مات لكي يرضي العدل الإلهي، فقد رأى في الإفخارستيا: الصليب والقيامة. ورأى في الذكرى: وجود ربنا يسوع المسيح بالروح القدس على المذبح، وفي حضن الآب. ورأى في ما حدث يوم الجمعة العظيمة بداية حركة الحياة الجديدة الآتية من الله المثلث الأقانيم؛ لكي تشفي وتجدِّد وتحرِّر وتطهِّر وتعتق كل البشرية من الموت والخطية والدينونة الأبدية، وأن محبة الله ورحمته هي وحدها التي جعلته يأتي إلينا وليس إرضاء العدل الإلهي.

الثمن والانتصار على الموت:

يقول القداس الباسيلي عن سيادة الموت على البشرية:

"والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس، هدمته بالظهور المحيي الذي لابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح" (صلاة الصلح).

فكيف هدم الابن الموت، أو كيف سحق الموت حسب مديح القيامة في صلاة نصف الليل: "فلنبارك الرب كل حين ونمجِّد قيامته لأنه سحق الموت بموته". والمجال لا يسمح هنا باقتباس كل نصوص الليتورجية التي تقول إن الرب "أبطل عزة الموت وأبطل الموت وأهانه" .. ولكن، كيف يمكن إبطال الموت وسحقه، وهو صاحب حق مشروع، ويجب أن يدفع الآب له الثمن أو يدفع الابن له الثمن؟

طبعاً هناك فرقٌ هائل –نتركه للقارئ للتأمل فيه– بين من يدفع الثمن للآب لإرضاء عدل الآب لأنه غريب عن جوهر الآب، وبين من يدوس الموت ويسحقه، ويعطي الحياة للمائتين؛ لأنه واحدٌ مع الآب في الجوهر.

ويقول القداس الباسيلي أيضاً هذا عن الفداء:

"هذا الذي أحب خاصته الذين في العالم وأسلم ذاته فداءً عنا إلى الموت

الذي تملَّك علينا. هذا الذي كنا ممسكين به مبيعين من قبل خطايانا، نزل إلى الجحيم من قِبل الصليب".

ولو كانت لدى الكنيسة أي إحساس أو فكر بأن الابن قدَّم ذاته للآب؛ لكان من الحتمي أن تقول الصلاة: "وأسلم ذاته فداء عنا إلى الآب الذي تملَّك علينا هذا الذي كنا مديونين له مبيعين من قبل خطايانا"، وطبعاً الفرق بين الآب مصدر الحياة، وبين الموت الذي كنا ممسكين به هو فرق ضخم وكبير.

معنى الاستعارة في ضوء الممارسة الليتورجية

الاستعارة و الكناية والمثَل .. الخ كلها طرقٌ مختلفة تعبِّر عن الحقيقة؛ لكي تبقى الحقيقة في قلب الإنسان. والذي لا شك فيه أن البيع والشراء هي تشابيه أو استعارات يمكن أن تقال عن الفداء والخلاص وموت المسيح، ولكن لا يجب أن يتحول التشبيه أو تتحول الاستعارة إلى عقيدة. والذي يفصل في هذا الموضوع هو ما نمارسه في الليتورجية، ذلك أن الاستعارة أو الكناية أو التشبيه لا يمكن أن يتحول إلى ممارسة بالمرة؛ لأن الممارسة علاقة قبل أي شيءٍ آخر. وهكذا، إذا قِيل إننا كنا مبيعين للموت، فالذي يؤكد أن الموت لا يملك حقاً على الإنسان هو القيامة، والقيامة ليست لفظاً، وإنما حدثٌ حقيقيٌّ، والذي يؤكد أن القيامة حدثٌ حقيقي هو وجود جسد ودم ربنا يسوع المسيح على المذبح، وهنا يصبح الاشتراك والتناول من جسد ودم ربنا يسوع المسيح هو الممارسة التي تكشف لنا عن حقيقة الألفاظ ومعانيها الصحيحة.

وربما كمثل صارخ يؤيد ما نقول هو أن نتأمل هذه الحقيقة العقائدية التي يعلنها الطقس، فالابن في حضن الآب منذ الأزل، وبالتالي ظلَّ في حضن الآب وهو متجسد، وهو أيضاً على الصليب وفي القبر أيضاً هو لا زال في حضن الآب، فكيف وهو في حضن الآب يدفع الثمن، وكيف يرضي الآب ويهدئ غضب العدل ويحمل العقوبة؟ .. كل هذه تصورات، إن جاز الكلام عنها في شكل أمثال وقصص واستعارات، إنما لا

يجوز أن تصبح الاستعارة والأمثال هي ذات الحقيقة. فالليتورجية تجعلنا نرى الابن في حضن الآب دائماً، وتعلو بنا الصلاة فوق كل التعبيرات إلى تأمل الحقيقة ذاتها، وبالتالي لا تسمح لنا الليتورجية بأن نرى الابن مرفوضاً وتحت العقاب، بل نراه دائماً وهو على الصليب كما هو في مجد الآب الأزلي.

الفصل التاسع

المائدة والمذبح

ورث العصر الحديث تَرِكَةً غريبة الشكل والنوع، وهي الجدل حول طبيعة الأسرار وعلاقتها بموت المسيح، ونوع وطبيعة الذبيحة وعلاقتها بالإفخارستيا، ومشاكل أخرى طُرِحت على بساط البحث في بداية العصر الوسيط، ثم صارت هي الموضوع الأول والأخير في لاهوت حركة الاصلاح. هذه التَّرِكَة تقدِّم لنا التراث المسيحي القديم، أي كتابات الآباء في صورة مهلهلة وممزقة، فقرات تؤيد رأي الكاثوليك، وفقرات أخرى تؤيد رأي البروتستانت، ونقرأ نحن كتابات هؤلاء وأولئك، أي الكاثوليك والبروتستانت، وننسى الحقائق التاريخية التالية عندما يحتدم الجدل:

أولاً: لم يقدم لنا الآباء لاهوتاً جدلياً خاصاً بالأسرار، وإنما شرحوا الأسرار في إطار ما تمارسه الكنيسة، أي في إطار الليتورجية. وكتابات الآباء الذين شرحوا الأسرار في إطار الليتورجية هي كتابات: كيرلس الأورشليمي – غريغوريوس النيسي – ذهبي الفم – أمبروسيوس – ديديموس الضرير – وهناك شذرات هامة جداً عند القديس كيرلس السكندري، وغيره من الآباء. والحقيقة التاريخية الواضحة التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار، هي أن الآباء لم يعاصروا جدل القرن السادس عشر، ولا علاقة لهم بلاهوت العصر الوسيط، أي اللاهوت المدرسي *Scholastic*.

ثانياً: إن المؤرخ الكنسي لا يملك أن ينتزع سطوراً أو صفحات من كتاب أو

مقال أو عظة للإجابة عن سؤال لم يفكِّر فيه كاتب المقال، ولم يخطر على بال الواعظ نفسه. وقد وقع أغلب علماء التاريخ الكنسي واللاهوتيون من كاثوليك وبروتستانت في هذا الخطأ التاريخي، واستشهد هؤلاء وأولئك بنصوصٍ وفقرات من كتب الآباء للدفاع، أو لشرح وجهة النظر الكاثوليكية أو البروتستانتية التي تبلورت بعد القرن السادس عشر.

وهنا، نحن لا نناقش أسباب الاختلاف على تفسير الآباء، وإنما نناقش شرعية اللجوء إلى شاهدٍ لا يعرف شيئاً عن الموضوع الذي يطلب طرفين كلٌّ منهما على خلاف حاد، شهادةَ الشاهد، في حين أن هذا الشاهد رأى شيئاً آخر يختلف تماماً، بل بعيداً بدرجة كبرى عن الموضوع الذي يُطلَب فيه شهادته.

ثالثاً: إن الذي يجب أن يحكم تفسير نصوص الآباء، ليس ما جاء به القرن السادس عشر أو ما جاء بعده أو قبله، وإنما الذي يجب أن يحكم فهم وتفسير نصوص الآباء هي الليتورجية، كما كانت تمارَس في عصر الآباء أنفسهم؛ لأن هؤلاء الآباء لم يشرحوا الأسرار للجدل، وإنما شرحوها لكي يفهم الموعوظون ماذا سينالون من نعمة، وكيف سوف تتغير علاقتهم بالله من خلال المعمودية والميرون والإفخارستيا، أسرار الكمال المسيحي.

ومن هنا يجب علينا أن نعود إلى الهوية الأرثوذكسية، وهي هوية من يفهم إيمانه من خلال الصلاة، ومن خلال الممارسة الكنسية، ومن خلال النظرة الشاملة التي توحِّد ولا تفصل الكتاب المقدس عن التقليد، ولا السماء عن الأرض، ولا التجسد عن الصليب والقيامة، ولا الزمان عن الأبدية.

ملامح اللاهوت المدرسي قبل حركة الاصلاح:

كانت نظريات الفداء هي أهم تطور جاء بعد القديس أوغسطينوس، وكان امتزاج الفكر اللاهوتي المسيحي بالفكر الفلسفي والاجتماعي والسياسي في أوروبا هو نتيجة طبيعية لانتشار المسيحية في أوروبا، وقيام دول مسيحية تخضع بصورة مباشرة

لسلطان الكنيسة، وما صاحب هذا الخضوع من صراع دموي أحياناً بين رجال الكنيسة والبابوات والإكليروس. وعلى ذلك، فالبحث في الخلفية التاريخية للأفكار اللاهوتية التي انتشرت في العصر الوسيط، هو ضرورة لا يمكن التخلي عنها، ويمكن وضع هذه الأفكار اللاهوتية في الإطار التاريخي التالي:

أولاً: ضرورة تنظيم المجتمع المسيحي سياسياً ودينياً بما يحفظ العلاقات الاجتماعية والدينية، ويعطي للحاكم القدرة على الحكم .. هذا خَلَقَ –في حدِّ ذاته– عدة نظريات دينية عن الحكم الإلهي بواسطة الملك، فهو ينوب عن الله، والعبارة الشائعة الدالة في هذا الخصوص هي أن "الملك ظل الله على الأرض". ولكي يحكم الملك، يجب إبعاد النظرة المسيحية عن المحبة، أو على الأقل إخضاع هذه المحبة للمبادئ السياسية – التي في جوهرها– لا تسمح بالمرة بالمغفرة المجانية، أي المجانية المطلقة التي تُسقِط كل الاحكام والجزاءات دون عقاب أو ترضية من جانب أي أحد. وهنا يجب على الفور "تدجين" الإنجيل؛ لأن المغفرة التي قدَّمها الله مجاناً، دون اعتبار لمطالب الناموس، هي أكبر من قدرة استيعاب أي حضارة أو ثقافة أو آداب أو علوم. والحقيقة التاريخية الظاهرة هي أن استيعاب الإنجيل حضارياً وقانونياً، هو الذي قضى على الخبر السار، أي هو الذي حوَّل الإنجيل من نعمة إلى نظرية، ومن عطية إلى علاقة قانونية. فالإنسان لا يملك أن يتصور أن الأمير أو الملك يلبس تاجاً عليه صليب، ويتوج في الكنيسة، ويُمسَح مثل ملوك العهد القديم، ويدخل عليه الجاني أو المجرم طامعاً في مغفرةٍ مجانيةٍ ينالها، أو عفواً شاملاً، لأن ذلك يهدد سلامة المجتمع ويخلق حالةً من الفوضى وعدم الاستقرار. وطبعاً، فإن جوهر المشكلة هنا، هي أن مجتمع الكنيسة شيء، والمجتمع البشري الذي يجلس فيه الحاكم نائباً عن الله أو الشعب، شيءٌ آخر، لا يمت للعلاقات القائمة على المحبة والمغفرة بصلة.

وطبعاً، بعد قيام الإمبراطورية المسيحية في أوروبا، بات من الضروري أن يقدِّم آباء الغرب، الفكر المسيحي واللاهوتي الذي يسير في خطٍ موازٍ للفكر السياسي. وهكذا، بدأ ذلك الفكر في النمو في كتاب "مدينة الله" للقديس أوغسطينوس، ثم تطور

بعد ذلك. ففي الحقيقة، كان أوغسطينوس هو أول من ضخَّم فكرة العدل الإلهي، ولكنه لم يضع لها الإطار القانوني الذي نما بعد ذلك في اللاهوت المدرسي. يقول أوغسطينوس:

> "لم يهمل الله الخليقة، بل ظل الخالق مصدر الحياة الذي يدبِّر ويرعى الخليقة، رغم الخطايا والشرور المتزايدة، بل استمر يقدِّم عطايا صالحة لبشرٍ أشرار، بل لم يمنع الله حنانه حتى في أثناء غضبه، بل لم يتركه بعيداً عن سلطانه الإلهي حتى عندما سمح للإنسان بأن يقع تحت سطوة وقوة الشيطان" (كتاب الثالوث ١٣: ١٢).

وهذه الفقرة بالذات، تختلف عن الفكر المدرسي الذي تصوَّر أن العلاقة مع الله انتهت تماماً بالسقوط، وأن انفصال الإنسان عن الله هو انفصالٌ تام، وهو أمر يثير التساؤل .. كيف عاش الإنسان، وكيف استمر الكون في البقاء بعيداً عن الله مصدر الحياة الذي يخلق ويحفظ كل الكائنات من العودة إلى العدم (كولوسي ١: ١٦)؟. كان الفكر السياسي السائد في أوروبا يعتمد بدرجةٍ مطلقة على أن الخطأ لابُد وأن يعاقَب، وأن تقدَّم الترضية المطلوبة لمن وقع الخطأ في حقه. وتاريخياً، كانت هذه الفكرة هي دعامة القانون الروماني، أي أنها تعود إلى عصر يسبق المسيحية، بل هي أيضاً دعامة التشريع والقوانين في كافة الحضارات .. ومن الواضح أن الخطأ –كما يحدده القانون– ليس هو الخطية كما تعلنها علاقة الإنسان بالله، والفرق ظاهرٌ بوضوح؛ لأن الخطأ، إنما يحدده القانون على أساس ما يصيب الحياة الإنسانية في المجتمع من أضرار، بينما الخطية تحددها علاقة النعمة، أي نعمة الصورة الإلهية التي مُنِحَت للإنسان، بالأصل أي الله. والخطية هي انحرافٌ عن الهدف، أي الله، وبالتالي يصيب هذا الانحراف الطبيعة البشرية بالموت وبالأضرار الروحية المعروفة التي لا يمكن أن تعالَج بالعقوبات أو بالجزاءات، مهما كان نوعها. ومن هنا يظهر التعارُض التام بين المجتمع بما يحمله من سلطة توقيع العقاب، والكنيسة وما تملكه من نعمة تعطي الحياة وتحرر الطبيعة الإنسانية من الأهواء. طبعاً، هذا التعارُض مصدره النعمة الإلهية التي لا تنشأ بالقانون ولا بالنص، وإنما تنشأ من صلاح وإحسان الخالق وَجُودِه وكرمه ومحبته ورحمته، وهذه كلها لا تخضع للقانون، ولا حتى

للناموس الإلهي الذي وضعه الله نفسه للإنسان؛ ذلك لأن الله أعظم من الشريعة، وأكبر من الناموس، ومحبته لا يمكن أن يعبَّر عنها:

"وليس شيءٌ من النطقِ،

يستطيع أن يحدَّ لجةَ محبتك للبشر .." (القداس الغريغوريوي).

ولكن اللاهوت المدرسي لا يقبل بالمحبة الإلهية كما يعلنها المسيح، بل يجب إخضاع هذه المحبة للقانون؛ لكي يمكن أن تعيش الكنيسة في سلام مع الإمبراطورية. وهكذا، وُلِدَت المحاولة الأولى لإخضاع المحبة للتصور القانوني على يد أنسلم، وإن كان قد سبقتها قبل ذلك إرهاصاتٌ واضحة عند البابا غريغوريوس الكبير، وغيره من رواد الحقبة الاولى للعصر الوسيط. يقول البابا غريغوريوس:

"علينا أن نسأل الآن: كيف يكون الله عادلاً ويحكم بالعدل على مَن لا يجوز الحكم عليه (المسيح)؛ لأن وسيطنا (المسيح) لا يستحق أية عقوبةٍ، فهو لم يخطئ ولم يُذنِب بالمرة. ولكنه كان غيرَ قادرٍ على أن يحررنا من الموت الذي نستحقه إلاَّ بالموت الذي لا يستحقه هو. فالآب رغم كونه عادلاً، إلاَّ أنه عندما يعاقِب البار (المسيح)، فهو لا يزال يمارس عدله؛ لأنه بواسطة الابن المتجسد، يبرِّر الكل عندما يعاقبه من أجل كل الخطاة، رغم أنه (المسيح) بلا خطية، وذلك لكي يصل المختارين (المؤمنين) فيه إلى أعلا مستوى للبر؛ لأنه (المسيح) احتمل عقوبات خطايانا (حرفياً عدم برنا) .. وصدأُ الخطية لا يمكن تطهيره إلاَّ بنار العذاب .. ولأن الوسيط بلا خطية، ولأنه بإرادته الحرة أخضع نفسه للعذاب واحتمل العقوبات التي نستحقها، فَقَدَت العقوبات شرعية سلطانها على ضحايا الخطية؛ لأن العذاب الذي احتمله (الابن) هو عذابُ بريءٍ، وعذابُ البريء هو نوعٌ من الظلم يحتمله البريء لكي تفقد العقوبة شرعية سلطانها على المذنب .." (التعليم الاخلاقي ٣: ١٤).

وتاريخياً، يُعتبر سؤال البابا غريغوريوس الكبير عن عدل الله، وموت الابن على الصليب، هو في الحقيقة سؤالٌ منطقي، ولكنه سؤالُ رجل القانون الوضعي الذي يرى أن الحكم الذي صدر على بريء هو نوعٌ من الظلم. وهكذا، بدأ هذا الموضوع يدخل التاريخ على هذا النحو، لكي يصبح إحدى دعائم فكر حركة الاصلاح. كما أن لغة البابا غريغوريوس الكبير، وطريقة معالجته للموضوع، سوف تُصبح بعد ذلك هي التعليم الغربي الذي يمر بعدة مراحل قبل أن يصل إلى لوثر.

هنا، يهمنا أن نرى أن إجابة البابا غريغوريوس ليست مقنعة، إذ كيف يُحرر عقابُ البريءِ ضحايا الخطية من العقوبات؟ صحيح أن حرية اختيار الابن المتجسد للصليب هي نقطة هامة، ولكنها تظهر في شكلها الواضح، إذا رأيناها في إطار المحبة الباذلة، أما إذا وضعناها في إطار العدل، بالمعنى القانوني، فَقَدت مكانها، وصارت علامةَ سؤالٍ لا جواب عليه.

القديس برنارد:

على الرغم من المعالجة القانونية عند البابا غريغوريوس، إلاَّ أننا نظلم الكنيسة الرومانية أو الغرب، إن قلنا إن الفكر القانوني ساد لاهوت العصر الوسيط، وإنه كان هو المدخل الوحيد الذي صاغ تعليم الكنيسة الكاثوليكية عن الفداء. فالقديس برنارد، وهو واحدٌ من أهم أساتذة الحياة النسكية والروحية في عصره، يكتب إلى البابا أنوسنت الثاني *Innocent* أثناء احتدام الصراع مع أستاذ اللاهوت *Abelard* أبيلارد:

> "إن الآب لم يطلب دم الابن، ولكنه قَبِلَ هذا الدم عندما قدَّمه الابن، فهو لم يكن (الآب) متعطشاً للدم، وإنما للخلاص، وكان الخلاص بالدم .." (خطاب للبابا أنوسنت الثاني ضد أخطاء أبيلارد رسالة رقم ١٩٠ فقرة ٧).

وتَبرزُ العلاقة الشخصية مع الفادي والمخلص في كتابات برنارد، الأمر الذي يعكس تعليم الشرق في كلماتٍ روحيةٍ واضحة:

"تأمَّله وهو يذهب لكي يُصلب لأجلك مثقلاً بحمل خشبة الصليب. لعلك وأنت تتأمله تنضم إلى النسوة اللائي يبكين .. تألم معه، فقد تألم طوعياً لأجل فدائك، بل ليتك تُطعَن بالحربة مع الذي صُلِب لأجلك" (رسالة ٥).

ويقول أيضاً عن الاقتناء أو الشراء:

"لقد اشتراكَ ليس بما يملك من مقتنيات، بل بنفسه، أي بدمه اشتراكَ وفداك .. فتأمل حقه في امتلاكك، وكيف كان ثمنُكَ باهظاً جداً .. أنت يا مَن هو أعظم من السماء، بل والكون كله؛ لأن ثمنك هو خالق الكون نفسه" (المرجع السابق).

المحبة أسمى من القانون

والمجال لا يسمح هنا بعرض التطور التاريخي، والذي ساد الفكر الأوروبي منذ عصر أنسلم. ولكن الفكر القانوني في حقيقة الأمر أسهل بكثير من إنجيل المحبة؛ لأن الفكر القانوني لا يقدم إلاَّ الاختيار الواضح السهل، فالقانون يجيب في دقةٍ واضحة لا تسمح للإرادة الإنسانية إلاَّ بالتحرك في اتجاهٍ واحدٍ يُفرض على الإرادة، أما إنجيل المحبة، فهو يتطلب الوعي والنمو الحر المتدرج نحو العطاء الحر والاختبار الحر الذي يغيِّر الحياة الداخلية، ويجعل هذه الحياة تنمو وتتدفق في عطاء الذات، وهو ما تغرسه النعمة فينا. وهنا ننبه ذهن القارئ العزيز إلى أن البحث هنا لا يدور حول **تعارض** النظرة القانونية مع المحبة، وإنما يدور حول **الاختلاف**؛ لأن القانون لا يخلق الليتورجية، وإنما الليتورجية هي التي تخلق القانون بالمعنى الكنسي القديم لكلمة *Kanon* أي قانون، أي الدَّفة التي تقود السفينة، وليس بمعنى الجزاء الذي يوقَّعُ على المخالِف. ولذلك، ففي العقوبات الكنسية، يجد الإنسان نفسه أنه أمام ظاهرة خطيرة، وهي أن أقسى وأشد عقوبة توقَّعُ عليه هي المنع من الصلاة والحرمان من التناول، أي عدم الاشتراك في حياة الجماعة، وهذه ليست عقوبة روحية في مواجهة عقوبة مدنية *Civil* وإنما هي عقوبة الموت الروحي التي لا تسمح

للإنسان بالحياة مع الجماعة في الشركة، بل البقاء في عزلة الموت. وبالتالي يجد الإنسان نفسه أمام ظاهرة غريبة، وهي أن القانون الكنسي ينشأ في داخل الليتورجية لحماية استمرار الشركة، وليس للدفاع عن مصالح الفرد أو الجماعة. والليتورجية التي تعطي للقانون الكنسي معناه، أي الدفة التي تحدد سير السفينة، أي السير نحو الشركة، لا تسمح بأن تتحول علاقة الله بالإنسان، وهي علاقة صلاة وعلاقة كيانية بين الأصل والصورة، إلى علاقة تقوم على الشريعة. ولذلك ليس عبثاً أن احتفظت الكنيسة بالترتيب الطقسي اليهودي القديم، حيث كانت اليهودية تحتفل بنزول الشريعة على جبل سيناء، أي الوصايا العشر في يوم عيد الخماسين، أي العنصرة. وجاءت الكنيسة لتجعل هذه المناسبة هي مناسبة حلول الروح القدس، أي تحقيق الوعد –حسب القراءات الكنسية والصلوات– بحلول الله، لكي يصبح هذا الحلول هو الشريعة أو الناموس الجديد، حسب كلمات النبي:

"ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت اسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي ..

هذا هو العهد الذي أقطعه

أجعل شريعتي في داخلهم

وأكتبها على قلوبهم

وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً

ولا يعلِّمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم .." (أرميا ٣١: ٣١-٣٤).

وبالتالي، إذا كانت الشريعة مكتوبة في داخل القلب، وبواسطة الروح القدس

"الرب المحيي"؛ صارت شريعةَ حياةٍ قائمةٍ على علاقة كيانية تجد كمالها في الليتورجية. أما القانون أو الشريعة التي تقوم على تحديد الخطأ، أو تحديد الخطية، فلا يصلح بالمرة لأنْ يكون أساسَ علاقة المحبة، وهي محبة تسمح بحلول وسكنى الله في قلب الانسان. وعندما تسمح المحبة بذلك، أي بسكنى الله في القلب، صار من الواضح أن هذه المحبة أصبحت هي الشريعة. هذه النقلة، تظهَر بوضوح في ذات كلمات الرب يسوع المسيح الذي نقل الناموس من الممنوعات والمحظورات إلى "حِب الرب إلهك .. وقريبك كنفسك".

ثم نقل التعليم من البحث عن المخالفات الظاهرة مثل الزنى الفعلي، إلى مراقبة انحراف القلب، وبالتالي صارت الوصية "لا تزنِ" هي "كل مَن نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه"، وبالتالي تحولت الوصية إلى بحثٍ عن جذور الخطية في القلب المتعارضة مع المحبة، أي محبة الله والقريب، وذلك بدلاً من البحث عن المخالفات الظاهرة التي تسيء إلى العلاقات الاجتماعية.

كل ذلك يجب أن يجعلنا على حذرٍ من أن ننقل العلاقات الاجتماعية، وبشكلٍ خاص، الجانب القانوني منها، لكي يصبح هو جوهر العلاقة مع الله، فذلك يقضي على "الخبر السار"، أي الإنجيل، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: إن قاعدة كل شيء في العهد الجديد، ليست هي علاقة الله مع الإنسان، وإنما علاقة الآب بالابن بالروح القدس. وهنا نرى كيف أكمل العهد الجديد العهد القديم، وكيف تحولت علاقة الله بالإنسان إلى علاقة تقوم على علاقة كائنة في الله نفسه.

وهنا، يضيق المجال، ولا يسمح بالمرة، بنقل نصوص وكلمات العهد الجديد؛ لأن محور كل صفحة وكل قول فيه هو محبة الآب للابن وعمل الروح القدس "الشريك" للابن المتجسد. وبالتالي، كل ما قيل وأُعلِن وأُعطي، هو نابعٌ من هذه العلاقة. وهذا في حقيقة الأمر يجعلنا نرى كيف صارت عقيدة الثالوث هي قاعدة كل شيء، وبالتالي تحول التوحيد نفسه من نهيٍ عن الشرك وتعدد الآلهة، إلى مثال الكمال، أي الواحد في وحدة. وصارت الليتورجية ليست هي مراقبة الانحراف نحو الشِّرك وتعدد الآلهة، بل الاقتراب من

وحدة الحياة، و"وحدانية القلب التي للمحبة"، وهي وحدانية محبة الله أولاً التي تتأصل فينا بالابن الذي وُهِبَ لنا من الله، وبالروح القدس الذي **ينقل إلينا وينقلنا** إلى ذات هذه المحبة:

> "أهِّلنا أن نمتزج بطهارتك سِرَّاً، وكما أنك واحدٌ في أبيك وروحك القدوس، نتَّحد نحن بك وأنت فينا، ويكمل قولك: "ويكون الجميع واحداً فينا"، لكي بدالةٍ ندعو اللهَ أباك أباً لنا، ونقول بصوتٍ جهوري: أبانا الذي في السموات" (قسمة القديس كيرلس).

ولعل القارئ قد لاحظ أن الامتزاج السِّري بطهارة الله نفسه هي التي ترفعنا إلى التوحيد الحقيقي، أي وحدة الله الآب مع الله الابن مع الله الروح القدس؛ لأنها وحدةٌ "مع"، ووحدةٌ "في". و"مع" هي للتعبير عن التمايز، و "في" لتأكيد الحلول المتبادَل لأقانيم الثالوث. ولأننا دُعينا أن نكون في الابن، أمكننا أن ندعو الله الآب أباً لنا، ونقول الصلاة الربانية لكي تنطبق الكلمة على الحياة.

ثانياً: ولأن كل شيء نابعٌ من علاقة الآب بالابن وبالروح القدس، أصبح من الواضح أن كلمات مثل "البنوة"، تجد معناها في الممارسة، ولا تصبح مجرد كلمات تُطلق على الأشياء مثل كلمة ورقة أو حجر أو ماء. فهذه الكلمات تمس ما يخص الاستعمال أو الاستهلاك الذي يمس جانباً واحداً ضئيلاً من حياة الإنسان. أمَّا كلمة "بنوة"، فهي لا تمس حياة الإنسان، بل هي الكيان الإنسان كله. وحتى هذه اللحظة، لم يكتب لنا أحدُ المعاصرين، عن التعليم والمعرفة في لاهوت الكنيسة الشرقية، وهو موضوعٌ حيوي يَمَس حقائقَ كثيرةٍ، فلدى الآباء وجهة نظر خاصة عن النفس والجسد والقدرات العقلية. وما يندرج تحت كلمة "معرفة" هو مختلف تماماً عن كل نظريات المعرفة السابقة واللاحقة لبشارة الإنجيل. ولكن يكفي الآن أن نرى أن الكلمة الإنسانية لا تصدر من العقل أو من وثيقة أو من الفم لكي تبقى أو تُستقبَل في الفكر والشعور، بل تصدر الكلمة من الله أو من الإنسان، أي من الكيان نفسه؛ لكي تنقل الحياة الإلهية إلى الإنسان، وتنقل الحياة

الانسانية إلى الله. فالوحدة مع الثالوث ليست وحدة من طرفٍ واحدٍ هو الله، بل هي وحدة يعيش فيها الله والإنسان حياة الآخر، وبالشركة في الآخر.

وهنا لا تصبح كلمات الناموس منقوشة على الحجر، بل منقوشة على القلب، ولا تشرح ما يجب أن يفعله الإنسان وما لا يجب أن يفعله، بل تعلِن الكلماتُ المحبةَ المتدفِّقة من الله والإنسان، وتحيي الكلمة ما هو ميت وتقيم الساقط (راجع طلبة القداس الغريغوري: شفاءَ للمرضى، راحةً للمعوزين، إطلاقاً للمسبيين .. إلخ). وسر قوة الحياة، هو أن "الكلمة" خلقتها العلاقة بين الأقانيم، والعلاقة بين الأقانيم والبشرية، وبات من الحتمي أن نرى أن الكلمات الجزئية التي تمس الحياة الإنسانية، إنما هي لا تمس الكيان نفسه مثل المحبة، التي لها شمولية تستوعب ليس العلاقة فقط، بل الكيان نفسه، وهذا يظهر بشكلٍ واضحٍ إذا حاولنا أن نقارن بين شمولية المحبة، وجزئية القانون. فالمحبةُ نابعةٌ من الحياة الإلهية، وهي جوهر الله. أما القانون، فهو ليس كذلك، فهو أي القانون، علاقة جزئية حتى على مستوى البشر. وقديماً قال أحد علماء الإسكندرية في الرسالة إلى ديوجنيتوس عن مسيحيي القرن الثاني:

"يطيعون الشرائع الوضعية، لكنهم يسمون على كل هذه الشرائع" (٦: ١٠).

وبعد ذلك يقول الكاتب:

"إن ما من مرجعٍ أرضي يمكن أن تُرَدَّ إليه المسيحية، فالعقيدة التي يؤمن بها المسيحيون ويتألمون بسببها، ليست من اكتشاف إنسان فانٍ، ولذلك إن إيمان المسيحيين لا يمُت بصلةٍ إلى أسرار البشر" (المرجع السابق، ٨: ١).

فالقانون –كمرجعٍ أرضي– لا يشرح شيئاً في ديانة الإله المتجسد، ولذلك يقول الكاتب عن المحبة:

"لم يُرسل الآبُ الابنَ كما تخيَّله عقل الناس بسلطانٍ لينشرَ الرعب والهلع، بل

بكل حلم ورفق، كما يوفد الملك ابنه الملك. أرسله، وهو الإله، كما يليق به أن يرسَل إلى الناس ليخلصهم، لا بالقوة، بل بالاقتناع؛ لأن الإكراه لا يتفق مع صفات الله. أرسله ليدعونا إليه، لا لكي يخيفنا. **أرسله حباً**، لا للدينونة" (المرجع السابق، ٨: ٣ – ٥).

ويلاحظ القارئ أن صلاة الاستعداد في القداس الباسيلي، تضع هذا كله أمام عين وقلب المصلي:

"أيها الرب العارف قلب كل أحد. القدوس المستريح في قديسيه،

الذي بلا خطية"،

ولكن هذا لا يدفع إلى اليأس، بل:

"القادر على مغفرة الخطية".

والمصلي وهو يعلم حالته، يقول في عباراتٍ قاطعة:

"أنت تعلم يا سيدي أني غير مستحق ولا مستعد ولا مستوجب لهذه الخدمة المقدسة التي لك، وليس لي وجه أن أقترب وأفتح فمي أمام مجدك الأقدس".

لكن ذلك، لا يجعل العلاقة مقطوعة ومنتهية، ذلك أن الاستحقاق حسب القانون يحكم على قائل هذه الكلمات بالرفض التام، ولكن:

"ككثرة رأفاتك اغفر لي أنا الخاطئ وامنحني أن أجد نعمةً ورحمةً في هذه الساعة، وارسل لي قوةً من العلاء لكي **ابتدئ وأُهيِّئ وأُكمِّل** خدمتك المقدسة **كما يرضيك، كمسرة إرادتك**، رائحةَ بخورٍ. نعم يا سيدنا كُن معنا واشترك في العمل معنا؛ لأنك أنت هو غفران خطايانا، وضياء أنفسنا وحياتنا وقوتنا ودالتنا".

وهنا، ماذا يمكنك أن تقول قارئي العزيز، إذا كان الله هو حياتنا وهو غفران خطايانا؟

تُرى هل جاز القانون ودخل في قلب الله نفسه، أم جازت المحبة وتفوَّقت على القانون نفسه، وصارت هي الحياة الغالبة؟

النظرة المتكاملة إلى التراث القديم:

أدَّى الحوار والجدل الكاثوليكي البروتستانتي إلى تمزيق وحدة التراث الآبائي. فقد دافع الكاثوليك عن الذبيحة والمذبح، وأنكر البروتستانت الذبيحة والمذبح، وحصروهما في موت المسيح على الصليب، واعتبروا أن الصليب هو وحده المذبح. بل حاول بعض علماء التاريخ الكنسي إثبات تزوير كتابات الشهيد أغناطيوس الأنطاكي بسبب وجود كلمات "الذبيحة" – "المذبح" – "القربان"، واعتبروا أن هذه الكلمات من المفردات التي شاعت في القرن الثالث والرابع. والقارئ غير المدرَّب يجد نفسه أمام بحر متلاطم الأمواج من براهين وأدلة كلها تشير إلى اتجاهٍ واحدٍ، وهو أن التراث القديم قد مُزِّقَ لمصلحة الجدل الذي ثار في القرن السادس عشر. ويمكننا أن نحصر جوهر الخلاف الكاثوليكي البروتستانتي في النقاط التالية:

أولاً: يؤكد لاهوت العصر الوسيط أن المسيح قدَّم ذاته قرباناً وذبيحةً لإرضاء العدل الإلهي، وأنه دَفَعَ الثمن للآب، وبرَّر الإنسانية بموته.

ثانياً: كان لاهوت العصر الوسيط يرى أن الإفخارستيا هي ذبيحة تُقدِّمها الكنيسة إلى الآب لكي تحصل على ذات نتائج موت المسيح على الصليب، وبشكلٍ خاص، مغفرة الخطايا الفعلية التي تُرتَكب بعد المعمودية.

ثالثاً: جاء قادة حركة الاصلاح، واعتبروا أن موت المسيح لإرضاء العدل الإلهي، ودفع ديون البشرية، كافٍ، وأنه لا توجد ذبيحة أو مذبح سوى ما حدث وما قُدِّم يوم

الجمعة العظيمة.

رابعاً: اعتبر قادة الاصلاح أن الإفخارستيا هي ذكرى عقلية تُعيد ما حدث **في الماضي**، وأن التحول الفكري والانتباه هو غاية الاحتفال بالسر.

وبسبب هذا التعارض الشديد، عانى البحثُ في التراث القديم من هذا التمزُّق الذي أدَّى إلى القول بأنه حتى الآباء الكبار مثل أثناسيوس وذهبي الفم وغيره، لم يفهموا رسائل الرسول بولس، ولا حتى درسوها! بل كانت النغمة السائدة في القرن التاسع عشر، هي أن المسيحية بدأت على يد بولس، وأن مارتن لوثر هو الذي أعاد اكتشافها، وأن ما حدث قبل لوثر، هو انحرافٌ تام، وأن هذا يشمل الغرب والشرق معاً!!!

هذه الصورة القاتمة، مصدرُها تحكُّم الفكر النظري الصادر عن جهتين متعارضتين، كلٌ منهما لها نظرية لاهوتية صاغتها الحضارة والفكر السياسي والقانوني، وصارت هي القالب الذي يخفي في داخله جوهر الإنجيل. ويمكن لمن يدرس هذه الحقبة التاريخية أن يدرك على الفور أن الجدل حول التبرير عند بولس الرسول، أو عن العلاقة بين ذبيحة الصليب وذبيحة الإفخارستيا، إنما كان يدور بعيداً عن ساحة الليتورجية وصلوات الكنيسة، بما فيها الكنائس الغربية نفسها. وغياب الليتورجية يعني أن الفكر البشري، إنما يدرس ويحلل الفكر، دون أي اعتبار للممارسة الكنسية نفسها، وبالتالي يفقد صلته بالواقع نفسه. فما هي الممارسة سوى ما يدخل الحياة اليومية نفسها من أفكارٍ وعادات وتصرفات، تتصل بالواقع اليومي الذي يعيشه الإنسان ويحياه؟ وهنا يجد الإنسان أنه أمام ظاهرة غريبة، وهي أن الفكر اللاهوتي، يدرس ويحلل ويناقش إحدى القضايا الكبرى، وهي موت المسيح على الصليب، دون أن يضع هذه القضية في إطار الصلاة والحياة المسيحية نفسها. في حين أن صلب المسيح على الصليب، هو موضوعٌ متعدد الألوان، أكبر من أن تحتويه فكرة أو نظرية، مهما كان قائلها ونوعها.

النظريات لا تصلح في مجال اللاهوت:

تنشأ النظريات عادة في الفلسفة والعلوم لكي تصحح أو تقدِّم فكرةً جديدة عن علاقةٍ أو علاقات أو ممارسة أو ممارسات. فنظرية الجاذبية مثلاً، وُلِدت لكي تشرح سبب سقوط الأشياء. ونظرية التذكر عند أفلاطون، وُلِدت لكي تشرح كيف يفهم الإنسان بعض الأمور التي لم يدرسها ولم يعرف عنها شيئاً بالمرة، وفجأة يكتشف أنه يعرف ذلك الموضوع؛ لأنه تذكر ما حدث له في العالم الروحي قبل أن تولد نفسه في الجسد..

وتجسُّد ابن الله وموته وقيامته، هو حياةُ شخصٍ، والاشخاص لا يمكن إخضاعهم لنظريةٍ، مهما كانت، بل المجال الوحيد لذلك هو التاريخ. وفي العصر الحديث، أضاف التحليل النفسي، الكثير من الحقائق والأخطاء إلى دراسة الاشخاص. فالتاريخ يدرس ما يحيط بالأشخاص، ويطرح على دارسي التاريخ الحقائق التاريخية التي لم يعرفها الناس إلى جانب ما يتوصل إليه الباحث من حقائق عن الحياة النفسية. ومجال دراسة الشخص في التاريخ أفضل منها في الفلسفة؛ لأن حياة الشخص وما فيها من أحداث، تبقى هي محور البحث والتحليل.

أمَّا اللاهوت المسيحي، فهو ذو خصائص تختلف تماماً عن الفلسفة والتاريخ. ولكن يحدث أحياناً أن يتم تجاهُل هذه الخصائص تماماً، وبالتالي إخضاع اللاهوت إلى منهج البحث الفلسفي والتاريخي. ولذلك علينا أن نتذكر بعض هذه الخصائص قبل أن نناقش القصور الظاهر في الفكر النظري المسيحي:

أولاً: المسيحُ شخصيةٌ تاريخيةٌ مثل كل أشخاص التاريخ، ولكنه ليس مثل أشخاص التاريخ، بمعنى أنه لا يمكن أن يندرج في عِداد الأموات. فالقيامة تجعل من المستحيل كتابة *Biography* بيوجرافي عن المسيح، وإلاَّ عُدَّ ذلك من قبيل الإنكار الصريح لحقيقة حياته وقيامته. فالتاريخ يُكتب لكي يدرس الناس حياة الذين ماتوا، في حين أن المسيحَ حيٌّ إلى الأبد. والأناجيل ليست بيوجرافي للمسيح، بل هي بشارة.

ولذلك يبدأ التاريخ المسيحي بالقيامة؛ لأن المسيح اتحد بالرسل بعد قيامته، ويسجِّل ذلك الاختبار، الشهيد أغناطيوس الأنطاكي قائلاً:

> "أما أنا فأعرف وأؤمن أنه ظلَّ في الجسد حتى بعد قيامته، ولذلك قال لبطرس والذين معه عندما دنا منهم: "المسوني وجسُّوني واعلموا أنني لست خيالاً بلا جسد" (لوقا ٢٤: ٣٩)، وفي الحال لمسوه وآمنوا واتحدوا بجسده وروحه، فاستهانوا بالموت، وانتصروا عليه. وبعد قيامته أكل وشرب مثل البشر، لكنه كان متَّحداً بالآب في الروح" (إلى أزمير ٣: ١-٣).

ولعل القارئ يلاحظ أن التلاميذ لمسوا المسيح قبل القيامة، ولكن القيامة هي التي جعلت حياة المسيح تصبُّ في قلوب التلاميذ وفي أجسادهم، وبالتالي يتوقف منهج البحث التاريخي تماماً عند القيامة، وليس غريباً أن أنكر بعضُ الباحثين القيامة؛ لأنها فعلاً لا تخضع لمنهج التحليل التاريخي.

ثانياً: ولأن البشرية تعاني من فجوةٍ بين الفكر والعمل، وبين النظرية والممارسة، وهي معاناة مصدرها المعروف هو الخطية، فالإنسان يتكلم كثيراً ويفكر كثيراً، ولكن حياته كثيراً ما تختلف عن فكره، ولا ينطبق الفكرُ على الحياة. ذلك التمزُّق هو سِر حيرة الناس وهم يقرأون الأفكار الجيدة والكلمات النافذة لأشخاصٍ انتحروا أو انجرفوا وراء المخدرات ..الخ.

فالحقُ قد يسطع في حياةِ وكلماتِ شخصٍ لفترةٍ، ولكنه يخبو بعد ذلك. والفجوة بين فكر الشخص وحياته وكلماته وممارسته، لا تظهر في حياة المسيح بالمرة، بل إن المسيحَ هو الشخصُ الوحيد الذي صاغت حياته أقواله، فقد قال مثلاً: "أنا هو القيامة"، وأقام الموتى. وقال: "أنا هو الحق"، وأعلن الآب السماوي. وقال: "أنا الحياة"، ورَدَّ البصرَ للعميان، وشفى المرضى. وقال: "مَن يأكلني يحيا بي"، ولذلك أعطى جسده ودمه وقال: "خذوا كلوا هذا هو جسدي ..".

وهنا، نجد أن تحليل العبارات والأقوال يعتدي على الوحدة القائمة بين الكلمة والحياة، وبين الفكر والكيان، وهو أمرٌ لا يملك التاريخ ولا الفلسفة ولا العلوم التجريبية، الوسائل التي تجعلهم قادرين على تحليل ودراسة العبارات والأقوال التي صدرت عن المسيح.

ثالثاً: والمسيح فوق التاريخ، وفوق الفكر النظري والفلسفي، بشكلٍ خاص؛ لأنه الاله المتجسد. وقضية لاهوت المسيح هي قضية اللاهوت المسيحي، بل هي إحدى خصائص المسيحية الأساسية. وقد يملك الباحث الأدوات والنظريات التي تمدُّه بكل ما يحتاج إليه لإثبات إنسانية المسيح، وليس لدينا قصورٌ في هذا المجال بالمرة. ولكن عندما يمتد البحث التاريخي والفلسفي إلى أُلوهية ربنا يسوع المسيح، يجد الباحث أنه قد دخل مجال الصلاة والليتورجية، وأن ما يقال في مجال التاريخ والفلسفة، لا يصلح بالمرة، ولا ينطبق على أُلوهية المسيح؛ لأن الإنسان لا يدرس الله، وإنما يتأمَّله، ويصلي إليه، ويصادقه في سَفَرٍ طويلٍ، يكتشفُ الإنسان فيه ذاته، ويكشفُ أثناء ذلك، ذلك الكائن العجيب الفائق الذي لا يمكن إدراكه. ويكفي أن نلاحظ كيف تواجهنا الليتورجية بهذه الحقيقة في أوشية الإنجيل التي تسبق قراءة الإنجيل:

"أيها السيد الرب يسوع المسيح إلهنا الذي قال لتلاميذه القديسين ..

طوبى لعيونكم لأنها تبصر، ولآذانكم لأنها تسمع،

فلنستحق أن نسمع ونعمل بأناجيلك المقدسة ..

لأنك أنت هو حياتنا كلنا

خلاصنا كلنا

رجاؤنا كلنا

شفاؤنا كلنا

وقيامتنا كلنا".

وعندما يصل الإنسان إلى مرحلةٍ يقول فيها لآخر –مهما كان هذا الآخر– أنت هو **حياتي وخلاصي ورجائي وشفائي وقيامتي** .. فإن كل النظريات تنهار؛ لأننا لسنا إزاء فكرةٍ، أو قولٍ، أو عباراتٍ، بل أمام حياةِ شخصٍ هو فوق الزمان بكل أبعاده. ولعل القارئ يرى كيف يتعذَّر الفصلُ بين الكلام الذي سوف يتلوه القارئ، والشخص الحاضر. والطقس هنا يحرص على أن يُبرز هذه الحقيقة؛ لأن العبارة التي تقال أثناء الطواف حول المذبح، وقبل خروج الشماس حاملاً الإنجيل، تؤكد لنا أننا أمام حدثٍ فريد:

"الآن يا سيد تُطلق عبدك بسلام؛ لأن عيني قد أبصرتا خلاصك الذي أعددته قدام جميع الشعوب، نورَ إعلانٍ للأمم، ومجداً لشعبك إسرائيل".

وقائل هذه العبارة عاين المسيح بالجسد. ولذلك يأخذ الكاهن في هيكل العهد الجديد ذات الكلمات، ويضع قدراً كبيراً من البخور، لكي يخرج في سحابةِ بخورٍ هي – حسب الشرح القديم– هي سحابة "الشاكيناه"[١] أو الحضور الإلهي الذي كان يرافق حضور الله عندما يتكلم مع بني إسرائيل، والكلمات تؤكِّد ذلك. والسحابة هنا هي سحابة المجد التي ظهرت في التجلي، وفي الصعود. وهنا يعبِّر البخور عن حضور "الشاكيناه"، أو الروح القدس الذي ينقل إلينا كلمة الله التي تُقرأ، والذي حلَّ على الابن المتجسد، لكي يحل على الإنسانية. فالروح القدس، هو الذي يعلِن المسيح، ولذلك تأتي كلمات سمعان الشيخ: "لأن عيني قد أبصرتا خلاصك"، مؤكِّدةً الحضور السري للابن المتجسد، الآتي على سحابة الروح القدس؛ لكي ينقل الحياة بالكلمة:

---

(١) الشاكيناه، "سُكنى الله"، والسحابة حسب تفسير الآباء، هي الروح القدس.

"أقمت الطبيعة بالكلمة" (القداس الغريغوري).

إزاء هذا، لا يمكن خلقُ توافقٍ بين ما يبدأ بفكرة، أي بين النظرية، وبين ما يبدأ بالحياة وبالعلاقة، أي علاقة الإله الخالق الذي تجسَّد لكي يفتدي الإنسانية. واستيعاب أُلوهية المسيح، لا يكون بحشد النصوص الكتابية، أو الصلوات التي تؤكد أُلوهيته، وإنما بقبول الحياة الآتية منه، والتي توهَب في الأسرار وبالكلمة الإلهية. وهنا، الكلمة الصادرة عن الابن، هي القوة الخالقة التي تخلق وتَحوُد؛ ولذلك تعبِّر الليتورجية عن أُلوهية ربنا يسوع بالإشارات الدائمة إلى قدرته الخالقة. ولذلك، بعد "الهوس الثاني"، يرتل الشعب:

"فلنشكر المسيح إلهنا مع المرتل داود النبي،

لأنه خلق السموات وجنودها، وأسَّس الأرضَ على المياه.

أخرجَ الرياح من خباياها، ونفخ في الأشجار حتى أزهرت".

هذه القوة الخالقة هي الدليل على حضوره الدائم الذي يغيِّر كل الأشياء، ويجدِّد الحياة.

وفي الإفخارستيا بشكلٍ خاص، حَرِصَ الآباءُ على عدم مناقشة الكلمات: "هذا هو جسدي .."؛ لأنها كلمات الخالق الذي خَلَقَ كل الأشياء، ولعل أقدم شهادة على ذلك هي شهادة القديس ايريناوس:

"والذين يقولون (الغنوسيون) إن خلقتنا كانت نتيجةً لنقصٍ وجهلٍ وشهوةٍ، هؤلاء إذا قدَّموا للخالق أي تقدُمة، فإنما يقدِّمون ثمار الجهل والشهوة والنقص، وبذلك يخطئون ضد أبيهم (خالقهم) ويحتقرونه، ولا يقدِّمون له الشكر. أمَّا المعرفة الصحيحة، فهي التي تجعلنا على يقين من أن الشكر الذي يُقال على الخبز، إنما لكي يصير جسد ربنا، والكأس الذي يصير كأس دمه. وكيف يحدث هذا، إذاً لم يؤمن هؤلاء بأن الابن خالق الكون، أي

كلمته الذي به تثمر الأشجار، وتسيل مياه الينابيع، وتعطي الأرض الأثمار، أولاً الأوراق، فالسنابل، ثم القمح" (ضد الهرطقات، الكتاب الرابع ١٨: ٤).

وأُلوهية المسيح هي العقيدة الكامنة وراء صلوات الأواشي التي تشمل أغلب ما في الكون. ويمكن أن نلاحظ كيف يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم هذه الحقيقة:

"الذي يحوِّل القرابين الموضوعة إلى جسد المسيح ودمه، ليس إنساناً، بل المسيح نفسه، الذي صُلب عنا. الكاهنُ هو ممثلٌ له، ينطقُ بالكلمات، أمَّا القوة والنعمة، فهما للرب الذي يقول: "هذا هو جسدي"؛ لأن هذه الكلمات تحوِّل العناصر الموضوعة أمامنا. وكما أن الكلمات: "اِثمروا واكثروا" نطقَ بها مرةً ولا تزال تعمل عبر الزمن، وتعطي لطبيعتنا قوة الإنجاب، هكذا كلماته: "هذا هو جسدي"، نطقَ بها مرةً ولا يزال يعمل بها منذ أن نطقها في ذلك الزمان حتى يومنا هذا؛ لأنه بها يكمِّل الذبيحة" (ضد المتهودين العظة الثانية: ٦).

وتطبق الليتورجية هذه الحقيقة في هذه الصلاة:

"أنت يا سيدنا بصوتك وحدك، حوِّل هذين الموضوعين. أنت الحال معنا هيِّئ لنا هذه الخدمة المملوءة سراً. أنت اغرس فينا ذِكر خدمتك المقدسة. أنت ارسل علينا نعمة روحك القدوس. لكي تطهِّر وتنقل هذه القرابين الموضوعة إلى جسد ودم خلاصنا" (القداس الغريغوريوي، سر حلول الروح القدس).

وهنا لا يملك الفكر النظري أن يشرح هذه الحقيقة، بل تملك الصلاةُ أن تعلِن أن الربَّ الخالق، الذي خلق ودبَّر حياة كل الخلائق، هو وحده، بصوتِه الإلهي، ينطق هذه الكلمات: "هذا هو جسدي"؛ لكي يجعل الخبز والخمر جسده ودمه. وعجزُ النظريات هنا، مصدره أن التاريخ قد تحوَّل إلى خادمٍ يخدم أهداف الله. والكلمات هي

كلمات الخالق الحاضر دائماً في الخليقة، والحاضرُ بشكلٍ خاص في الإفخارستيا. وهنا، الكلمات ينطق بها الربُّ نفسه، ويرسلها مع نعمة الروح القدس، حسب شهادة الصلاة وحسب كلمات القديس يوحنا ذهبي الفم:

"هو نفسه رئيس الكهنة الذي يقدِّم الذبيحةَ التي تطهِّرُنا. وما نقدِّمه الآن هو بعينه ما قدَّمه. هذه التقدمة التي لا تنفذ .. إنها ليست ذبيحةً أخرى، كتلك التي كان يقدِّمها رئيسُ الكهنة (في العهد القديم). إنها ليست كلماتنا، بل هي كلمات الروح الإلهي" (عظة على الرسالة إلى العبرانيين ٦: ٧).

وتبرز هذه الحقيقة بشكلٍ أوفر وأدق في القداس:

"أيها الإله الواحد الذي في حضن أبيه

يا رب بارك

يا الذي بارَك في ذلك الزمان، الآن أيضاً بارِك

يا الذي قدَّس في ذلك الزمان، الآن أيضاً قدِّس ..

يا الذي أعطى تلاميذه القديسين ورسله الأطهار في ذلك الزمان، الآن أيضاً أعطنا وكل شعبك يا ضابط الكل الرب إلهنا".

وشهادة القديس يوحنا ذهبي الفم هامة جداً:

"نحن الآن نقوم بدور الخَدَم، لكنه هو بنفسه الذي يبارِك، هو الذي يحوِّل القرابين" (عظة ٨٢ على إنجيل متى فقرة ٥).

الذبيحة والقربان:

الكلمة اليونانية القبطية **ⲑⲩⲥⲓⲁ** أي ذبيحة، لا تختلف في الاستعمال الليتورجي عن الكلمة اليونانية القبطية **ⲁⲱⲣⲱⲛ** كلاهما –في حقيقة الأمر– يعبّران عن حقيقة التقديم، أو حسب التعبير القديم: "رَفع"، ولذلك، كلمات: ذبيحة – قربان – صعيدة – محرقة ... الخ وإن كان لها معاني مختلفة في العهد القديم، إلاَّ أنها في العهد الجديد، وقد اختلف الموقف تماماً، صار المعنى واحداً؛ لأن طبيعة عمل المخلص وشخصيته استدعت استخدام الكلمات القديمة بشكلٍ جديد. ولكي ندرك هذه الحقيقة، علينا أن نتأمل في معاني كلمة قربان **ⲁⲱⲣⲱⲛ** وهي ذات الكلمة التي تُترجم في العهد الجديد العربي إلى "عطية، أو موهبة"، وذلك عند الإشارة إلى عطية الروح القدس، أو القربان الذي يقدَّم على المذبح: "إذا قدَّمت قربانك إلى المذبح" (متى ٥: ٢٣)، و"قَدِّم القربان الذي أمر به موسى" (متى ٨: ٤ راجع أيضاً متى ٢٣: ١٩).

بل حرص إنجيل مرقس على الإبقاء على الكلمة الآرامية "قربان"، وترجمها إلى "تقدمة، أو عطية، أو هدية": "وأما أنتم فتقولون إن قال إنسان لأبيه أو أمه قربانٌ، أي هدية هو الذي تنتفع به مني" (مرقس ٧: ١١).

ولأن الفعل والاسم يؤكدان "العطاء والتقديم"، جاء العهد الجديد ليقول إن الروح هو عطيةٌ وقربان وتقدمة يقدمها الله للإنسانية: "توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس" (أع ٢: ٣٨). وهي ذات الكلمة التي تُترجم إلى موهبة الروح القدس في (أع ٨: ٢٠)، عندما طلب سيمون الساحر **سلطان** الروح القدس، بينما تمسك القديس بطرس **بموهبة أو عطية** الروح القدس أو **هدية أو قربان**؛ لأن الروح لا يُعطى إلاَّ كتقدمة من الله. واستخدم المترجم كلمة "موهبة" مرةً أخرى عندما حلَّ الروح القدس على الأمم في بيت كيرنيليوس: "فبينما بطرس يتكلم حلَّ الروح القدس على جميع الذين كانوا يسمعون الكلمة، فاندهش المؤمنون الذين من أهل الختان كل من جاء مع بطرس لأن **موهبة** الروح القدس قد

انسكبت على الأمم" (أع ١٠: ٤٥).

وفي حقيقة الأمر، إن النص الذي يؤكِّد أن موت المسيح هو "هبة أو عطية الله"، نجده في الإصحاح الخامس من الرسالة إلى رومية حسب سياق الحديث: "ولكن ليس كالخطية كذلك أيضاً **الهبة** δωρεά". وموت المسيح هو "عطية البر" (رو ٥: ١٥)؛ "لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد فبالأولى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة **وعطية** البر" (رو ٥: ١٧).

وتستعمل الرسالة إلى العبرانيين الكلمة "قربان" مع الكلمة "ذبائح" لوصف خدمة العهد القديم (عب ١: ٥ – ٨: ٣ – ٩: ٩). وعندما يجيء الكلام عن تقدمة المسيح، فإن الرسول يستعمل الكلمة الطقسية تقدمة προσφορα وهي نفس الكلمة التي تستخدم أيضاً للذبائح والقرابين في العهد القديم (راجع عب ١٠: ٥ – ١٠: ٨). وذات الكلمة تُترجم في العربية إلى "قربان" حسب قول الرسول: "لأنه بقربان προσφορα قد أكمل إلى الأبد المقدسين" (عب ١٠: ١٤ – راجع أيضاً عب ١٠: ١٠).

وسخاء اللغة العبرانية واليونانية، لا يجب أن يكون سبباً لتضارب الأفكار، فالثابت هو أن القربان والصعيدة هو تقدمة حرة، وعطاء لا يقدَّم عن الخطايا، وإنما هو تقدمة محبة لله، وهو الشِّق الأول من عمل الرب نفسه، الذي بإرادته الحرة وبمحبته قدَّم ذاته قرباناً أو صعيدةً أو تقدمة محبةٍ للآب. أما الشِّق الثاني أو الوجه الآخر لذات الحقيقة، فهو أن المسيح ذبيحةٌ، ولا يجب أن ننسى أن كل المفردات الخاصة بالذبيحة والقربان والصعيدة هي من العهد القديم، ولكن يجب أيضاً أن لا ننسى أننا أمام حقيقة جديدة أسمى بكثير من كل الذبائح والقرابين والتقدمات التي عرفها العهد القديم، ولذلك علينا أن نحصر جوانب سمو ورفعة ذبيحة وقربان الرب يسوع كما يلي:

أولاً: كانت الشريعة القديمة هي التي تطلب من الإنسان أن يقدَّم الذبائح والقرابين والصعائد، فالإنسان هو الذي يقدِّم. أمَّا في العهد الجديد، فلا توجد شريعة

تطلب من الإنسان أن يقدِّم ذبائح عن الخطية أو قربان أو صعيدة؛ لأن المسيح له المجد هو الذي قدَّم، ليس حسب الشريعة القديمة، بل حسب غنى ورحمة الله. وتعبِّر الليتورجية عن هذه الحقيقة بشكلٍ ظاهرٍ في كل صلواتها، ولكن نكتفي بهذه المقاطع:

"يا الله الذي من أجل محبتك للبشر التي لا يُنطق بها، أرسلت ابنك الوحيد إلى العالم ليرد إليك الخروف الضال. نسألك يا سيدنا، لا تردنا إلى الخلف، إذ نضع أيدينا على هذه الذبيحة المخوفة غير الدموية. لأننا لا نتكل على برنا بل على رحمتك، هذه التي بها أحييت جنسنا" (القداس الباسيلي، صلاة الحجاب).

"هذا الذي أحبَّ خاصته الذين في العالم، وأسلم ذاته فداءً عنا إلى الموت الذي تملَّك علينا" (القداس الباسيلي).

ثانياً: لا يقدِّم الله ذبائح بالمرة في العهد القديم، وإنما الإنسان هو الذي يقدِّم الذبائح حسب نصوص الشريعة الواردة في اللاويين والتثنية. أمَّا في العهد الجديد، فإن الموقف يختلف؛ لأن الذي يقدِّم هو الله. كان الإنسان يقدِّم لله، أما الآن فإن الله هو الذي يقدِّم للإنسان، ويشرح الرسول هذه الحقيقة في إحدى المناسبات الأساسية التي يقارِن فيها بين ذبائح العهد القديم، **وموت المسيح الحر والاختياري على الصليب**، فيقول: "لذلك عند دخوله العالم (التجسد) يقول ذبيحةً وقرباناً لم تُرِد ولكن هيَّأت لي جسداً. **بمحرقات وذبائح خطية لم تُسر**، ثم قلت هنذا أجيء في درج الكتاب مكتوبٌ عني لأفعل مشيئتك يا الله" (عب ١٠: ٥-٧). وكما هو واضح، فإن اعتبار ذبيحة الصليب ذبيحة خطية، مثل ذبيحة الخطية في العهد القديم، هو النقطة الأساسية التي يرفضها الرسول. وحتى لا يتبادر إلى ذهن القارئ، أننا هنا نحمِّل كلمات الرسول معاني ليست واردة في النص، نكتفي بأن نسجِّل باقي النص نفسه: "إذ يقول آنفاً (سابقاً) إنك ذبيحة وقرباناً ومحرقات وذبائح للخطية لم تُرِد، ولا سررت بها **التي تقدَّم حسب الناموس**، ثم قال هنذا أجيء **لأفعل مشيئتك يا الله**. ينزع الأول (أي الذبائح والقربان

والمحرقات وذبائح الخطية)؛ لكي يثبِّت الثاني (وهو ما يذكره الرسول مباشرةً)، فبهذه المشيئة نحن مقدَّسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرةً واحدةً" (عب ١٠: ٨-١٠).

ومن هذه الكلمات الواضحة التي لا تحتاج إلى تأويل، يظهر بوضوح أن موت المسيح على الصليب والذبيحة والقربان الذي قدَّمه، لا تربطه بالناموس الموسوي وشريعة العهد القديم أية علاقة. صحيح أن كل هذه الذبائح كانت رموزاً وعلامات للذبيحة الأعظم، ولكن الرمز شيء والحقيقة شيءٌ آخر، وبالتالي لا يجوز أن نأخذ نصوص العهد القديم لكي نشرح الكامل، وأن نفهم حقيقة الموت الاختياري على الصليب، كما نفهم تقديم ذبائح العهد القديم الاضطراري. وعن هذه الحرية يقول الرب: "لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي لآخذها أيضاً ليس أحد يأخذها مني بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن اضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً. هذه الوصية قبلتها من أبي (يوحنا ١٠: ١٧-١٨). هذه الحرية الكاملة لا تتوفر في ذبائح العهد القديم. ورغم وضوح كلمات الرب نفسه، إلاَّ أننا سنكتفي بشرح القديس يوحنا فم الذهب، نظراً لوجود عظاته على إنجيل يوحنا في أيدي بعض القراء:

> "لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي ... ما هو أكثر اتضاعاً من الاتضاع الظاهر في هذه الكلمات، كأن المخلص سوف يُحَب بسببنا، وبسبب موته عنا!! فهل كان بدون محبة الآب قبل ذلك (أي قبل موته)؟ هل بدأ الآب الآن يحبه، أم أنه صار فعلاً بسبب محبته (الآب) له (الابن)؟ هل ترون كيف تنازل إلى تواضعنا؟ وما الذي كان يريد تحقيقه هذه المرة ؟ لقد اتَّهمه (اليهود) بأنه مخادعٌ، وبذلك هو ضدٌّ للآب؛ لأنه جاء لكي يفسد ويهلك. أما هو (المسيح)، فقد كان يقول لهم: "إذا لم تصدقوا أي شيء، فصدقوا هذا على الأقل، وهو أنني أُحبُّكم لأن الآب يحبكم كما أُحبُّكم أنا، وإنني أنا أحبكم لهذا السبب، لأنني أموت عنكم. وبالإضافة إلى هذا، فقد أراد أن يؤكِّد هذه النقطة، أنه لم يكن مرغماً على أن يذهب إلى موته؛ لأنه لو كان الموت ضد إرادته، فكيف استطاع هذا الفعل (الموت) أن يثير محبة الآب؟ وأيضاً إن موته

كان مطابقاً لإرادة الآب. ولا يجب علينا أن نتعجب إذا كان الرب قد صاغ كل هذا في كلمات بشرية ... ولأن اليهود كانوا يرغبون في قتله، أعلن (الربَّ): إذا لم أريد الموت، فان جهودكم باطلة. وبالجزء الأول من العبارة: "ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي"، أكَّد (الربُّ) حقيقة الجزء الثاني من نفس العبارة: "لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها"، أي تأكيد قيامته بواسطة موته. وهذا هو الحق المدهش والعجيب. وحقاً، الموت والقيامة قد تمَّا بشكلٍ غريبٍ ومدهش ومضاد لسير الأحداث. ولذلك، دعونا نفحص كلماته: "لي سلطان أن أضع حياتي" عن قرب. لقد أعلن (الربُّ) من منا ليس له سلطان لأن يضع حياته؟ لأنه من الممكن لمن يشاء أن يهلك حياته. ولكن (الرب) لم يكن يتكلم عن هذا. فكيف قال إذاً: "لي سلطان أن أضعها"؟ لقد أراد أن يقول إنه لا يوجد أحدٌ قادرٌ على أن يأخذ حياتي مني إذا لم أشاء هذا. وكما هو معروف (هذه الحرية) غير متوفرة لأي إنسان، لأننا لا نملك هذا السلطان؛ لأننا لا نملك أن نضع حياتنا إلاَّ بأن نقتل أنفسنا، أو أن نكون ضحايا المتآمرين القادرين على قتلنا، وبالتالي ليس لدينا السلطان لأن نضع حياتنا بالشكل الذي نريد، بل كثيراً ما يحدث أن تؤخذ حياتنا منا ضد إرادتنا.

أمَّا بالنسبة (للمسيح)، فالعكس هو الصحيح؛ لأنه على الرغم من أن الآخرين تآمروا على قتله، إلاَّ أنه كان قادراً على أن يرفض أن يضع حياته، ولذلك أعلَن: "ليس أحدٌ يأخذها مني"، وأضاف: "لي سلطان أن أضع حياتي"، أي "أنا وحدي فقط القادر على أن أضعها، وليس هذا صحيحاً بالنسبة لكم. وبالإضافة إلى ما ذكرناه، فإن (الرب) لم ينطق بهذا التصريح في بداية خدمته؛ لأن هذا التصريح كان سيحتاج إلى الدليل، أما الآن، فقد أضاف البرهان على صحة الكلمات التي قالها وبالأعمال التي عملها. وحتى عندما تآمروا عدة مرات على قتله، لم يكن لديهم القدرة على حتى اعتقاله؛

لأنه هرب من بين أيديهم عدة مراتٍ، وعجزوا عن أن يمسكوه. وأخيراً قال بشكلٍ واضحٍ: "ليس أحدٌ يأخذها مني". وما دام هذا صحيحاً، بات من الواضح أنه ذهب إلى موته بإرادته الحرة، وتبعاً لذلك، يظهر أيضاً أنه ما دام قد مات بإرادته، صار من المؤكَّد أنه عندما أراد أن يأخذ حياته التي قدَّمها، استطاع أن يفعل ذلك. لأن لو كان موته هو أكثر من موت بشرٍ، فلا تشك فيه (الرب)؛ لأنه قادرٌ على أن يضع حياته، وبرهن على أنه قادرٌ بسلطانه على أن يأخذها. فهل تستطيعون الآن أن تدركوا كيف أثبت النقطة الثانية (القيامة) بالنقطة الأولى (الموت) في هذه العبارة؟ وبموته برهن على أن القيامة هي فوق الشك (التساؤل).

"هذه الوصية قد قبلتها من أبي"، ما هي هذه الوصية؟ أن يموت عن العالم. وحقاً أنه لم ينتظر حتى يسمع الوصية، وبعد ذلك يقبل الوصية، وبالتالي أنه لم يكن محتاجاً لأن يتعلم الوصية؟" (العظة ٦٠ على يوحنا ١٠: ١٤-٢١ الترجمة الإنجليزية في طبعة الجامعة الكاثوليكية ص ١٣٦ – ١٣٩).

وهنا تبرز قيمة الذبيحة التي قدَّمها الابن بحريته وبإرادته التي كانت في انسجامٍ كاملٍ مع إرادة الآب التي تعبِّر عن محبة الآب للابن بسبب موته على الصليب. ولذلك، تحرص الليتورجية على أن تصف الصليب دائماً بأنه: "الصليب المكَّرم"، وأن تصف موت المسيح بأنه "موته المحيي"، وحتى في الكلام عن الجسد: "هذا هو الجسد المحيي"، مما يُبعد تماماً كل النظريات القانونية السائدة في كتب التفسير عن موت المسيح تحت وطأة الدينونة، وتحت ثقل غضب الآب. وصلاة الاعتراف في القداسات القبطية جديرةٌ بالاعتبار، ذلك أن الكاهن يحمل (الصينية)، وبها الجسد على يديه، ويقول هذه الكلمات التي تشرح الإيمان الرسولي كله:

"أؤمن .. وأعترف إلى النَفَسِ الأخير أن هذا هو الجسد المحيي الذي ⲉⲧⲁ ابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح أخذه من سيدتنا .. والدة الإله

وجعله واحداً مع لاهوته بغير اختلاط ...

واعترف الاعتراف الحسن أمام بيلاطس

وأسلمه عنا على خشبة الصليب المقدسة **بإرادته وحده عنَّا كلنا**.

بالحقيقة أؤمن أن لاهوته لم يفارق ناسوته

يُعطى عنَّا خلاصاً وغفراناً للخطايا وحياةً أبديةً لمن يتناول **منه**".

وتُبرِز هذه الصلاة عدة نقاط هامة وأساسية، ولكن نكتفي منها بنقطة واحدة، وهي **أن الإرادة هي نقطة التقاء موت المسيح على الصليب بالإفخارستيا**، أي إرادة المسيح الحرة، وهي في القداسات القبطية، تظهر بشكلٍ أكثر وضوحاً وأكثر دقة عن القداسات البيزنطية:

"لأن ابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح في الليلة التي أسلم ذاته ليتألم عن خطايانا، والموت الذي قبله بذاته بإرادته وحده عنَّا كلنا، أخذ خبزاً على يديه الطاهرتين" (القداس الكيرلسي).

"لأنك في الليلة التي أسلمت فيها ذاتك بإرادتك وسلطانك وحدك، أخذت خبزاً على يديك الطاهرتين" (القداس الغريغوريوي).

ويرتفع الإيقاع الروحي في القداس الباسيلي ليضع في كلماتٍ موجَزة: "لأنه فيما هو راسمٌ أن يسلِّم نفسه للموت عن حياة العالم"، السِّرَّ الفائق، وهو التدبير، أو الخطة السابقة التي رسمها (قررها سابقاً) الربُّ منذ الأزل لكي يقدِّم ذاته. والقداسات هنا تأخذ التعليم الرسولي من ذات كلمات الرب نفسه من (يوحنا ١٠: ١٧-١٨)، ومن الكلمات التي صاغها الرسول بعد ذلك: "بهذه المشيئة (الإرادة) نحن مقدَّسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرةً واحدةً" (عب ١٠: ١٠).

وتصبح الإرادة أو المشيئة الواحدة التي رَسَمَت العشاء الرباني، ورَسَمَت في حرية كاملة موت الصليب، هي ذات الإرادة الواحدة للمسيح الواحد الذي تعترف به الكنائس غير الخلقدونية بأنه "طبيعة واحدة متجسِّدة ومشيئة واحدة إلهية – إنسانية". وهي ذات الإرادة الواحدة التي لا تنفصل عن تقديم الجسد مرةً واحدةً. ولأن الإرادة واحدة، والشخص واحدٌ، والجسدُ واحدٌ، تصبح **الواحدية** هي السمة الواضحة، وهي ذات السمة التي تجعل الكاهن القبطي يقول، وهو يمسك (بالصينية)، ويحمل جسد الرب على يديه: "هذا هو الجسد الذي ابنك الوحيد"، والذي أخذه الرب من العذراء، والذي جعله واحداً مع لاهوته، والذي أسلمه عنا بإرادته على الصليب، والذي يُعطى عنَّا الآن خلاصاً وحياةً أبديةً. وطبعاً، يحتاج المصلي والقارئ إلى إسقاط كافة التفاسير التي تحاول عن طريق السؤال الماكر: "كم مرة قدَّم المسيح ذاته؟ وكم مرة مات؟ وكم مرة صنع الخلاص؟" ... كل هذه التصورات الخاطئة مصدرها في حقيقة الأمر نسيان أن الإفخارستيا هي سر أُلوهية الرب المتجسِّد، وهو ما تعبِّر عنه هذه الصلاة:

> "أيها المسيح إلهنا القوة المخوفة الغير المفهومة التي لله الآب الجالس على العرش الملتهب الشاروبيمي .. لكن أنت بتعطفك الغير الموصوف ولا مُخبَر به، إذ تعرف ضعف وانغماس جبلتنا إلى أسفل، امحُ كل أدناس سيئاتنا؛ لكي لا يكون لنا دينونةً ولا وقوعاً في دينونةٍ، هذا السر الذي للاهوتك" (صلاة صلح تقال للابن للقديس ساويرس).

وبالتالي، الإرادة الإلهية التي قالت: "ليكن نور، فكان نور"، هي ذات الإرادة الإلهية التي تقول: "خذوا كلوا هذا هو جسدي". وحرصُ القداسات والآباء على تأكيد أن المخلص وحده هو الذي بصوته وبإرادته يحوِّل الخبز والخمر إلى جسده ودمه، وأن قدرته الخالقة هي ذات قدرته التي تهب لنا جسده الذي يوحِّد الصليب والقيامة بالإفخارستيا؛ لأن الإرادة الواحدة هي التي تجمع الأحداث المختلفة المتباعدة زمنياً ومكانياً، لكي تخلق الهدف الواحد، أي الخلاص. والإرادة الواحدة هي التي تجعل الكاهن يشير إلى ميلاد المسيح له المجد من العذراء والدة الاله.

والإرادة الواحدة هي التي تجمع هذا الميلاد بالموت وبالقيامة وبالإفخارستيا، وتعبِّر صلاة الشكر في القداس الغريغوري عن هذه الحقيقة بقولها:

"نشكرك أيها السيد المسيح إلهنا الكلمة الحقيقية التي من جوهر الآب الغير الدنس القدوس؛ لأنك أحببتنا هكذا، وبذلت ذاتك للذبح من أجل خطايانا. شفيتنا بضرباتك وبرئتنا بجراحاتك، وأنعمت علينا بالحياة من قِبَل جسدك المقدس ودمك الكريم، هذين اللذين جعلتنا مستحقين الآن أن ننال منهما .."

وتأتي صلاة القسمة في القداس الغريغوري لكي تؤكد واحدية الشخص والفعل والإرادة والتقديم. ومن نص هذه الصلاة يسطع تقديم المسيح حياته للكنيسة في الإفخارستيا من خلال تجسده وموته:

"مباركٌ أنت أيها المسيح إلهنا ضابط الكل، مخلِّص بيعتك، أيها الكلمة المعقول والإنسان المنظور. **الذي من قِبَلِ تجسُّدِك غير المدرَك، أعددت لنا خبزاً سمائياً، جسدك المقدس، هذا السِّرّي والمقدَّس في كل شيء. ومزجت لنا كأساً من كرمةٍ حقيقيةٍ التي هي جنبك الإلهي غير الدنس.** هذا الذي من بعد أن أسلمت الروح فاض لنا منه ماءٌ ودم، هذان الصائران طهراً لكل العالم ... أنت من أجل تحننك الجزيل جعلتنا أهلاً للبنوة بالصبغة المقدسة وعلمتنا مثال الصلاة السِّرية لندعو أباك بها ...".

بل وتأتي صلاة قسمة عيد القيامة لتؤكد أن الخلاص لا تنفصل أحداثه، فهو ليس حلقات متباعدة مثل أحداث التاريخ، كلٌّ منها تفصله فترة من الفترات الزمنية، بل الخلاص، رغم تتابع أحداثه، هو عملٌ واحد متصل لشخصٍ واحد، وتقول الصلاة:

"أيها المسيح إلهنا رئيس كهنة الخيرات العتيدة، ملك الدهور غير المائت الأبدي، كلمة الله الذي على الكل ... بذوقه الموت عنَّا خلَّص الأحياء،

وأعطى القيامة للذين ماتوا. ونحن أيضاً الجلوس في الظلمة زماناً، **أنعم لنا بنور قيامته من قِبَل تجسده الطاهر**".

فالتجسد هو الذي أعدَّ الخبز السماوي، وجنبُ المسيح على الصليب فاض منه الماء والدم، والقيامة هي قيامة الجسد الذي أخذه الرب من والدة الإله القديسة مريم ... فالإفخارستيا ليست هي الصليب فقط، ولا هي القيامة فقط، بل هي المسيح كله. وبالتالي، عندما ظهرت نظريات الفداء في العصر الوسيط، ثم نبتت حركة الإصلاح بعدها، وكانت النظريات تدور حول الزمن والحدث والأُسلوب الذي حقَّق به الرب الخلاص، وحصرت هذه النظريات الخلاصَ في الموت على الصليب فقط، فقد قَلَعَت هذه النظريات الأسرار من جذورها، رغم أنها ولِدَت في بيئة الكنيسة الرومانية التي حفظت الأسرار الكنسية. ويكفي أن نتذكر ما سبق وأشرنا إليه، وهو إن كان العدل والرحمة قد اصطلحا يوم الجمعة الكبيرة، وتمَّ الخلاص، فإن الإفخارستيا تفقد صلتها العضوية بالصليب وبالقيامة، وتنفصل بسبب منطق النظرية نفسها، فقد تمَّ كل شيء وبالتالي، ما الذي نفعله بعد كمال الخلاص؟

ولو تصوَّرنا أن المسيح أرضى العدل، ودفع الثمن المطلوب للآب، صار الدم في كأس الإفخارستيا هو حلقةً جديدة وحدثاً لا تربطه بأحداث الجمعة الكبيرة أية صلة، وتعيَّن على أصحاب هذه النظرية أن يخترعوا الصلة العقلية، وان يبرروها من نصوص الكتاب المقدس نفسه ...

كلُّ ذلك، هو بقاء الفكر أسيراً للتاريخ والماضي، ناسياً أن القيامة هي بداية التاريخ الجديد. ولعل الأخطر من كل هذا وذاك، أن نظريات الفداء، قد قطعت العلاقات الإلهية – الإنسانية، وأغلقت على العلاقات الإنسانية بالله بشكلٍ خاص، بابَ التاريخ، وجعلت الإنسان ينظر إلى ما حدث، لا إلى ما يمارَس، وما يراه ويحياه ويفكر فيه. ومسيح الماضي، هو فكرةٌ في كتاب أو في عقل. أمَّا الحي ربُّ الدهور، فهو ربُّ الحياةِ الذي يتجلى عبر أجيال التاريخ، ويمد يده للبشرية لكي يرفعها من الموت إلى

الحياة.

الذبيحة الواحدة:

جاءت النظريات القانونية عن إرضاء العدل الإلهي بمشكلةٍ لا وجود لها أصلاً في العهد الجديد، ولا في التراث المسيحي القديم الشرقي والغربي السابق على لاهوت العصر الوسيط. فالغرامة والدين يُدفع مرةً واحدة، وبالتالي حكمُ البراءة يصدرُ مرةً واحدة، وهكذا جاء تفسير عبارة "مرةً واحدة" (عب ٧: ٢٧، ٩: ١١، ٩: ٢٣-٢٧، عب ١٠: ١٠)؛ لكي يؤكد بأن ما حدث على الجلجثة، لا يمكن أن يُعاد أو يتكرر نظراً لعدم محدودية الثمن المدفوع. والتحليل القانوني الدقيق حسب القواعد المعروفة في كافة التشريعات القانونية، يحدد قيمة الغرامة وقيمة الثمن.

والثمن غير المحدود هو دم المسيح، أي أن المسيح دفع ما هو إلهي؛ لأن صفة "غير المحدود" لا تنطبق على ناسوت المسيح، إلاَّ إذا وقعنا في الهرطقة الأوطاخية التي جعلت المسيح طبيعة إلهية واحدة، وصار الدمُ المسفوك على الصليب هو الدم الإلهي الذي لا تربطه بالناسوت صلة، سوى صلة الاسم فقط، أي اسم "دمه"، وهو اسمٌ بلا مدلولٍ حقيقي.

وما أكثر الاعتراضات التي تساق على فكرة الثمن، والتي يضيق عنها المجال هنا، ولذلك نكتفي بالقول بأن هذه الفكرة تهدم العمل الإلهي نفسه. ولكننا لو تذكرنا أن فكرة الثمن هذه غائبةٌ عن التعليم الرسولي، وبشكلٍ خاص، القديس بولس، وأن الأساس هو محبة الله، وأن وحدة الجنس البشري هي وحدة الحياة، لوجدنا أن المسيح لم يمُت من أجل آدم الأول وحده، وإنما جاء كآدم الثاني لكي يعيد الحياة إلى البشرية، ولكي يخلق تضامن النعمة ووحدة النعمة، عوضاً عن التضامن والوحدة البيولوجية التي تؤدي إلى الموت (رومية ٥: ١٢-٢١). ذلك لأن آدم الثاني حوَّل كيانه الإلهي المتجسد، الإنسانية التي أخذها من والدة الإله، لكي يشركنا نحن في هذا التحول، وننال نحن أيضاً تجديداً

حقيقياً، لا مجرد حشدٍ من الأفكار عن التجديد.

فالذبيحة الواحدة في إطار الرسالة إلى العبرانيين ليست هي فقط النقيض لتعدد الذبائح في اليهودية، بل هي كما نرى من نصوص الرسالة نفسها، هي باقية إلى الأبد؛ لأنها:

١– قوة حياة لا تزول (عب ٧: ١٦).

٢– حياة شخص يوصف بأنه "ضامناً لعهدٍ أفضل" (عب ٧: ٢٢).

٣– قائمة بكهنوتٍ أبدي، وكيف يكون الكهنوت بلا قرابين (عب ٧: ٢٤).

٤– ولأن الكاهن والذبيحة هما واحد في العهد الجديد؛ يوصف الكاهن بأنه يقدر أن يخلِّص إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله الحي (عب ٧: ٢٥).

٥– لقد دخل المسيح إلى الأقداس غير المصنوعة بيد، أي السماء، وهنا الكلام عن الصعود الذي يشير اليه الرسول: "بعد ما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي" (عب ١: ٣)؛ "لكي يظهر أمام وجه الله لأجلنا" (عب ٩: ٢٤). ولأنه لا يقدم ذاته عدة مرات، بل مرةً واحدة، ودخل إلى مجده، صارت ذبيحته أو "ذبيحة نفسه" (عب ٩: ٢٧) قادرةً على أن تُبطل الخطية. والعلاقة العضوية بين الموت والخطية هي التي تجعل العهد الجديد يتكلم عن رفع خطية العالم (يوحنا ١: ٢٩)، وعن إدانة الخطية في جسد المسيح (رو ٨: ٣). وكل ذلك يعني أنه طالما تم القضاء على الموت بالقيامة، فقد تم القضاء على الجرثومة التي سبَّبت الموت، أي الخطية. وفصلُ الموتِ عن الخطية بالقيامة هو الذي يجعل للذبيحة "قوة حياة لا تزول".

وقد وقع بعض لاهوتي الغرب في خطأ ترتيب الخلاص حسب أحداث التاريخ، دون أي اعتبار لحرية إرادة الرب، وعطاء الحياة الذي كان يقدِّمه من آنٍ لآخر، ودون أي اعتبار لحقيقة ظاهرة بوضوح، وهي أن الرب يجمع أبعاد التاريخ كخالق دون أن يحصر

التاريخُ الربَّ ويحدد له عمله.

فالرب يسوع في التاريخ كخالق، ولكن التاريخ ليس في الرب يسوع. هو يجمع التاريخ في يده دون أن يجمعه التاريخ. واللهُ كائنٌ في الزمان، ولكن الزمان ليس في الله. وهنا تظهر عبقرية الليتورجية؛ لأنها تقدم في نصٍّ طويل، التاريخ كما تعرفه الليتورجية وليس التاريخ كما يعرفه المجتمع. فالزمان بكل أبعاده وأحداثه يرتِّبه الابن المتجسد لكي يخدم الغاية والهدف. ولاحظ، كيف يسير التاريخ مع غاية الخلاص في هذه الصلاة التي ننقلها كلها:

الأزل: "أيها الكائن الذي كان، الذاتي الازلي قبل الأكوان".

تمايز الابن عن الآب: "الجليسُ مع الآب، الوحيد معه في الربوبية".

المخلص والخلاص: "عنصر المراحم الذي شاء بإرادته أن يتألم عن الخطاة الذين أنا أولهم".

عجز الخليقة عن أن تخلص بواسطة مخلوق: "لأنك لما أردت أن تخلصني لم ترسل لي ملاكاً ولا رئيس ملائكة ولا كاروبيم ولا نبياً".

تجسد الابن وتواضعه: "بل أنت وحدُكَ نزلتَ من حضن أبيك إلى بطن البتولِ، وصرت كحقيرٍ، ومشيت على الأرض كإنسان، وهذا هو العجبُ في اتضاعك. المزودُ حملكَ كمسكينٍ، والخرق لفَّتَك، الأذرُعُ حملتك، وركَبِ البتول عظَّمَتُك، الفمُّ قبَّلَكَ، اللبنُ قوَّتَكَ".

الابن لا زال إلهاً، رغم تجسده: "أنت القائِتُ كافة الخليقة من نعمتك".

الآلام: "من أجلي يا سيدي، قِبلَتَ العارَ والتجديفَ والهوانَ والسبَّ والتهديدَ واللَّطم. وظلمك الشعبُ العنيد، ولم يعرفوا أنك أنت مخلِّص العالم، صرخوا في وجهك أن

تُصلَبَ عن شعبكِ، الشعبُ القاسي حمَّلَكَ خشبةَ الصليب من أجلي أنا الحامل قضية الموت بإرادتي".

الصَّلب: "رفعوكَ على العود، أنت الرافع كافة الجهات (الخليقة) بقوتك. وفي وقت عطشك سقوك خلاً، أنت الساقي جميع الخليقة من نعمتك..".

الموت: "دُفِنتَ في القبر كالأموات لكي تدفن آثامي..".

القيامة: "قمتَ يا مخلصي بالجبروت، وكسرت شوكة الجحيم عني".

الإفخارستيا: "وأعطيتني جسدك ودمك؛ لكي أحيا بهما، وأسمعتني صوتك قائلاً: مَن يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه؛ لأن جسدي مأكلٌ حق ودمي مشربٌ حق، مَن يأكلني يحيا بي".

الإفخارستيا، والتعليم والسلوك المسيحي: "علَّمتني حِفظ وصاياك، ودرسَ ناموسك، وصِحتَ خلفي قائلاً: تعال واقترب مني".

الإفخارستيا والتبرير: "اقترب مني لكي تتبرر من خطاياك".

الإفخارستيا ذبيحة وفدية تقدَّم للابن: "اقبل مني هذه الذبيحة فديةً عن خطاياي وجهالات شعبك".

الإفخارستيا والروح القدس: "حِل فينا بروحك القدوس، وطهِّرنا من كل إثم ورياء".

الإفخارستيا كفَّارة: "واجعل لنا جسدك ودمك كفَّارةً وفداءً وتمحيصاً لكل ذنوبنا؛ لأني تقدمت للمس جسدك ودمك، فلا تحرقني بهما يا جابلي، بل احرق كافة الأشواك الخانقة لنفسي".

الإفخارستيا والعذراء مريم: "اقبل هذه الذبيحة من والدتك لكي نأتي إليك وأنت تأتي وتحل فينا بروحك القدوس".

الصلاة الربانية تقال بالروح القدس: "وأنت تأتي وتحل فينا بروحك القدوس وبدالةٍ ندعو الله أباك أباً لنا".

التفسير الليتورجي للذبيحة الواحدة والقربان الواحد:

أدرك الآباء منذ زمن القديس باسيليوس، أن كلمة "واحد" هي من الكلمات الغنية ذات المعاني المختلفة، وأن كلمة "واحد" تعني "الدائم المستمر" (القديس باسيليوس الرسالة الخامسة).

فالطعام الواحد هو نوعٌ معيَّنٌ لا يتغير، يمكن أن يقدَّم عدة مرات. هذا لا ينزع عن الواحد صفة "الواحد". كما أن كلمة "واحد" عندما تُستَعمل في الكلام عن الثالوث، فهي تعني "الوحدة".

وهنا، يظهر أن الذبيحة الواحدة التي قُدِّمت مرةً واحدةً، هي "الواحد الدائم المستمر"؛ لأن هذه الذبيحة هي "الرب الواحد الدائم الحي"، والذي تقول عنه رسالة العبرانيين "إنه قام من الأموات بدم العهد الأبدي" (عب ١٣: ١٠). ولأن العهد، وهو إبرام وثيقةٍ بين طرفين، أو عقد معاهدة بين اثنين، يقوم على تقديم المسيح لنفسه لنا نحن البشر، صار من الواضح أن عمل المسيح عملٌ فريد يمكن فهمه حسب كلمات العهد الجديد، وحسب الممارسة الليتورجية نفسها على النحو التالي:

١- يقدِّم المسيحُ ذاته للآب؛ لأن الإنسان عاجزٌ بسبب الموت عن أن يقدم شيئاً، ويعجز عن الاقتراب من الله.

٢- يقدِّم المسيح ذاته للإنسانية؛ لكي يهب الحياة للإنسانية. وهاتان النقطتان

هما محور التعليم الرسولي برمته. أما ما أُضيف عليه بعد ذلك من تفاسيرٍ شاعت في كتب لاهوت العصر الوسيط، فهي الزيادة التي خلقت التضارب والفوضى الفكرية. وهنا، يجب أن نؤكد أن الأريوسية التي جاءت لتقول لنا –تحت ثوب إرضاء العدل الإلهي– إن الابن أرضى العدل الإلهي، إنما تنزع بهذا التفسير وحدة ومساواة الآب للابن. فالعدلُ صفةٌ من صفات الابن والروح، وبالتالي، فإن تخصيص العدل للآب يقسِّم وحدة جوهر الثالوث. فالذبيحةُ هي إرضاءٌ لعدل الابن، ولعدل الروح القدس، وهو ذاته عدل الآب، أو عدل الثالوث القدوس. ولكن لأن الفكر السياسي لعصر الإقطاع في أوروبا، كان قد جعل الآب هو الأعلى والأعظم؛ لأن الملك هو ظلُّ الله، لذا جاء هذا الفكر ذاته ليقول لنا إنه لا يوجد سوى الرعايا الأقل شأناً، وفوقهم الأمراء. هذه الهرمية هي التي تجعل الابن أقل من الآب، ويقوم بعمل المخلص لكي يرضي مطالب العدل الإلهي. ولكي لا ندخل في جدلٍ مع فكر عصر الإقطاع، نكتفي ببعضِ نصوصٍ للقديس كيرلس، يتبعها عدة نصوص من الليتورجية نفسها، كلها تؤكد ما نقوله.

يقول القديس كيرلس:

> "آخر علامات أو آيات الدهر، هو موت المسيح والتطهير بالماء والدم، وكلاهما من الجسد المقدس ... إن سر المسيح ليس سراً عاجزاً عن النطق، بل يدعو كل الناس في العالم كله بصوتٍ عالٍ، وصراخٍ يخترق القلوب، إلى التطهير بالماء والدم وإلى الحياة بالشركة في الجسد المقدس" (العبادة بالروح والحق ٢: ٧٣).

> "لقد مسحوا أعتاب البيوت والقائمتين بالدم (حادثة الملاك المهلك) حسب الناموس الموسوي، ولكن القوة الفعلية هي لسر المسيح الذي حَصَّنَ نفوسهم. لأن موت المسيح هو الدواء الذي يُذيب الموت، والمشتركون في سر الإفخارستيا أقوى من المهلِك (ملاك الموت) طبقاً للقول الإلهي: الحق الحق أقول لكم إن كل مَن يأكل جسدي ويشرب دمي له حياة أبدية". (المرجع

السابق ٢: ٧٩).

"إننا نحيا في زمان (عصر) المائدة المقدسة، أي مائدة المسيح السِّرية التي منها نأكل الخبز السماوي الواهب الحياة النازل من السماء. وقبل (زمان المائدة) كان الموتُ مخيفاً، ولا يقوى البشر على مواجهته، ولكنه الآن قد أُبيد؛ لأن البشر تضرَّعوا إلى الله. والمهلِك قد طُرِد بعار الهزيمة؛ لأنه عندما مدَّ يده الهالكة ضد الذين يسكنون المدينة المقدسة أورشليم الروحية، توسَّل وتضرَّع إليه الساكنون، فلم يتأخر، بل قال: "هذا يكفي"، وتوقف الوباء والموت. والآن، المدينة المقدسة هي الكنيسة، والذين يسكنون هذه المدينة قد نالوا الكمال بالتقديس بالخبز الحي" (المرجع السابق ٢: ٩٧).

"لقد قدَّم الناموسُ، رمزياً من خلال خبز الوجوه (التقدمة)، إشارةً إلى خبزنا السماوي الذي يوضع في الوقت المعيَّن على الموائد المقدسة في الكنائس لكي يعطي الحياة للعالم" (المرجع السابق ٩: ٢٩٧).

"الجسدُ هو طعامٌ مقدسٌ لكل الذين اختاروا خدمة الله ... ولا نسمح للغريب عن الجماعة بأن يأكله كما كان حسب الشريعة، ومن كان يأكل من خبز الوجوه، كان يُقتل لأنه تناول الطعام المقدس، أي جسد المسيح الذي يغذِّي النفوس المقدسة. أما الغرباء، فهم يُمنَعون تماماً من هذه البركة. والغريب هو كلُّ مَن لم ينل المعمودية؛ لأن عقلهم وفكرهم مخلوطٌ ومنقسم، ليس مثل فكر القديسين" (المرجع السابق ١١: ٣٩٨).

"المسيحُ هو الخليقة الجديدة، حسب تعليم الأسفار. ونحن لذلك، نأخذه في نفوسنا بالتناول من الجسد المقدس والدم اللذين يتغيرا "μετας τοσχειών – transelemented" إلى الحياة الجديدة بواسطته وبه (المسيح) حتى نخلع

الإنسان القديم الفاسد بشهوات الغرور[١]. لقد جاء الابن الوحيد كلمة الله بحريته وإرادته لكي إذا ما ظهر في هيئة إنسان يُبيد الموت **ويحول** جسده إلى الجسد المحيي" (العبادة بالروح والحق ١٧: ٦١١).

فالقديس كيرلس يحرص على تأكيد أن المائدة هي مائدة الطعام السماوي، وأن موتُ المسيح دواءٌ، وأن الخبز السماوي هو مصدر الحياة الأبدية:

"كان على المائدة (في خيمة الاجتماع) خبز الوجوه الذي يشير إلى الذبيحة غير الدموية الذي نقدّسه ونتناوله، أي الخبز السماوي" (المرجع السابق ١٢: ٤١٩).

ويصل القديس كيرلس إلى المقارنة بين ذبائح الخطية ليحدد الفروق الأساسية:

"كانت هذه الذبائح رموزاً للمسيح الذي ذُبِحَ لأجلنا، واحتمل الموت لكي يرفع خطية العالم. ولكن ذبائح الخطية كانت من نصيب الكهنة فقط، فَهم الذين يأكلونها، وهذه إشارة إلى أن النفوس التي لم تتطهر غير مؤهَّلة لأن تتناول من جسد المسيح المقدس، وإنما المختارين والأنقياء الذين يمكن أن نقول عنهم إنهم جنسٌ مختار، كهنوتٌ ملوكي، شعبٌ مقدس" (المرجع السابق ١٣: ٤٦٤).

والقديس كيرلس يشير إلى (لاويين ٦: ١٤-١٨)، وهي تقدمة الدقيق. ونظراً لأهمية كلمات النص، فإننا نورده هنا كما جاء:

"هذه هي شريعة التقدمة: يقدمها بنو هرون أمام الرب إلى قدام المذبح،

---

(١) ونعلق هنا على الكلمة اليونانية التي تترجم عادة إلى transelemented لأن القديس كيرلس في أكثر من مناسبة استخدم هذه الكلمة في شرح اتحاد الناسوت باللاهوت في أقنوم الكلمة المتجسد مؤكِّداً بذلك أن التحول حدث أولاً في الناسوت بسبب الاتحاد، وبالتالي ما حدث لهذا الناسوت، هو ما يحدث في الخبز والخمر.

ويأخذ منها بقبضته بعض دقيق التقدمة وزيتها وكل اللُّبان الذي على التقدمة، ويوقد على المذبح رائحةَ سرورٍ تذكارها للرب، والباقي منها يأكله هرون وبنوه. فطيراً يؤكل في مكان مقدس ... قد جعلته نصيبهم من وقائدي (محرقاتي). إنها قدس أقداس كذبيحة الخطية، وذبيحة الإثم. كلُّ ذكرٍ من بني هرون يأكل منها فريضةً دهريةً في أجيالكم كل مَن مسها يتقدس".

وهنا، يجب أن نتوقف، ليس عند أكل الكهنة فقط، بل عند العبارات القاطعة التي تصف ذبيحة الخطية وذبيحة الاثم بأنهما "**قدس أقداس**"، وأن كل **من مسَّها يتقدس**، فكيف يمكن لمن يقول إن الله طلب أن تحمل الذبيحةُ العقابَ، وأن تحل عليها عقوبة الخاطئ، يمكنه أن يصفها بأنها "قدس أقداس"، أي مقدسة، بينما من المفروض – طبقاً للشرح الدارج– أنها تحمل الخطية؟ وبالتالي كيف يتقدس كل مَن مسَّها؟

والفرق بين الكتاب المقدس، والفكر الدارج عندنا، هو أن ذبيحة الخطية مقدسة، وقدس أقداس؛ لأنها كانت الرمز إلى المسيح قدس الأقداس الحقيقي الذي كل مَن لمسه صار مقدساً، وكل مَن أكل من ذبيحته نال الحياة الأبدية. وهنا يظهر لنا بكل وضوح أن الشرح القانوني، أفسد جمال عمل الله الذي لا يثور ولا يغضب مثل الملوك والأمراء والقادة، بل يغيّر بصلاحه وعدله الأمور المعوجة.

وعندما يقارِن القديس كيرلس بين خروف الفصح والإفخارستيا، فإن ضَعف الرمز يظهر على الفور:

"إنه يأمر (الله) أن يؤكل لحم الخروف في المساء، أي في هذا الدهر (أو الحياة الحاضرة)؛ لأن الرسول بولس يقول: "لقد انتهى الليل واقترب النهار"، وهنا يؤكد الرسول أن النهار هو الحياة الآتية، أي اليوم الذي فيه يصبح المسيح هو النور. ويقول الله إنهم يأكلون لحم خروف الفصح في هذه الحياة. ولأننا في هذه الحياة، ولا نزال نحيا في هذا الدهر، نأكل بشكلٍ منظور، الجسد المقدس والدم، وبذلك نتناول المسيح. أمَّا عندما نصل إلى "يوم قوَّته"، كما هو

مكتوب، فإننا نرتفع إلى بهاء القديسين ونتقدس مرةً ثانيةً بشكلٍ آخر يعرفه مدبّر وواهب الخيرات. ولكننا بالتناول من الجسد المقدس، وبشُربِ الدم الذي هو آلام المخلص Saving نعترف بآلام وموت المسيح التي تمَّت حسب التدبير. وها هو يقول لأصدقائه عندما يضع أساسات السر: "لأن كل مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس تبشرون بموتي ..."[١]، وهكذا في الحياة الحاضرة أو هذا الدهر وبالتناول كما ذكرت، نبشِّر بموته" (عظة على سفر الخروج ٢: ٢٧١).

ويشرح القديس كيرلس مزمور ٢٣ على هذا النحو:

"كلمات المزمور هي ما يردده المؤمنون؛ لأن الله هو الذي رتَّب مائدةً روحيةً؛ لأننا عندما نأكلُ، نتقوَّى ونصبح قادرين على مقاومة الأرواح النجسة والتعاليم الخاطئة. نعم، إن المائدة السرية ولحم الرب يجعلنا أقوياء قادرين على مقاومة الشهوات والأرواح النجسة؛ لأن الشيطان يخاف الذين يتناولون بخوفٍ من الأسرار" (عظة على أشعياء ٢: ٧٧٣).

وفي عظاته على نبوة أشعياء يقول القديس كيرلس تعليقاً على النص: "إن عَطِشَ أحدٌ، فليُقبِل إليَّ و يشرب" (يو ٧: ٣٧):

"إن عطشَ أحدٌ فليأتِ إلى المسيح ويشرب؛ لكي ينال من فيض تعزية الروح القدس ونعمة السر المقدس. وسوف يأخذ دون ذهبٍ أو فضة، بل بتعزيةٍ فائقةٍ يقدّمها مَن يدعوه (المسيح). والاقتراب من المسيح هو ابتعادٌ عن المعرفة الفاسدة القديمة، وقبول المعرفة الحق. يقول النبي: اشتروا واشربوا دون مال وبغير ثمن، فكيف يشترون وفي نفس الوقت يأخذون بدون مالٍ أو ثمن؟

---

(١) يلاحظ أن هذه العبارة مأخوذة حرفياً من القداس القبطي.

الجواب هو أننا نأخذ نعمةً من المسيح كهبةٍ لإيماننا دون أن نشتري أيَّاً من الأشياء المؤقتة البائدة. قد قال المرنم: قلت للرب أنت ربي، خيراتي لا تساوي شيء عندك، ولذلك عوضاً عن التقدمات والثمن، نقدِّم للمسيح اعترافنا بثقتنا فيه (إيماننا) بدون مالٍ أو ثمن. أي الشَّراب المملوء من النِّعم الإلهية. ولكن ما الذي نشتريه وأي شرابٍ نبتاع؟ يجيب النبي: خمراً ودسماً وقمحاً. وبدون شك إن النِّعم الفائقة التي تأخذها النفس من المسيح، تصبح هي الخمر الروحي، والدسم هو الطعام الذي يعطى للنفس قوةً ويجعل النفس قويةً.

أليس من المدهش أن قوة هذه الكلمات التي نطق بها النبي، تجعلنا نتأمل في سِرِّ المسيح. والذين شَرِبوا من الماء الحي، اغتنوا بنعمة الروح بالتناول منه. وكأننا بالإيمان اشترينا ذلك كله، وبالإيمان نتناول الخمر والدَّسم، أي الجسد المقدس ودم المسيح" (عظة على أشعياء ٢: ٣٧٧).

ولعل القارئ يلاحظ أن فكرة الثمن هنا كما سبق وأشرنا إليها، تؤخذ كاستعارةٍ تعبِّر عن حقيقةٍ فائقة.

ويعلِّق القديس كيرلس على كلمات النبي أشعياء أيضاً: "يأكل الوحش مع الأليف"، ويقول:

"المسيح هو الخبز الحي النازل من السماء الواهب الحياة للعالم، هو طعامهم لأنه يغذِّينا جميعاً بجسده، **فيحولنا فيه** إلى عدم الفساد وإلى الحياة التي هي حياته" (المرجع السابق ٦: ٩٠٧).

وكلمة "**يحولنا فيه**" هي ذات الكلمة اليونانية السابقة التي قِيلت عن ناسوت الرب، وعن تحول الخبز والخمر. ولعل القارئ يلاحظ أن الشِّق الأول الذي قدم فيه المسيح ذاته للآب، لا يختلف ولا يتعارض مع الشِّق الثاني الذي قدَّم فيه المسيح حياته

للعالم أو للإنسانية في العشاء السِّري، ذلك أن إبادةَ الموتِ والقضاءَ عليه، تمَّت في ناسوت المسيح، وفي هذا النص، يعرض القديس كيرلس كل مراحل الخلاص من الخلق حتى تقديم الرب حياته لنا في الإفخارستيا:

"خَلَقَ اللهُ الكونَ وكل ما فيه لكي تبقى في عدم الموت، وكان خلقُ العالم عملاً جيداً صحيحاً، ولكن بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم وخدع الشيطانُ الإنسان آدم الأول، وقاده إلى التعدي والمعصية، وبالتالي سقط آدم تحت اللعنة الإلهية، وقيل له: "ترابٌ أنت وإلى التراب تعود". ولكن حنان محبة الخالق أعظم من انحدار الإنسان؛ لأنه جاء لكي يفتقد الذين على الأرض. ولذلك، فإن الله الآب الذي هو الحياة بالطبيعة، أرسل لنا بهاء مجده المسيح الذي هو أيضاً الحياة. واللوغوس المنبعث من جوهر الحياة (الآب) لا يمكن أن يكون إلاَّ الحياة. فالله الآب يخلق (حرفياً يلد) كل شيء للحياة بابنه وفي الروح القدس".

وهنا كما نلاحظ أن القديس كيرلس يضع مبدأ الحياة، ويكمِّل شرحه:

"فكيف يمكن تجديد الإنسان الذي خضع للموت وإعادته إلى عدم الفساد، وهو على الأرض؟ كانت الحاجة إلى أن يصبح الجسد الميت شريكاً في القوة الإلهية المحيية. وهذه القوة الإلهية المحيية هو كلمة الله الابن الوحيد. هذا أرسله الآب إلينا كمخلِّصٍ وفادي، فتجسد دون أن يتغير ويتحول إلى ما هو ليس إلهي، ودون أن يفقد كيانه ككلمة. ولكن بالحري وُلِدَ بالجسد من امرأةٍ، ومنها أخذ جسده لكي ما يُدخِل (حرفياً يحشر) ذاته فينا (الطبيعة البشرية) باتحادٍ لا ينحل، وبالتالي يجعلنا أقوى من الموت والهلاك. ولذلك، لَبِسَ جسدنا وأقامه من الموت لكي ما يفتح طريقاً للجسد ويسترده من الموت إلى الخلود، كما يقول بولس: "كما بإنسانٍ واحدٍ دخل الموتُ إلى العالم، بإنسانٍ واحدٍ، صارت القيامة أيضاً. وكما في آدم يموت الجميع، هكذا في المسيح

سيُحيا الجميع". ولأنه اتَّحد بالجسد الخاضع للموت، ولأنه الله الكلمة والحياة، أبادَ الفسادَ في الجسد، وجعل جسده واهباً للحياة. فلا تشكّ في الذي أقوله، ولكن تقبَّل الكلمة بإيمان، وسوف أُقدِّم عدة أمثلة تؤكد ما أعنيه: إذا وضعت قطعة من الخبز في الخمر أو الزيت أو أي سائل آخر، فإنك تجدها، وقد امتلأت من خصائص السائل. وإذا وضعت قطعةً من الحديد في النار، تكتسب قطعة الحديد فاعلية النار، رغم أنها تظل قطعة حديد، وتحتفظ بطبع الحديد، إلاَّ أنها تكسب قوة النار. وعلى هذا المثال، الله الكلمة معطي الحياة، اتَّحد هو ذاته بجسده بطريقة هو وحده يعرفها، وجعل الجسد واهبَ الحياة، وهو لهذا يقول: الحق الحق أقول لكم الذي يؤمن بي له حياة أبدية، وأيضاً: أنا هو خبز الحياة النازل من السماء مَن يأكل هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي. والحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم". وهكذا، بالأكل من جسد المسيح مخلص الكل، وشُرب دمه الثمين، يصبحُ لنا حياةٌ فينا؛ لأننا نتَّحد به ونكون فيه وهو يكون فينا[١] ... وهو بالحقيقة فينا من خلال الروح القدس، وبأسلوبٍ إلهي، ولذلك هو يختلط على نحوٍ ما بأجسادنا من خلال تناول جسده المقدس ودمه الثمين، وهو الذي يصير لنا بركةً واهبةَ الحياة، عندما نأخذه في الخبز والخمر. وحتى لا نرتعب من مشاهدة الجسد والدم، وهما على الموائد المقدسة في كنائسنا، يتنازل الله إلى ضعفنا، ويرسل قوة الحياة التي فيه ويحوِّل الخبز والخمر إلى قوة وفاعلية جسده ودمه، لكي نتناولهما لشركة موهبة الحياة، ولكي يصبح جسد الحياة فينا هو بذار عطية الحياة. ولا يجب أن نشكَّ مطلقاً في هذه الحقيقة؛ لأنه يقول لنا: "هذا هو جسدي، وهذا هو دمي، بل نتقبل بالإيمان كلمة المخلص؛ لأنه هو الحق

---

(١) نلاحظ أن الترجمة القبطية لإنجيل يوحنا تقول: "يكون فيَّ وأكون فيه"، بدلاً من "يثبت فيَّ وأنا فيه"، والترجمة القبطية أقوى كثيراً.

الذي لا يكذب" (شرح إنجيل لوقا مجموعة الآباء اليونانيين المجلد ٢: ٤١٣-٤١٤).

ويستطيع القارئ أن يرى على الفور أن تجديد البشرية هو في تحوُّل جسد ربنا يسوع المسيح إلى الجسد الواهب الحياة، مثل اتحاد الحديد بالنار. ولعل أهم كلمات القديس كيرلس هي أن الإفخارستيا تصبح فينا بذرةً تهب الحياة. وكما سبق وقلنا إن التحول يحدث أولاً في جسد المسيح، وهو ذاته التحول الذي يحدث ثانياً في الإفخارستيا، وهو ذات التحول الذي يحدث ثالثاً فينا. تحوُّلٌ واحدٌ وعملٌ واحدٌ للرب الواحد. ويمكن مراجعة صلاة القسمة:

"يا حمل الله الذي بأوجاعك حملت خطايا العالم .. عند استحالة الخبز إلى جسدك ودمك تتحول نفوسنا إلى مشاركة مجدك، وتتحد نفوسنا بأُلوهيتك .. وكما أنك واحدٌ في أبيك وروحك القدوس، نتَّحد نحن بك وأنت فينا ويكمُل قولك ويكون الجميع واحداً ..".

ولكي نعود إلى فهم الاستحالة السرية، نكتفي بهذا النص:

"لم يكن المن هو الخبز السمائي، وإنما المسيح الذي قال أنا هو خبز الحياة، الذي سبق وأشار إليه نزول المن. ولكن الآن هو كائنٌ[١] معنا يحقق الوعد الذي قطعه على نفسه عندما قال أنا هو خبز الحياة. وهو ليس الخبز الجسداني الذي يقضي على آلام الجوع فقط، وبالتالي يحرر الجسد من الضعف، ولكنه الخبز السماوي الذي **يعيد تشكيل** re – moulding – μετασκευασας"، أو **يجدد الكيان** كله إلى حياةٍ أبديةٍ، جاعلاً الإنسان أسمى من الموت" (شرح انجيل يوحنا ٦: ٣٤ النص اليوناني ص ٣٢٢).

(١) لاحظ ذات التعبير في صلاة القسمة: "هوذا كائنٌ معنا اليوم على هذه المائدة عمانوئيل إلهنا، حمل الله ...".

وكلمة "**يعيد تشكيل، أو يعيد صياغة**"، تظهر في نفس شرح يوحنا ٧: ٣٩ حيث يقول القديس كيرلس:

"تقبَّل الابن الوحيد الروح القدس، ليس لأنه يحتاج إلى الروح القدس؛ لأن الروح القدس فيه وبه، ولكن لأنه صار إنساناً، وكانت فيه الطبيعة (الإنسانية) حتى ما يُجدِّد الكل، و**يعيد تشكيل أو يعيد خلق** الكل، ليكون كما كان سابقاً μετασκευασας εις το αρχυών".

ويقول أيضاً عن التحول في المسيح:

"عدم الفساد هو خاص بالطبيعة الإلهية، ولذلك قِيل إن الاموات سوف يتغيرون، والفاسد يلبس عدم فساد. لقد صار الابن الوحيد مثلنا، ولذلك أباد الموت وحوَّله إلى عدم موت **محوّلاً** μετασκεναξοντος الفاسد إلى عدم فساد فيه هو أولاً، وبذلك صار هو طريق حياتنا" (مقالة على الإيمان الصحيح ٢: ٩٢).

ويقول أيضاً في شرح إنجيل يوحنا (٦: ٥١):

"عندما حلَّ كلمة الله المعطي الحياة في الجسد، حوَّل هذا الجسد μετασκεναξοντος (ذات الكلمة اليونانية السابقة) إلى خيرات أُلوهيته، أي الحياة".

وفي نفس شرح انجيل يوحنا (١٦: ٧)، يقول:

"لقد دُعينا لأن نكون شركاء طبيعة الابن الإلهية، بإنكار حياتنا السابقة لكي تتحول أو تتشكل μεταστοιχειουσθαι - μετασκευααξεσθαι إلى الحياة الجديدة التي جوهرها هو محبة الله التي تشاركنا فيه وتشاركه فينا".

ويقدم القديس كيرلس تشبيهاً آخر، لا يختلف عن تشبيه الحديد والنار، وقطعة الخبز المشبَّعة بأي سائل توضع فيه:

"إذا كانت رائحة العطور الذكية تنقل قوتها إلى الملابس، بما يجعل رائحة الملابس تتحول إلى رائحة العِطر، فكيف لا يقدر الروح القدس، وهو بالطبيعة الله، أن يجعل الذين يسكن الروح القدس فيهم شركاء الطبيعة الإلهية" (شرح يوحنا ١٧: ٥).

ولعل القارئ يدرك هنا أن حلول الروح القدس يعمل لكي يتحول المؤمنين إلى صورة المسيح وشكله، وإلى طبيعة المسيح الغالبة الموت عديمة الفساد، وهو ما تعبِّر عنه صلاة القسمة:

"أهِّلنا أن نمتزج بطهارتك سِراً".

"تتحد نفوسنا بأُلوهيتك".

وعدم الموت، أو الحياة، هو صفة غالبة في الصلوات الشرقية، يُوصَف بها المسيح، ويُوصَف بها سر الإفخارستيا؛ لأن الحقيقة واحدة:

"شركة وصعود أسراره الإلهية غير المائتة. الجسد المقدس والدم الكريم اللذين لمسيحه الضابط الكل الرب إلهنا".

ويشرح القديس كيرلس هذه العبارة في شرحه لإنجيل يوحنا:

"ما الذي وَعَدَ المسيحُ بأن يعطيه لنا؟ ليس شيئاً فاسداً، وإنما الإفخارستيا التي فيها نشترك في الجسد المقدس والدم الذي يعيد الإنسان إلى عدم الفساد، فلا يحتاج إلى شيء آخر يطرد منه موت الجسد .. جسد المسيح المقدس هو الذي يهب الحياة لكل مَن يتناوله، ويحفظ المتناولين منه معاً في عدم الفساد؛

لأنهم امتزجوا بجسد المسيح. ونحن نعلم أنه ليس جسدَ آخرٍ، بل جسدُ الذي هو بالطبيعة الحياة، والذي صارت منه حياة الكلمة الذي اتحد به، فأعطى له جودة اللاهوت، أو بالحري ملأه بكل قوته الفعالة التي تحيي كل الكائنات وتحفظها في البقاء" (المرجع السابق على يوحنا ٦: ٥١).

والقديس كيرلس لا يفصل بين موت المسيح على الصليب والإفخارستيا؛ لأن الفصل يعني تقسيم الشخص الحي الذي قدَّم حياته لكي يجمع الله والبشر في وحدة الحياة الجديدة، فيقول:

"لقد أعطى المسيح جسده الخاص به من أجل حياة الكل، ولكنه جعل الجسد هو الوسيلة التي بها تنتقل الحياة وتحل في الكل. كيف يحدث ذلك؟ سوف أجيب على قدر استطاعتي. عندما حلَّ كلمة الله الواهب الحياة (المحيي) في الجسد حوَّله μετασκευασεν إلى خيراته الإلهية، أي الحياة، وباتحادٍ لا يُوصَف جعله محيياً مثلما هو محييٌ بالطبيعة، لذلك يعطي جسد المسيح حياةً لكل مَن يتناول منه، وهو يطرد الموت عندما يأخذه كل الذين خضعوا للموت ويزيل الفساد .." (شرح يوحنا ٦: ٥١).

ولعل النقطة الأساسية التي نراها بكل وضوح هي التعليم الإلهي نفسه بأن جسد الرب هو طعامٌ أو مأكلٌ حق، وأن تقديم الرب ذاته لنا هو الذي جعل الفرق بين المذبح والمائدة يختفي تماماً، وحوَّل كلمات العهد القديم إلى مجالٍ جديدٍ، هو مجال الابن الوحيد الذي قدَّم حياته للعالم. وعلينا أن نلاحظ كيف تعكس الصلوات الليتورجية هذه الحقيقة:

"أنت هو الخبز الحي الذي نزل من السماء ..".

وبعد ذلك تقول نفس الصلاة:

"سبقتَ أن تجعل ذاتك حملاً بغير عيب عن حياة العالم".

فالخبز الحي هو الذي يوضع على المائدة، والحمل هو الذي يوضع على المذبح. والحقيقة الواحدة تعبّر عنها هاتين الكلمتين: "**خبز**" و"**حمل**" كما تعبّر الكلمتان "**مائدة**" و"**مذبح**" عن ذات الحقيقة الواحدة.

"اظهر وجهك على هذا الخبز وعلى هذه الكأس، هذين اللذين وضعناهما على هذه المائدة الكهنوتية التي لك".

وفي ختام القداس الباسيلي:

"يا رئيس الحياة ملك الدهور كلمة الله الآب،

ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح ..".

ولقب رئيس الحياة هو لقب القيامة (أع ٣: ١٥). وبعد ذلك تقول الصلاة:

"الخبز الحقيقي الذي نزل من السماء واهب الحياة لمن يتناوله، اجعلنا أهلاً بغير وقوع في دينونةٍ أن نتناول من جسدك المقدس ودمك الكريم، وليصيّرنا تناولنا من أسرارك المقدسة واحداً معك إلى الانقضاء".

و"نزول الخبز الحقيقي من السماء" هو في حقيقة الأمر من أدق التعابير التي استخدمها إنجيل يوحنا لتأكيد الاتحاد الأقنومي الذي جعل ما يُنسب إلى ناسوت الكلمة يُنسب إلى لاهوته، وما يُنسب إلى لاهوته يُنسب إلى ناسوته، ولذلك تعكس صلاة شكر ثانية للآب في القداس الغريغوري هذه الحقيقة الفائقة:

"نشكرك يا أبانا القدوس خالق الكل ورازق الجميع، الذي أعطانا من هذا الطعام المقدس غير المائت السري، الذي فتح لنا طريق الدخول إلى الحياة، ... الذي أنعم على عبيده بكثرة الخيرات، فأنت أيها الرب الصالح محب

البشر، احفظ موهبة نعمتك[١] فينا ... لتمنح المجد واقتناء الحياة وقيام النفس وطهارة الجسد. لكي إذ نحيا بك ونقتات بك نكمل في البر في كل حين، واسمك القدوس يتمجد فينا ..".

(١) يلاحظ أن هذه الصلاة لا تميّز بالمرة بين كلمة "موهبة"، وكلمة "نعمة".

الفصل العاشر

استعلان أقانيم الثالوث،
حسب التسليم الليتورجي

ظهور وجه الله:

يا ليتنا نعود إلى ذلك النهر الإلهي المتدفِّق لكي نشرب من الحياة الإلهية مجاناً. هذه بعضُ لمحات عن الظهور والاستعلان الإلهي في القداسات القبطية؛ لأننا نطلب استعلان "وجه الله"، عندما نقبِّل الصليب مغادرين مبنى الكنيسة، دون أن نغادر الشركة في الحياة الإلهية، ولا نفارق حضورنا الأبدي في الثالوث القدوس، حيث تقول كلمات البركة الختامية التي تطلب أن يظل ظهور الله عندنا:

"الله يتراءف علينا ويباركنا ويظهر وجهه علينا ويرحمنا".

ونبقى في شركة القديسين:

"ارفع شأن المسيحيين بقوة الصليب المحيي بالسؤالات والطلبات التي تصنعها عنا كل حين سيدتنا وملكتنا كلنا والدة الإله القديسة الطاهرة مريم (وهنا يذكر الكاهن جيش القديسين الظافرين الذين أرضوا الرب من أول أم النور

والقوات السماوية حتى عصرنا الحديث)".

ويمكننا أن نتبع أركان التدبير في شركتنا في هذا التدبير في صلوات الليتورجيا، ففي أيام الآحاد:

"هذا هو اليوم الذي صنعه الرب"،

فهو يوم قيامة المخلص، وهو يوم قيامتنا نحن. ولذلك ففي بركة يوم الأحد:

"بركة يوم الرب الذي لمخلصنا الصالح".

وفي الميلاد البتولي، بركة الميلاد الجديد:

"انعم علينا ببركة الميلاد البتولي".

وفي عيد الغطاس، عيد استعلان الثالوث:

"بركة عيد الظهور الإلهي".

لأن الرب:

"طهَّر جميع المسكونة. طهِّرنا من كل فكر ردئ وكل سيرة دنسة وكل حواس مملؤة عيباً".

وفي أسبوع البصخة المقدسة نسمع مجملاً لبشارة الإنجيل:

"يسوع المسيح إلهنا الحقيقي الذي قبل الآلام بإرادته، وصُلب على الصليب من أجلنا .... ويرينا فرح قيامته".

ذلك لأن احتفال البصخة ليس قاصراً على موت الرب، بل هو احتفالٌ بموت

الرب الذي هو بداية القيامة؛ لأن الرب هو، كما تقول صلاةٌ أخرى:

"الحمل الحقيقي الذي لله الآب الذي قام في اليوم الثالث".

"مجداً وإكراماً" خاصَّاً بالثالوث

قبل أن يحمل الكاهن التقدمة، يصلي صلوات الاستعداد، والتي يطلب فيها أن ينال نعمة الروح القدس:

"أنت يا سيدنا اجعلنا مستوجبين بقوة روحك القدوس أن نكمل هذه الخدمة ... اعط يا رب أن تكون مقبولة أمامك ذبيحتنا عن خطاياي وجهالات شعبك، ولأنها طاهرة كموهبة روحك القدوس بالمسيح يسوع ربنا".

فالتقدمة هي استعلان مجد وكرامة الثالوث الذي يبني الكنيسة، وهو ما يظهر في طلبةٍ خاصة:

"مجداً وإكراماً إكراماً ومجداً للثالوث القدوس ... سلاماً وبنياناً لكنيسة الله الواحدة".

فالكنيسة هي هؤلاء الذين قدَّموا القرابين، والذين قُدِّمت عنهم، وعن الخدام الذين قُدِّمت بواسطتهم، ولذلك يرتفع التهليل في الكنيسة:

"هذا هو اليوم الذي صنعه الرب".

فهو يوم القيامة اليوم الذي دُمِّر فيه الموت، واستُعلِنت فيه الحياة. أمَّا الإكرام الذي أُعطي لنا في الابن، فهو أن ندخل إلى هذه الوليمة السماوية ونشترك فيها، ولذلك يقدِّم الكاهن التمجيد للثالوث القدوس في الرشومات، ولذلك أيضاً ينتهي نداء الشماس: واحدٌ هو الآب القدوس، واحدٌ هو الابن القدوس، واحدٌ هو الروح القدس،

بتأكيد ثبات رحمة الرب على شعبه، ولذلك يجيء الجواب في مرد الشعب: المجد للآب والابن والروح القدس.

نداءٌ لأقنوم الابن له المجد:

في أوشية التقدمة يصلي الكاهن بالشعب:

"أيها السيد الرب يسوع المسيح الشريك الذاتي وكلمة الآب أنت هو الخبز الحي الذي نزل من السماء ... أظهر وجهك على هذا الخبز .. وعلى هذه الكأس ...".

والوجه هو الاسم العبراني القديم جداً لله، وهو أصل الكلمة اليونانية Prospon (راجع ٢كو ٤: ٦ حيث يذكر الرسول بولس أن المسيح هو وجه الآب). وفي العبرانية Penuel وهو يعني وجه الله أو حضور الله (تك ٣: ٨ – خروج ٣٣: ١٦)؛ لأن الفاعل والخادم هو أقنوم الابن، لا قوته فقط. وظهور الرب أو استعلانه هنا لأنه هو الذي يخدم السر، ويمنح الحياة لكل الذين جاءوا إلى الوليمة السماوية. الأقنوم يُستعلَن أو يُظهر حضوره، ولذلك تطلب الصلاة:

"باركهما، قدسهما، طهرهما وانقلهما لكي يصير هذا الخبز جسدك المقدس والمزيج الذي في هذه الكأس يصير دمك الكريم".

ولذلك، عند ظهور الرب وتحوُّل الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه، يكونا لنا:

"ارتقاءً، وشفاءً، وخلاصاً لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا".

ولأن ما نناله في السر المجيد، ليس قوةً فقط، بل ارتقاءً وشفاءً وخلاصاً، تُختَم الصلاة بالتمجيد الذي كان يُقال سِراً بسبب حضور الموعوظين والذي يجب أن يُقال جهراً حتى يعود إلينا الوعي بالثالوث:

"لأنك أنت هو إلهنا. يليق بك المجد مع أبيك الصالح والروح القدس المساوي لك ...".

ظهور وجه الابن للاستنارة:

إن مجمل الصلوات السرية التي تقال من أول سر البولس حتى قراءة الإنجيل هي صلواتٌ لطلب الاستنارة ومعرفة التعليم. وطلب الاستنارة في سر البولس جدير بأن نقف عنده ولو لبرهةٍ قصيرة. ولعلنا نلاحظ أن بولس نفسه حاضرٌ في الوليمة:

"يا رب المعرفة ورازق الحكمة الذي يكشف العمائق من الظلمة والمعطي كلمةً للمبشرين بقوةٍ عظيمة ... أيها الصالح محب البشر نسألك انعم لنا ولشعبك كله بعقل غير منشغل وفهم نقي لكي نعلم ونفهم ما هي منفعة تعاليمك المقدسة التي قُرئت علينا الآن من **قِبَلِه** (بولس) .. مفتخرين بصليبك كل حين ...وأنت الذي نرسل لك إلى فوق المجد والإكرام والسجود مع أبيك الصالح والروح القدس المحيي المساوي لك".

ونلاحظ أن هذه الصلاة تنتهي بالذكصولوجية؛ لأن نداء الموجَّه للابن لا يفصله عن الآب والروح القدس، ولذلك نجد أن سر الكاثوليكون، وهو موجَّهٌ للآب يطلب إلى:

"الرب إلهنا الذي ...أظهرت لنا سر إنجيل مجد مسيحك"،

ونلاحظ أن هذه الطلبة تنتهي:

"بالمسيح يسوع ربنا. هذا الذي من قِبَله المجد والكرامة ....".

ظهورٌ هَدَمَ الموت:

عندما دخل الموت إلى العالم هدم الربُّ الموتَ "بظهوره المحيي"، وهذا هو ما

أسس المصالحة، والتي تمارَس بالقبلة المقدسة؛ لأن انتصار الحياة لا يحفظ العداوة، لا سيما وأننا نطلب الطهارة "من كل فعل خبيث"، وبشكلٍ خاص "من تذكار الشر الذي يجلب الموت".

خصوصية نداء الأقنوم:

ونحن نأتي لكي نشترك في هذه المصالحة التي يقدِّمها لنا الوسيط الواحد ربنا يسوع المسيح، فننال بغير وقوع في دينونةٍ من موهبته غير المائتة السمائية، وهي محبة الآب بالوسيط ربنا يسوع المسيح. ولذلك ترتل الكنيسة ترنيمة قديمة جميلة، لا تزال موجودة في الخولاجيات القبطية:

> "تعال إلينا اليوم يا سيدنا المسيح وأضيء علينا بلاهوتك العالي، (أو السماوي). ارسل علينا هذه النعمة العظيمة التي لروحك القدوس المعزِّي".

هنا يفرض التساؤل نفسه: هل يمكن أن يكون لنا نعمة، بدون الروح القدس نفسه؟ والجواب إن هذا لا يتفق أبداً مع استعلان الثالوث، ولا مع نداء أقنوم الابن، ولا مع الظهور المحيي. ولكن لأننا نعيش آخر ما استُعلِن في التدبير الإلهي، فالنعمة هي ما أنعم به الرب علينا، وهو إرسال البارقليت؛ لأننا نؤكد أنك "في آخر الأيام ظهرتَ لنا نحن الجلوس في الظلمة وظلال الموت بابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح"، هذا الذي جاء إلينا متجسداً وهدم الموت، "ونزل إلى الجحيم من قِبَل الصليب" لكي يبيد قوة الهاوية.

ولا يختلف القداس الغريغوري عن القداس الباسيلي في استعلان أقانيم الثالوث، فالابن له المجد هو الذي "أظهر لنا نور الآب"، وهو الذي "أنعم علينا بمعرفة الروح القدس الحقيقية"؛ لأنه "أشرق كنورٍ حقيقي للضالين وغير العارفين"، وهو الذي "أبطل الخطية بالجسد" (راجع عب ٩: ٢٦)، وهو الذي "باركت طبيعتي فيك، قتلت خطيتي بقبرك، أصعدت باكورتي إلى السماء"، فهو الإله الوحيد الذي في حضن الآب، الذي "حلَّ عداوة البشر"، وهو خادم السر العظيم الذي للتقوى (١تيمو ٣: ١١).

نداء الابن ليعمل ما عمله في العلية:

وضع لنا الابن "هذا السر العظيم الذي للتقوى" (١تيمو ٣: ١٦)، وهو ظهور الله في الجسد، وهو الذي قدَّم الخبز والخمر في العلية. ولذلك، في إطار التدبير، نقرب نحن أيضاً هذه القرابين، ولكن "نسألك أيها الرب إلهنا نحن عبيدك الخطاة الغير مستحقين نسجد لك بمسرة صلاحك ليحل روحك القدوس علينا وعلى هذه القرابين". وهنا يجب أن ننتبه بشدة إلى أننا نحن خطاة، ومع ذلك لا يفارقنا روح الآب؛ لأن العهد الجديد هو عهد ضمان أعظم، ولنفس السبب، نحن لا نطلب قوة، بل "ليحل روحك القدوس علينا وعلى هذه القرابين"، ومن ثمَّ تُستَعلَن هذه القرابين "قدساً لقديسيك"؛ لأنها في دائرة الاستعلان الإلهي للروح القدس.

تقديس القرابين بحلول الروح القدس:

لا يعطى التقديس بالصلاة وحدها، بل باستدعاء الروح القدس، وهو استدعاءُ على الشعب، وعلى القرابين؛ لكي ننال بالروح القدس ما تطلبه الكنيسة في قداس مار مرقس: "طهِّر إنساننا الداخلي كطُهر ابنك الوحيد، هذا الذي نضمر أن نأخذه". وهنا نقول للذين يعترضون على التأُّله: تأملوا، هذا هو التأُّله في جماله الإلهي كنعمة إلهية فاضت من صلاح الله.

وتأكيداً على أن التقديس، إنما يتم بالروح القدس، تقول صلاة القسمة:

> "اللهم الذي قدَّس هذه القرابين الموضوعة بحلول روحك القدوس عليها وطهَّرتها، طهرنا يا سيدنا ... لكي نجرأ بدالة بغير خوف أن نطلب إليك يا الله الآب الذي في السموات ونقول أبانا الذي في السموات".

ولعلنا هنا نلاحظ أن صلاة القسمة توجِّه النداء للآب، وأن الآب أرسل الروح

بواسطة الابن، وأننا عندما ننال من الذبيحة، ننال طهارةً ودالةً تعيدنا إلى البنوة التي بها نصرخ: "أبانا الذي في السموات"؛ لأن غاية الصلاة هي أن "تؤلفنا بك من جهة تناولنا من أسرارك الإلهية لكي نكون مملوئين من روحك القدوس، ... وننطق بمجدك كل حين بالمسيح يسوع ربنا" (راجع صلاة خضوع للآب سراً، القداس الباسيلي).

أما السبب الحقيقي لتكرار استدعاء الروح القدس، فهو تشتت الوعي. ولذلك عن طريق التكرار يعود الفكر إلى الظهور والاستعلان الإلهي. وكل تكرار مرتبط بما يُقال، مثل طلب الاستنارة في فهم الأسفار، أو الدخول في المصالحة في صلاة الصلح، أو الحضور في تقديم الذبيحة أو التناول، بل حتى في نهاية الخدمة الإلهية يطلب الكاهن:

"أيها الثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس، بارك شعبنا المحب للمسيح بالبركة العلوية (الإلهية) السمائية. ارسل علينا نعمة روحك القدوس .. كمِّلنا في الإيمان الثالوثي إلى النفس الأخير".

اتحادنا بأقنوم الابن المتجسد حسب التدبير:

تقول صلاة الصلح في قداس مار مرقس (الكيرلسي):

"وإذ سُررت بنا نحن الضعفاء الأرضيين أن نخدمك لا من أجل نقاوة أيدينا ... بل مريداً أن تعطينا نحن البائسين غير المستحقين من طُهرك".

ومن أقوى الصلوات قاطبةً، التي تردد صدى صلاة الصلح هذه، صلاة الخضوع قبل التناول في القداس الكيرلسي، وهي التي تشرح لنا تدبيرياً ما هو طُهر الابن الوحيد:

"طهِّر إنساننا الداخلي كطُهر ابنك الوحيد، هذا الذي نضمر أن نأخذه

+ ليهرب عنا الزنا وكل نجس من أجل الله الذي من العذراء.

+ الافتخار الشر الأول الذي هو العظمة من أجل الذي اتضع وحده من أجلنا.

+ المخافة من أجل الذي تألم بالجسد عنا وأقام غلبة الصليب.

+ المجد الباطل من أجل الذي لُطم وجُلد من أجلنا ولم يرد وجهه عن خزي البصاق.

+ الحسد والقتل والانقسام والبغض من أجل حمل الله رافع خطية العالم.

+ .....

+ لكي هكذا بطهارةٍ نتناول من هذه الأسرار النقية ونتطهر كلنا كاملين في أنفسنا وأجسادنا وأرواحنا. إذ نصير شركاء في الجسد وشركاء في الشكل وشركاء في خلافة مسيحك".

لمحات من الظهور الإلهي في القداس الغريغوري

لدينا ثلاث طلبات لا يمكن أن تنفصل في صلاة الصلح الغريغوري:

١– اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نقبّل بعضنا بعضاً بقبلةٍ طاهرة.

٢– لنتناول بغير انطراحٍ في الحكم من موهبتك السمائية غير المائتة، وهو أعظم ما يُقال بلغة البشر عن ما هو الهي.

٣– بنعمتك، ومسرة أبيك الصالح، وفعل روحك القدوس.

والعبارة الأخيرة تنتهي بالمجد والإكرام لا لقوةٍ غامضة، بل للثالوث: "وأنت الذي نرسل لك إلى فوق الإكرام والسجود مع أبيك الصالح والروح القدس المحيي المساوي لك

الآن وكل أوان".

لأن هذا –كما تقول صلاة صلح ثانية للقداس الغريغوري:

"السر الذي للاهوتك"؛ .. لأننا بأُلوهية الرب، وُهبنا تجسده وموته وقيامته وجسده ودمه. وكل أعمال التدبير لا يمكن أن تتم بدون أُلوهية الابن، ولا بدون اتحاد أبدي دائم بالإنسانية التي أخذها من العذراء مريم.

"طُهر العالم" هو الابن نفسه:

تقول صلاة صلح ثانية في القداس الغريغوري:

"لأنك أنت القادر أن ترفع كل الخطايا وتنقل الظلم والآثام التي للناس الأشقياء؛ **إذ أنت طُهر العالم كله**. وأنت الذي ينبغي لك التمجيد".

وهنا نلاحظ أن أقنوم الابن هو المستعلن، وهو غير المنقسم لأنه "هو غير المفحوص، وهو في الآب، وهو الإله الحق من الإله الحق، وهو الذي أظهر لنا نور الآب، وهو الذي أنعم لنا بمعرفة الروح القدس الحقيقية".

الخبز السمائي:

الابن له المجد الذي هو في حضن الآب، والذي حل عداوة البشر، جعل من تجسده "خبزاً سمائياً جسده المقدس"، فهو "المسيح إلهنا" الذي من جوهر الآب، الذي بذل ذاته للذبح، ولذلك نقدم الشكر لله الآب:

"نشكرك يا أبانا القدوس خالق الكل ورازق الجميع. الذي أعطانا هذا الطعام المقدس غير المائت السري. الذي فتح لنا طريق الدخول إلى الحياة. الذي أرانا طريق الصعود إلى السموات ... لكي إذ نحيا بك ونقتات بك نكمل البر في

كل حين واسمك القدوس يتمجد فينا".

فالمسيح الرب هو غذاء الروح والجسد.

ولعل الخاتمة، هي أعظم ما يقال عن "الدالة" التي تُوهَب لنا حتى ندعو الله الآب أبانا الذي في السموات. فقد جئنا إلى المائدة، واشتركنا في خبز الحياة، وظهرت أقانيم الثالوث .. الابن يخدمنا، والروح القدس يحل علينا. وكلُّ حديثٍ آخر –مهما كان– لا محل له هنا؛ لأن مَن يصلي، لا يتكلم مع الله فقط، بل هو أيضاً يشترك في ذلك الظهور الإلهي للثالوث:

المجد والإكرام لمن مجَّدنا بالحياة الأبدية، واكرمنا بعطية البنوة،

الثالوث القدوس.

ملحق

الكنيسة المشتعلة بنار الروح القدس

الكنيسة المشتعلة بنار الروح القدس(١)

لا نزال ندخل الهياكل بدون الأحذية. ترتيبٌ شاهده كاسيان عندما زار الإسقيط، وشَرَحَه القديس كيرلس الكبير بأن جلد الحيوانات الميت لا يدخل حيث ينبوع الحياة الغزير.

الرمز القديم، وهو العليقة المشتعلة، كان أول همسة إلهية عن تجسد الابن الوحيد، وظلت تقوى الكنيسة تقول إننا نخلع الأحذية؛ لأننا ندخل إلى مكان استعلان الابن الوحيد. وسبق الهيكل، التكوين الإلهي للظهور الإلهي، حيث الأردن (المعمودية)، وبيت لحم، وعرش الثالوث الهيكل والمائدة السمائية. ليست هذه طبوغرافيا للتسلية، بل يربط الروح القدس بين أماكن الاستعلانات الإلهية. وغالباً، ينسى الذين لم يعاينوا "تكريس كنيسة" أن هذه الأماكن تُقدَّس بزيت المسحة الإلهي "الميرون". هو نفسه، أي الميرون الذي يقدِّسنا بعد المعمودية، ويقدِّس ماء المعمودية، والأيقونات، والمذابح، والهياكل، مسحة واحدة تقدِّس الكل لكي تشتعل الكنيسة بنار التقديس.

يجمعنا الروح القدس الواحد الذي سَكَنَ في الآباء الرسل والشهداء وقديسي الكنيسة، ونحن ندخل إلى "مجمع" هؤلاء في التسبحة، بل وقبل قراءة الأسفار في طلب الشفاعات؛ لأن بولس هو الذي يقرأ شهادته لنا: "لكي نعلم ونفهم ما هي منفعة تعاليمك المقدسة التي قُرأت علينا الآن بواسطته **ⲉⲃⲟⲗϩⲓⲧⲟⲧϥ** وكما تشبَّه بك أنت يا

(١) مقال سبق نشره على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية.

رئيس الحياة. هكذا نحن أيضاً اجعلنا مستحقين أن نكون متشبِّهين به في العمل والإيمان ممجِّدين اسمك القدوس ومفتخرين بصليبك كل حين" (سر البولس).

يجمعنا ذات الروح مع الآباء الرسل والشهداء وقديسي الكنيسة، ولذلك نطلب شفاعتهم أو طلباتهم، حيث لا فرق بالمرة بين الكلمتين؛ لأن أحد معاني كلمة شفاعة، هو "طلبة". وتخصيص كلمة "شفاعة" لأم النور وكلمة "طلبة" لباقي القديسين هو عبثٌ لغوي بلا أساس لاهوتي؛ لأن أم النور مع خورس الشهداء في شركة واحدة ليس فيها درجات أعلى وأدنى؛ لأن هذه التراتبية يجوز أن تكون خاصةً ببعض المؤسسات، وليس بالكنيسة الواحدة الوحيدة الجامعة الرسولية.

نحن ندخل الكنيسة وعلى كياننا –الروح والجسد– أختام الميرون، الـ ٣٦ رشماً. نحن ندخل، وفي داخلنا ذات الروح القدس الذي قدَّس بيت لحم (مكان إعداد القربان)، والأردن (مكان حميم الميلاد الجديد)، والهيكل حيث "عمانوئيل إلهنا في وسطنا"، وندخل إلى ذات خورس القديسين، الأعضاء الحية في جسد المسيح الواحد، الكنيسة التي لا يقوى عليها الموت؛ لأن الرب "بالموت داس الموت".

تلك النار الإلهية السرية، أي الخفية التي يحس بها الذين اشتعلوا بالمحبة الإلهية للثالوث الذي سكب محبته فينا بالروح القدس (رو ٥: ٥).

سيمفونية المحبة الثالوثية:

تبدأ هذه السيمفونية باستعلان: "مجداً وإكراماً"، أي المجد والكرامة الخاصين بالثالوث. و"سلاماً"؛ لأن المصالحة أبدية. و"بنياناً لكنيسة الله"؛ لأن شركتنا في الثالوث تبني حياتنا. وتصرخ القلوب المستنيرة بنور الشركة بتماجيد الثالوث؛ لأننا أتينا بالتقدمة التي قدَّمها رئيس الكهنة يسوع المسيح الذي منه نأخذ "الحِل" (تحليل الخدام)؛ لأننا ندخل إلى ذات الخدمة التي نالها وخدمها معلمي الإيمان.

يفتح الروح كنوز الحكمة من الأسفار، ونسمع شهادة الرسل القديسين، ونطلب ذات الحياة التي أخذوها من الثالوث القدوس: "اجعلنا مستحقين نصيبهم وميراثهم، وانعم لنا كل حين أن نسلك في آثارهم ونكون متشبّهين بجهادهم" (سر الكاثوليكون).

التقدمة على المائدة –والكلمة اليونانية الأصل "ابروسفارين" تعني (تقدمة)، وتغطية التقدمة لها سبب تاريخي معروف، وهو وجود الموعوظين.

لقد أقامنا المسيح، بل وأجلسنا معه في السماويات (أف ٢: ٦) ونداء الشماس: (للصلاة قفوا) لا يخص الوقوف، بل القيامة؛ لأن الخبر السار، الإنجيل هو بشارة الحياة: "أيها الرب إلهنا الذي خلَّصنا وأدخلنا إلى هذه الحياة" (خولاجي الدير المحرق ص ٢٢١).

وإذا تسألنا: متى استعملت الكنيسة: "قدوس الله. قدوس القوي. قدوس الذي لا يموت ... "؟ العبرة في الاستنارة وليس التاريخ؛ لأن ما يضاف عبر العصور، ليس بمزاج أو بمشاعر غامضة، أو مجرد استحسان، بل هو "فصلة" في ذات النغم الإلهي؛ لأننا نتقدس عندما نقدِّس، أي عندما نعترف بخصوصية الثالوث الذي لا شبيه له. وهو تقديس الذي لا يموت؛ لأننا نحن في المسيح لا نموت. القدوس أعطانا شركةً في قداسته (عب ١٢: ١٠). نحن لا نرتِّل كلمات سبق حفظها، بل نرتل لنعمةٍ أخذناها، عاملةٍ فينا، وهي حسب تقوى الكنيسة: "لا نتكل على برنا، بل على رحمتك هذه التي أحييت بها جنسنا" (صلاة الحجاب في القداس الباسيلي).

ينادي الشماس الشعب: "قفوا للصلاة"، وهي دائماً تسبق الأواشي. نصلي من أجل سلامة الكنيسة، الكائنة من أقاصي المسكونة؛ لأن أمواج العالم تضربها، فلا تنتهي شهادتها ولا تسقط في الارتداد، ونطلب ذات الثبات للخدام لكي يكمل "تقدُّمه في الخدمة"، وقيادة الكنيسة، وهي المعنى الصحيح لعبارة "رئاسة الكهنوت"، وليس رئاسة الكهنة، والدليل على صحة ما نقول هو في كلمات الأوشية: "مكملاً رئاسة الكهنوت ... مفصلاً كلمة الحق باستقامة راعياً شعبكَ بطهارةٍ وبر". وتكمل هذه الأوشية، أوشية

الاجتماعات.

"انصتوا بحكمة الله"، .. أي استمعوا إلى التعليم الصحيح المودَع في قانون الإيمان؛ لأننا على أساس الإيمان والاعتراف، نبقى لكي ننال ما دُعينا إليه.

المصالحة الثالوثية:

أرسل الآب ابنه لكي "بظهوره المحيي" يهدم "الموت الذي دخل بحسد ابليس".

لم يكن الموتُ عقوبةً من الله، بل سعى إليه الإنسان حسب (سفر الحكمة ٢: ٢٣ و ٢٤ وايضاً تجسد الكلمة فصل ٤) وعندما هُدم الموت بالظهور المحيي، امتلأت الأرض من سلام سماوي لا يمت بصلةٍ لأي نظام أرضي، ولا هو عطية أرضية، بل هو تلك العطية التي من أجلها تسبح الملائكة الثالوث القدوس وتعطي له المجد؛ لأن الله سُرَّ بالبشر من جديد؛ لأن الساكن في وسط البشر هو الكلمة الذي تجسد وحلَّ بيننا.

مسرةُ الله أن يملأ قلب الإنسان المضطرب من السلام، وأن يخدم الإنسان، وأن يطهِّره من:

- الدنس،
- ومن الغش،
- ومن الرياء،
- ومن كل فعل فيه عودة للسيرة السابقة،
- ومن محاولة الانسان أن يكون صورةً إلهيةً بدون الله، وهذا هو تذكار الشر الذي جلب الموت.

هذه المصالحة التي يهبها الله هي التي تفتح طريق الأكل من شجرة الحياة: "لكي ننال بغير وقوع في دينونة" من الموهبة السماوية الجسد والدم التي لها ذات صفات الألوهة؛ لأنها:

- أولاً: غير المائتة.

- ثانياً: السماوية.

لأننا ننال جسد المسيح الممجَّد الذي غلبَ الموت، وداسَ الجحيم، وحَكَمَ على الدينونة بأنها ليست هي الدواء الواهب الحياة.

والاستعلان الإلهي في المصالحة تعبِّر عنه أُنشودة:

"تعال إلينا اليوم يا سيدنا المسيح

وأضيء علينا بلاهوتك الفائق (العالي)

ارسل علينا هذه النعمة العظيمة

التي لروحك القدوس المعزِّي.

(أسبسمس آدام بعد صلاة الصلح - خولاجي الدير المحرق ٢٤٧).

✠✠✠✠✠

"نشكرك يا يسوع، يا واهب الروح القدس، ينبوع الحياة، الروح القدس الذي أخذته من الآب لأجلنا عندما مُسحت في الأردن، لا لكي تحتفظ به لذاتك، بل تعطيه لنا لكي يكون لنا شركة معك في ذات مسحتك" (١يوحنا ٢: ٢٠).

شرح التسليم الكنسي

تغطية يدي الكاهن أثناء الصلاة

تغطية يدي الكاهن أثناء الصلاة بعد أن يرفع الابروسفارين، ليس كما ساد في زماننا عن أن هذه التغطية هي تغطية عُري آدم، فلا علاقة بين عُري آدم وخدمة السر، وإنما لأن اليدين اللتين تخدمان السر هما يدي المسيح رب المجد رئيس الكهنة، وليس يدي خديم السر. هكذا يقول ذهبي الفم نفسه: إن الكاهن الخديم يقدم يديه وفمه للرب أثناء الليتورجية.

نداءُ الشماس واستعادة الشركة:

"قدِّموا قدِّموا قدِّموا على هذا الرسم"، حسب الأصل اليوناني هي ما قُدِّمَ حسب التسليم لأن **τροπον** تعني ما هو ثابت ومعروف وحسب الحدود. وهنا نحن نقدم ذواتنا لمن قدَّم ذاته، ونقف برعدةٍ؛ لأننا سندخل الخدمة السماوية التي يخدمها الثالوث بالابن في الروح القدس؛ لأننا في اعترافنا بالمسيح الرب قد استدرنا من الغرب إلى الشرق، عندما قبلنا الرب يسوع في المعمودية: "إلى الشرق انظروا"، وهو النظر أو الفهم حسب الاعتراف، وهو ما يؤكده مرد الشعب:

- رحمة السلام الذي وُهِبَ في المصالحة

- وحياتنا التي صارت ذبيحة التسبيح للرب.

لذلك يرشم الخديم الشعب بعلامة الصليب؛ لأن المذبوح لأجلنا هو معنا يقبل

ذبيحة حياتنا، كما يقبل ذبيحة حياة الخديم، فهو معنا "ومع روحك أيضاً".

ويطلب الخديم وحدانية الذين يخدمون معه في الصلاة:

"أين هي قلوبكم .. هي عند الذبيح الرب يسوع".

عند ذلك، "فلنشكر الرب"؛ لأنه وحَّدنا به وبذبيحة حياته.

"مستحقٌ" وردت في سفر الرؤيا في تسبيح السمائيين (رؤ ٥: ٩). والاستحقاق هنا ليس مكافأةً ولا هو هبة، بل هو الانجاز العظيم الذي تم بتحرير الخليقة من فساد الموت، وسيطرة دينونة الموت، وفيض المغفرة.

ورغم ما أصاب كلمة "عادل" من تشويه، إلا أنها بعد كلمة "الإنجاز العظيم"، تصبح ردَّ ما سقط، وإعادة المائل إلى وضعه الصحيح؛ لأن العدل هو العدل الشافي الذي لا يعرفه البشر.

حقاً "مستحقٌ الرب"؛ لأنه خلَّصنا وأتى بنا إلى خدمة الخلاص.

إن عظمة التدبير تُستَعلَن في أن العظيم خالق السموات والأرض، هو الآب "أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح"، حيث لا يوجد فصل بين الخلق والخلاص. وأن مخلصنا يسوع المسيح هو الخالق مع الآب؛ لأن قدرة المخلص هي ذات قدرته كخالق لنا.

وعندما نقف في معية القوات السموات مرةً ثانيةً، ينادي الشماس: "إلى الشرق انظروا"، وهو نداءٌ يسبق شركتنا مع الشاروبيم والسارافيم. فقد فُتِحَ الفردوس، وتمَّت المصالحة مع الكاروبيم المتقلد السيف الناري الذي كان يمنعنا من الأكل من شجرة الحياة، ولذلك نحن نسمع ذلك التسبيح، ومعهم نرتِّل: "قدوس. قدوس. قدوس ...".

إن قوة التدبير تُستعلَن في أن العظيم هو الذي يأتي لكي يخدمنا، فالعظمة والقوة هي في تدبير الخلاص.

لم تتركنا عنك أبداً (إلى الانقضاء):

عندما افترق التعليم السائد عن التسليم الكنسي المودع في الليتورجيا، تسللت أفكارٌ كثيرة خاطئة، ودخلنا في تعليم نظري أبعد الإيمان عن الممارسة.

والمثال اللافت على ذلك هو أنه لا يوجد في التسليم الكنسي المدوَّن في الليتورجيات الأرثوذكسية أية إشارة إلى انفصال الله عن الكون والإنسان بعد السقوط، وإنما الثابت هو أنه حتى بعد أن "سقطنا من الحياة الأبدية .. لم تتركنا عنك أيضاً **ϣⲁ ⲉⲃⲟⲗ** إلى النهاية، أو أبداً، أو إلى الانقضاء". والدليل الباهر على ذلك هو مجيء الأنبياء. وبالرغم من أن الإنسانية لم تكن قد تابت عن خطاياها، ولكن "في آخر الدهور أو الأيام" ظَهَرَ، أي استُعلِن المخلِّص، رغم فساد الانسانية، أو حسب شرح الرسولي العظيم: "كان تجسده هو رد فعله على سقوطنا" (تجسد الكلمة).

والعبارة كافية: "ظهرتَ لنا نحن الجلوس في الظلمة وظلال الموت". فنحن لم نطلب هذا الظهور، ولكن تطوع ربُّ المجد بالمجيء إلينا متجسداً من البتول.

تجسد وصار إنساناً مثلنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها:

بشارةُ الخلاص، يعبِّر عنها تقديم البخور في الشورية. فدورات البخور في باكر وعشية ليست طقساً غريباً مبهماً لا معنى له، بل حَفِظَ لنا الطقس قبولنا للتجسد في تجسيد الإيمان في اتحاد النار بالفحم، وهو التشبيه الذي ورد عند أسد الإسكندرية كيرلس الأول – ختم الآباء، كما يوصف في عدة مصادر تاريخية، بما فيها المصادر البيزنطية.

فالكنيسة تقبل وتعيش الاتحاد الأقنومي المستعلَن في عدم الفساد الذي يعبِّر عنه البخور، وهنا تجسيد للاعتراف الحقيقي؛ لأننا عندما نقدِّم شيئاً، فإن الإرادة والإدراك والعقل والقلب يكون منشغلاً بما نقدم، لا سيما إذا كان ما نقدمه هو اعترافنا بتجسد

الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح.

أسلم ذاته فداءً عنا إلى الموت:

لو راجع الذين يصرخون بتعليمٍ عن الكفارة والفداء، لو راجعوا عبارة القداس، لوجدوا أنها ضد تعليم العصر الوسيط،

أولاً: لأن الرب "أحب خاصته الذين في العالم". هذا عمل محبة، وليس ضرورة فرضها العدل الإلهي حسب تُرَّهات العصر الوسيط الذي يدافع عنها بكل شراسة كل من المطران وأستاذه المتنيح.

ثانياً: "أسلم ذاته فداء عنا إلى الموت"، وهنا لا يوجد أي أثر حتى لفكرة الموت النيابي أو الموت النيابي العقابي؛ لأن الرب هو الذي أسلم ذاته **ⲁϥⲧⲏⲓϥ ⲙ̀ⲙⲓⲛ ⲙ̀ⲙⲟϥ** إلى الموت؛ لكي يهدم الموت، وهو ما سبق واعترفنا به في صلاة الصلح: "والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس، هدمته بالظهور المحيي الذي لأبنك الوحيد ...".

ثالثاً: كان الموت يملك علينا، وكنا نحن مثل عبيدٍ مربوطين به، أو حسب ترجمة أولاد العسال: "ممسكين به مباعين من قِبَل أو بواسطة خطايانا". هذه هي سيادة الموت، وحكم الموت، ومُلك الموت علينا كما شرحها رسول الرب في (رو ٥: ١٢-٢١)، ولاحظ: "ملكت الخطية بالموت أو في الموت".

رابعاً: وهو خاتمة اطلاق سراح العبيد: "نزل إلى الجحيم"؛ لكي يطلق سراح الأسرى، وبعدها مباشرةً "قام من الأموات".

إن خطورة التعليم بدفع الديون تبدو في أن القائلين بهذا التعليم والمدافعين عنه لم يدركوا أنهم جرَّدوا الآب والابن والروح القدس من الصلاح والجود والرحمة، وجعلوه أسيراً لحكم العدل بلا إرادة حُرةٍ، وصار مثل أي مخلوق خاضعٍ لحكم العدل.

د. جورج حبيب بباوي

+ + +